

جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية

ة الدراسات العليا والبحث العلمي

قسم العلوم الشرعية

شعبة العقيدة الإسلامية

الإمام ابن كثير ومنهجه في دراسة قضايا العقيدة

بحث تكميلي مقدم لاستكمال متطلبات الحصول على درجة العالمية الأولى (الماجستير) في العقيدة الإسلامية

إعداد الطالب

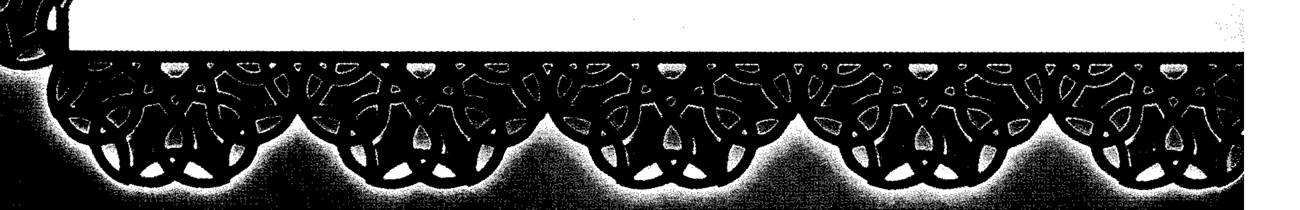
خالد حسين عبد الرحيم حمدان

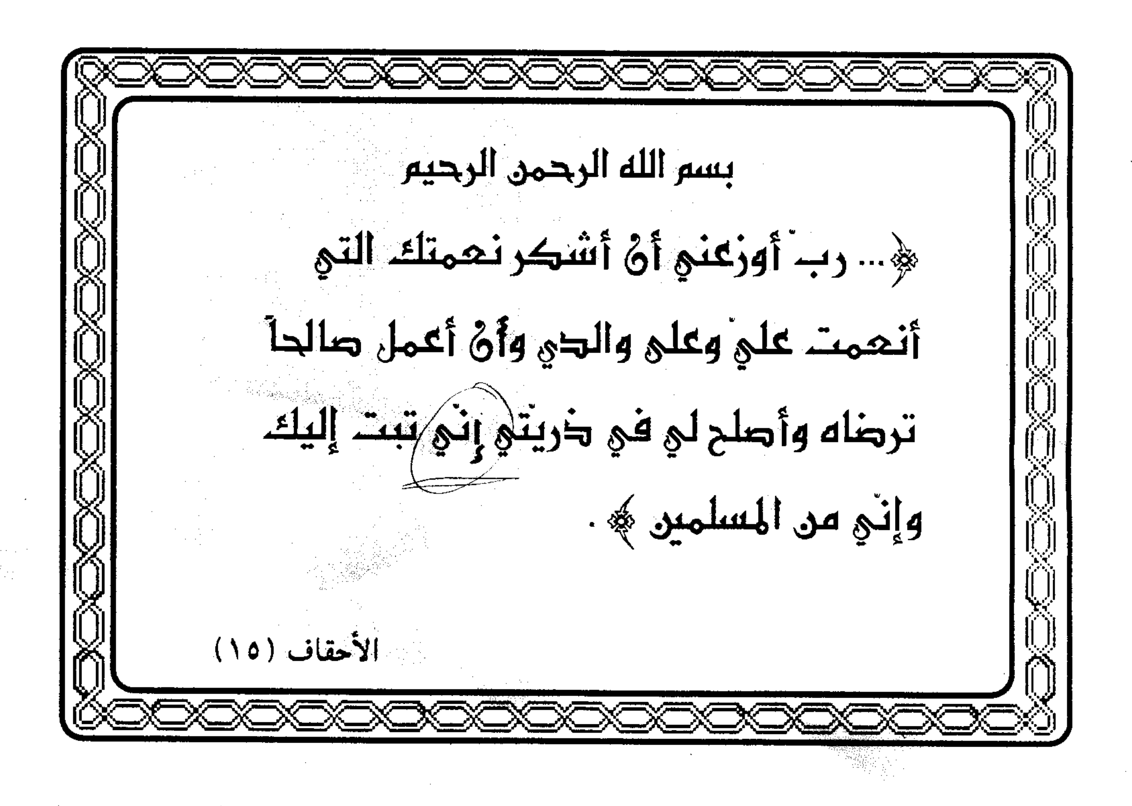
إشراف فضيلة الأستاذ الدكتور

أحمد محمد أحمد جلي

عميد كلية أصول الدين بجامعة أم درمان الإسلامية

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م





بسم الله الرحمن الرحيم
﴿... رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي
أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً
ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك
وإني من المسلمين﴾.
الأحقاف (١٥)

إهـــــداء

إلى مقام سيدي رسول الله ﷺ النعمة المسداة والرحمة المهداة ، والسراج المنير ، إعترافاً بأداء الأمانة وتبليغ الرسالة ، ونصح الأمة وكشف الغمة .

إلى والديّ الحبيبين الّذين غرسا ولم يجنيا ثمار غرسهما ، أسأل الله تعالى أن يكونا في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

إلى إخواني الأجبة أبي نضال وأبي طارق وأبي أسامة وأخواتي الحبيبات الحاجّة أم صلاح ، والحاجّة زينات ، وأم رائد ، وأم وديع ، وأم إياد .

إلى الشهداء والجرحى والمعّذبين وعلى رأسهم شيخ فلسطين الأسد الرابض فوق صدور الجلادين الشيخ المجاهد أحمد الياسين .

إلى إخواني المسلمين الأحباب من عرفت منهم تقديراً لأخوتهم التى ما انفضمت عراها .

لا خـيل عندك تـهـديهـا ولا مـال
فليـسـعـد النطق إن لم يسـعـد الحـال

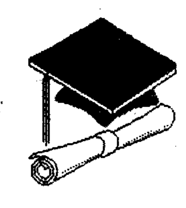
وإلى من لم أحظ بشرف معرفتهم تقديراً لرابطة العقيدة والدين .

إلى شيخى الكريمين أبي أسامة وأبي خالد .

إلى الوفاء أم طلحة زوجتي ، التى أخلصت بلا حدود ، وأعطت بلا حدود ومازالت إلى العلياء تدفع بي ، وإلى أبنائي أحبائي طلحة وحسن تقديراً لهم على تحملهم معي شظف العيش ومرارة الإغتراب .

إلى كل هؤلاء أهدي باكورة عملي هذا .

خالد





شكر وتقدير

أحمد الله تعالى وحده حمد شاكر لنعمائه ، وأثني عليه بما هو أهله ، وأشكره على ما أنعم علي من النّعم العظيمة التي لا أحصى عددها .

وأرى لزاماً عليّ أن اعترف بالفضل لأهله ، وأن أشكر كلّ من مدّ إليّ يد العون في هذا البحث مع اعترافي بالعجز عن تقديم الشكر الذي يكنّه ضميري لهم في عباراتٍ أسطرها ، إذا لا توفيهم بعض حقهم .

فاقدم شكري الجزيل إلى السّودان العربي المسلم حكومةً وشعباً ، هذا البلد الطيب أهله الذي فتح لنا أبوابه يوم أن أغلقت في وجوهنا الدنيا كما أنني أتقدم بالشكر الجزيل والتقدير والعرفان ، وعظيم الإمتنان لفضيلة شيخي الجليل

الأستاذ الدكتور /أحمد محمد أحمد جلي

عميد كلية أصول الدين بجامعة أم درمان الإسلامية ، الذي تفضّل بالإشراف على هذا البحث ، فوقاني بنصحه وارشاده عثرات الطريق ، وكان الأب الرحيم ، والمرشد المعلّم ، ولقد حظيت بنصحه وارشاده طوال إعداد هذا البحث ، وقد فتح لي قلبه فاستفدت الكثير من علمه وتوجيهه ، فالله أسأل أن يجزيه خير ما يجزي استاذاً عن طلابه ، وأن يبارك في وقته وعلمه وعمله .

واتقدم بالشكر الجزيل لأصحاب الفضيلة ، أستاذي الأغرين :

فضيلة الدكتور / شوقي بشير عبد المجيد ، رئيس قسم العقيدة في كلية أصول الدين بجامعة أم درمان الإسلامية .

وفضيلة الدكتور / عبد الله عبد الحي أبو بكر ، عميد عمادة الطلاب بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية .

وذلك على تفضلهما بقبول مناقشة هذا البحث إثراءً وتعديلاً .

كما أتقدم بالشكر والعرفان إلى جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية إدارة وعاملين وطلاباً ، وعلى رأس الجميع فضيلة الأستاذ الدكتور / أحمد علي الإمام مدير الجامعة وكبير هيئة علماء السودان .

والشكر والعرفان أيضاً إلى الجامعة الإسلامية بغزة هاشم ، وإلى الجامعة الإسلامية بخليل الرحمن .

وعظيم شكري وتقديري إلى الوالد الكريم فضيلة الدكتور / حسن بن عوف أحمد رئيس قسم اللغة العربية بجامعة أم درمان الإسلامية ، وذلك لتفضله عليّ بمراجعة هذا البحث مراجعةً لغويةً .

والشكر والعرفان للأخ الكريم التيجاني سعيد محمود الذي فتح قلبه وبيته ومكتبته لطلبة العلم ، فالله أسأله أن يجزل له العطاء .

والشكر أجزله إلى الجالية الفلسطينية بالسودان وأخص بالذكر رئيس الجالية الحاج خضر صقر حفظه الله تعالى .

وفي الختام أقدم شكري الجزيل لكل من ساعدني في إخراج هذا البحث إلى حيّز الوجود سواء كانت مساعدة مادية ، أو معنوية ، أو تشجيعاً ونصحاً من إخوة أعزاء ، وأصدقاء كرماء ، وأقارب أوفياء ، فأرجو من المولى الكريم أن يكلأ الجميع بعنايته ، وأن يتولى جزاءهم عنّي بما يكافؤهم ، أنه على ذلك قدير ، وبالإجابة جدير .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الباحث

ومضة على طريق البحث

كتب أستاذ البلغاء القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني إلى العماد الكاتب الأصبهاني معتذراً عن كلام استدركه عليه «أنّه وقع لي شئ ولا أدري أوقع لك أم لا وها أنا أخبرك به ، وذلك أنّي رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يوم إلا قال في غده : لو غيّر هذا لكان أحسن ، ولو زيد لكان يستحسن ، ولو قدّم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر فأرجو مسامحة ناظريه فهم أهلوها وأؤمل جميلهم فهم أحسن الناس وجوها » .

السادة

عن اتحاف المتقين بشرح إحياء علوم الدين للعلامة السيد محمد بن محمد الحسيني الشهير بمرتضى ج ١ ص ٣ . دار الفكر .

قدمت خطة البحث في يوم السبت ١٥/ ذو القعدة/ ١٤١٥ﻫ الموافق ١٥/ ٤/ ١٩٩٥م .

وتم تقديم البحث في يوم السبت ٩/ ربيع الثاني/ ١٤١٧ﻫ الموافق ٢٤/ ٨/ ١٩٩٦م .

وعليه تكون المدة الناتجة سنة وعشرة شهور وتسعة أيام فقط .

والحمد لله أولاً وأخيراً

مقـــــــــدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب والحكمة ، وأرسله للعالمين رحمةً ، فمن قبلها فيالها من نعمةٍ ، ومن ردّها وبدلها صارت الرحمة نقمة .

أحمدك ربي حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، باقياً على الدوام ، ماتعاقبت الليالي والأيام .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، تهدى قائلها مخلصاً إلى دار السلام وتزحزح معتقدها عن النار ذات الآلام ، وتبيض وجه قائلها يوم تبيض وجوه المؤمنين الكرام ، وتسودّ وجوه الكافرين اللئام .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وخليله وحبيبه ، سيّد ولد آدم في الدّارين ، ورسوله إلى الثقلين ،خاتم النبيين ، وإمام المتقين ، ومختار رب العالمين .

اللهم إنا نستدعى من رضاك المنحة ، كما نستدفع بك المحنة ، ونسألك العصمة كما نستوهب منك الرحمة ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، ويسر لنا العمل كما علّمتنا وأوزعنا شكر ما آتيتنا ، وانهج لنا سبيلاً يهدي إليك ، وافتح بيننا وبينك باباً نفد منه عليك ، لك مقاليد السموات والأرض وأنت على كل شئ قدير .

وبعد :

فإن اساس هذا الدين عقيدته ، وعليه فإنّ علم العقيدة هو أهم العلوم على الإطلاق ومن المطالب القويمة باتفاق ، إذ بمعرفته معرفةً سليمة والسير عليه سيراً مبصراً حثيثاً يعصم صاحبه من الكفر والنفاق .

ومعلوم أن أساس العقيدة في هذا الدين انما هو الإيمان بوجود الخالق عز وجل ، ووحدانيته وما أحوج الإنسان الذي لا يريد إلا الله والدّار الآخرة ، إلى عقيدةٍ صادقةً صحيحةٍ يلتزمها قولاً وعملاً لاينفك أحدهما عن الآخر .

ومن هنا فإن علم العقيدة ينبغى ألا يكون منعزلاً عن غيره من العلوم ، ولا منفصلاً عن سائر الفنون ، إذ العلائق والوشائج بين مختلف العلوم والفنون بينةٌ معلومةٌ ، ولا يجهلها إلا من جهل كل شئ .

وقد هيأ الله تعالى لي أن ألتحق بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية هذا الصرح الفتي المبارك ، حفظه الله تعالى والقائمين عليه كي يستمر في أداء رسالته الحضارية خدمة للعلم وطلابه .

ولما تم لي ذلك وقع اختياري على قسم العلوم الشرعية ، شعبة العقيدة الإسلامية لأتابع دراساتي العليا فيه ، وبعد أن أكملت متطلبات السنتين الأولى والثانية التمهديتين استعنت بالله واستهديته ، ثم استشرت بعض ذوي النصح والإرشاد من أهل العلم والسداد فوقع الاختيار على دراسة موضوع أسميته

«الإمام ابن كثير ومنهجه في دراسة قضايا العقيدة»

وكان لهذا الإختيار أسباب ودواعي أجملها فيما يلي :-

أهمية الموضوع وبواعث اختياره :-

أولاً : الإمام ابن كثير - رحمه الله تعالى - من الأئمة الأعلام ، وله تراث واسع في مختلف الفنون ، جمع فيه أشتات الفوائد ، فأحببت أن أقف مع هذا التراث وقفة طالب العلم ومستزيد الثراء فيه .

ثانياً: طغى على هذا العصر ما يسمّى بالاختصاص ، ومع ذلك فلا تراه موحّد البناء ولا قويم الأساس عند كثير من المختصين ، وابن كثير إمام مفسر ، ومحدث من كبار أهل السنّة ، فأحببت أن أبين أن العلم الشرعي كل متكامل وإن اختلفت مفرداته وإن على الباحث الجاد الذي يسعى لخدمة دينه ووطنه وأمته أن يكون ملمّاً من كل علم بطرف .

ثالثاً: أحببت لهذا البحث أن يميط اللثام عن تلمذة ابن كثير على شيخه ابن تيمية ويبين هل كان لها تأثير في منهج البحث عند ابن كثير أم لا ، وهذا فيما يتعلق ببعض المفردات التي سيطرقها هذا البحث إن شاء الله تعالى .

رابعاً: رغبة الباحث في أن يلم من بعض فنون العلم ببعض الأطراف ووقع الاختيار على هذا العالم المتعلم ، لأنه عالم مبدع متميز نال الثناء من معاصريه ومن بعدهم .

خامساً: الرغبة في تقديم شئ نافع ومفيد للباحث والباحثين والمكتبة الإسلامية .

الجهود السابقة :

لا يعلم الباحث أن أحداً من الباحثين عرض لبيان جهود الإمام ابن كثير في إبراز عقيدة الإسلام في قضاياها المختلفة ، إلا ما كان من الباحث على بن حسين بن علي موسى حيث تقدم ببحث لنيل درجة الماجستير من جامعة الإمام محمد بن سعود في عام ١٤٠٩هـ ، وكان عنوان بحثه : (منهج بن كثير في تقرير عقيدة السلف) .

والمعلومات المتوفرة لدى الباحث عن تلك الدراسة أنها متعلقة بالأسماء والصفات وبعض القضايا الخلافية ، وهذا الجانب لا يمثل إلا جزءاً من هذه الدراسة ، إذ إن البحث الذي يقدمه الباحث اليوم يشمل هذا وغيره ، وبالتالي لا يرى الباحث أن تلك الدراسة يمكن أن تكون عائقاً له عن المضي قدماً فيما يريد ، والله المستعان .

منهج البحث :

أولاً : قام الباحث بجمع العديد من الآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة المتصلة بموضوع الدراسة للاستدلال والاستشهاد ، وقد استعان الباحث في ذلك بالمعاجم المفهرسة ، كالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، والمعاجم المفهرسة لألفاظ الحديث الشريف .

ثانياً : اعتمد الباحث بالدرجة الأولى على ماهو متوفر من كتب الإمام ابن كثير ، وقد استخلص منها آراءه العقديّة .

ثالثاً : بذل الباحث قصارى جهده في الحصول على مالزم للدراسة من مصادر واستعان بما هو مفيد في هذا الشأن .

رابعاً : قام الباحث بعزو الآيات القرآنية إلى سورها وأثبت ذلك في الحاشية وكرر الفعل نفسه في تخريج الأحاديث النبوية الشريفة .

خامساً : عرّف الباحث وترجم للكثير من الأعلام عند ذكرهم في هذا البحث لأول مرة .

سادساً : ختم الباحث بحثه بخاتمة اشتملت على أهم النتائج والتوصيات تلا ذلك الفهارس للآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والأبيات الشعرية والأعلام والرواة ، والمصادر والمراجع ، وفهرساً عاماً لما أحتواه البحث .

أهداف البحث :

أولاً : التأكيد على أن علم العقيدة هو أهم العلوم على الإطلاق .

ثانياً : التأكيد على أن علم العقيدة ينبغى أن يكون الركيزة القوية والمعتمدة التى ترتكز وتعتمد عليها كل العلوم .

ثالثاً : بيان أن مسألة الإختصاص في العلوم ولاسيما النظرية منهاهي مسألة مستحدثة وما ينبغى لها أن تكون ، فقد كان العالِم من سلف هذه الأمة علماً في غير واحد من العلوم أمثال الإمام ابن كثير وشيخه الإمام ابن تيمية .

رابعاً : بيان أن مخالفة التلميذ لشيخه أمر لا غبار عليه إذا كانت المخالفة قائمة على أسس سليمة ودلائل قويمة ، وإذا روعيت فيها الآداب المطلوبة ، وهذا يستدعى أن التبعية في كل الأمور إلا الحسن منها هي أمر مستقبح ، لما في ذلك من الإمعيّة المنهي عنها شرعاً .

خطة البحث :

يشتمل البحث على مقدمة ، وتمهيد ، وفصلين ، وخاتمة وهذا بيانه : أما المقدمة فقد اشتملت على :

أهمية الموضوع وبواعث اختياره ، والجهود السابقة ، ومنهج البحث ، وأهدافه وأما التمهيد :فقد تعرضت فيه لمفهوم العقيدة معرفاً لها ، ومبيناً مباحثها الأربعة وهي الإلهيات ، النبوات ، السمعيات ، الغيبيات .

وأما الفصل الأول فقد خصصته لدراسة حياة الإمام ابن كثير ، ولقد اشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : عصره ، وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الحياة السياسيّة .

المطلب الثاني : الحياة الإجتماعيّة والإقتصاديّة .

المطلب الثالث : الحياة الدينيّة .

المطلب الرابع : الحياة العلميّة والعقليّة ومراكز العلم .

المبحث الثاني : حياته الخاصة ، وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : اسمه ، مولده ، نشأته .

المطلب الثاني : نسبه ، نسبته ، لقبه .

المطلب الثالث : أسرته (والده ، والدته ، إخوانه ، زوجته وأولاده) .

المطلب الرابع : صفاته ومعالم شخصيته .

المبحث الثالث : حياته العلمية : وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : نشاطه في طلب العلم .

المطلب الثاني : شيوخه وتلاميذه .

المطلب الثالث : مكانته العلمية وثناء العلماء عليه .

المطلب الرابع : مؤلفاته ووفاته .

في حين أن الفصل الثاني قد اشتمل على القضايا العقدية في دراسات الإمام ابن كثير وقد اشتمل على سبعة مباحث :

المبحث الأول : أدلة الإمام ابن كثير في تقرير مسائل العقيدة وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : القرآن الكريم .

المطلب الثاني : السنّة النبويّة .

المطلب الثالث : أقوال الصحابة .

المطلب الرابع : أقوال التابعين .

المطلب الخامس : اجتهاده .

المبحث الثاني : قضايا الإيمان والكفر عند ابن كثير ، وفيه سبعة مطالب .

أولاً قضايا الإيمان :

المطلب الأول : كيفية الدخول في دين الله عزّ وجلّ .

المطلب الثاني : زيادة الإيمان ونقصه .

ثانياً : قضايا الكفر : (نواقض الإيمان) .

المطلب الثالث : نقض توحيد الربوبية .

المطلب الرابع : نقض توحيد الأسماء والصفات .

المطلب الخامس : نقض توحيد الألوهية .

المطلب السادس : الطعن في الرسول ﷺ .

المطلب السابع : عدم الحكم بما أنزل الله تعالى .

المبحث الثالث : الإلهيات في دراسة ابن كثير وفيه ستة مطالب :

المطلب الأول :وحدانية الله تعالى ، والآيات الدّالة على وجوده في الآفاق وفي الأنفس

المبحث الثالث : الإلهيّات في دراسة ابن كثير وفيه ستة مطالب :

المطلب الأول : وحدانيّة الله تعالى ، والايات الدّالة على وجوده في الآفاق وفي الأنفس .

المطلب الثاني : أسماء الله تعالى وصفاته .

المطلب الثالث : رؤية الله تعالى .

المطلب الرابع : موقفة من قضية التأويل .

المطلب الخامس : الموازنة بين منهجي ابن كثير وابن تيمية في قضية التأويل .

المطلب السادس : قضاء الله وقدره وموقع الإنسان منه .

المبحث الرابع : النبوات في دراسة ابن كثير وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : موقفة من قصص الأنبياء .

المطلب الثاني : عصمة الأنبياء .

المطلب الثالث : الأنبياء وما يتعلق بأوصافهم ، ورسالاتهم ومعجزاتهم ، والمفاضلة بينهم

المطلب الرابع : رأيه في الكرامات .

في دارسة ابن كثير ، وفيه مطلبان :١٢المبحث الخامس : السمعيات

المطلب الأول : الملائكة وما يتعلق بهم .

المطلب الثاني : الجنّ وما يتعلق بهم .

المبحث السادس : في علاقة العبد بربه عزّ وجلّ ، وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : متى يكون العبد محباً لله على الحقيقة .

المطلب الثاني : رأي ابن كثير في التقرب إلى الله بالأولياء والصالحين .

المطلب الثالث : رأية في الاستغاثة والتوسل بالموتى .

المطلب الرابع : رأيه في زيارة قبور الأنبياء والصالحين للتيمن والتقديس .

المبحث السابع : الغيبيات في دارسة ابن كثير ، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : الموت ومايتعلق به .

المطلب الثاني : أشراط الساعة .

المطلب الثالث : يوم القيامة وما يحدث فيه .

ثم جاءت من بعد ذلك خاتمة البحث لتشتمل على أهم النتائج والتوصيات .

تمهيد

تعريف العقيدة :

العقيدة لغة من عقد : الشئ يعقده عقداً والعقد نقيض الحل ، وعقد العهد واليمين أكّدها ، والعقد : العهد ، والجمع عقود ، وعقد قلبه على الشئ لزمه ، والمعاقدة المعاهدة والميثاق [(١)] .

أما في الأصطلاح : «ما يقصد فيه نفس الاعتقاد دون العمل ، كعقيدة وجود الله وبعثة الرسل ، وهي الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدي معتقده» [(٢)] .

قال ابن خلدون : «هي علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الإعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة» [(٣)] .

«وهي ما انطوى عليه القلب والضمير ، تطلق على المعتقدات الدينية منها «العقائد» أو علم «العقائد» تسمية متأخرة عن علم الكلام ، وعلم التوحيد كثر استعمالها منذ القرن السادس عشر الهجري» [(٤)] .

مفهوم العقيدة :

يمكننا أن نفهم العقيدة من خلال حديث جبريل - عليه السلام - المشهور حين جاء إلى النبي ﷺ في صورة أعرابي يسأله عن الإسلام ، والإيمان ، والإحسان فأجاب ﷺ عن الإيمان بقوله «أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره» [(٥)] .

---

(١) انظر لسان العرب / لابن منظور مادة عقد ٤/٣٠٣٢-٣٠٣٣ -دار المعارف .

(٢) التعريفات /علي بن محمد الجرجاني ، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة ص ١٩٧ ط (١) عالم الكتب ، والمعجم الوسيط / د. إبراهيم انيس وآخرون ٣/٦١٤ دار الدعوة .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٥٨ المكتبة التجارية الكبرى - بمصر .

(٤) الموسوعة العربية الميسرة ٢/١٢٢٢ ، دار نهضة لبنان للطبع والنشر ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ابن حجر العسقلاني ١/١٤ كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإحسان حديث رقم (٥٠) ط - دار المعرفة .

وصحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج ١/٤٠ كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان حديث رقم (٧) ط دار الفكر .

ومن هنا فإن مفهوم العقيدة ينتظم ستة أمور هي :

أولاً : المعرفة بالله تعالى ، وبأسمائه الحسنى ، وصفاته العلى ، والمعرفة بدلائل وجوده ومظاهر عظمته في الكون والطبيعة .

ثانياً : المعرفة بالعالم غير المنظور ، ومافيه من قوى الخير المتمثلة في الملائكة ، وقوى الشر المتمثلة في إبليس وجنوده من الشياطين .

ثالثاً : المعرفة بكتب الله عزّ وجل التي أنزلها لتحديد معالم الحق والباطل .

رابعاً : المعرفة بأنبياء الله ورسله الذين اختارهم ليكونوا أعلام الهدى وقادة الخلق إلى الحق .

خامساً : المعرفة باليوم الآخر ، ومايحدث فيه من بعث وجزاء ، وثواب وعقاب ، وجنّة ونار .

سادساً : المعرفة بالقضاء والقدر خيره وشره ، والذي يسير عليه نظام الكون في الخلق والتدبير .

أهمية البحث :

تتلخص أهمية العقيدة في توجيه إرادة الإنسان إلى أنواع من السلوك تجلب له مصلحة أو تدفع عنه مضرة ، ذلك أن غرائز الإنسان ودوافعه وأهواءه ، وشهواته المودعة فيه تتحكم فيها إرادته الحرة فإذا كانت إرادته راشدة كان إدراكه للأمور صحيحاً مسلماً وإذا كانت الأخرى كان كالأنعام بل هو أضل ، والضابط لإرادة الإنسان لكي تكون راشدة هو أن يكون من ورائها عقيدة سليمة لأنه متى استقامت الأساسيات الكبرى لديه كان أطوع للاستقامة على طريق الخير والرشاد .

مباحث العقيدة :

سيراً على ما يفعله كثير من الباحثين فإن مباحث العقيدة تنقسم إلى أربعة أقسام هي : الإلهيات ، النبوات ، السمعيات ، الغيبيات .

أما الإلهيات : فتختص بدراسة أدلة وجود الله تعالى ، ووصفه تعالى بجميع صفات الكمال وتنزيهه عن جميع صفات النقص ، والبحث في أفعال الله تعالى ، ورؤية المؤمنين له في الجنّة وغير ذلك .

وأما السمعيات : فتختص بدراسة الملائكة ، ووجودهم وأصل خلقهم وصفاتهم وعن الجن ومايتصل بخلقهم وصفاتهم وعلاقتهم بالانس إلى غير ذلك من القضايا .

وأما الغيبيات : فتختص بدراسة الأمور التي لا سبيل إلى الإيمان بها إلا سبيل الخبر اليقيني الصادق ، كالموت ، والحياة البرزخية ، وأشراط الساعة ، والحساب والميزان والجن والنار وغير ذلك .

الفصل الأول
حياة الإمام ابن كثير

ويشتمل على ثلاثة مباحث :-

المبحث الأول :

عصره

المبحث الثاني :

حياته الخاصة

المبحث الثالث :

حياته العلمية

المبحث الأول

عصره : ويشتمل على أربعة مطالب

المطلب الأول : الحياة السياسية

المطلب الثاني : الحياة الاجتماعية والاقتصادية

المطلب الثالث : الحياة الدينية

المطلب الرابع : الحياة العلمية والعقلية ومراكز العلم

المبحث الأوّل

عصــره*

عادة مايرتبط الإنسان ببيئته التي ينشأ فيها ارتباطاً وثيقاً، فيتأثر بها ، ويؤثر فيها ولقد

---

* اعتمدت في ترجمة الإمام ابن كثير على المصادر الآتية :

(١) إنباء الغمر بأبناء العمر ، لابن حجر العسقلاني .

(٢) البداية والنهاية ، لابن كثير

(٣) تاريخ الأمم والملوك ، للطبري .

(٤) المختصر في أخبار البشر ، لأبي الفداء .

(٥) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ابن حجر .

(٦) دائرة المعارف الإسلاميّة ، ماكدونالد وآخرون .

(٧) الردّ الوافر على من زعم بأن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر ، الدمشقي .

(٨) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ابن العماد الحنبلي .

(٩) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، القلقشندي .

(١٠) الضوء اللاّمع لأهل القرن التاسع ، السخاوي .

(١١) طبقات الشافعيّة الكبرى ، تاج الدين السبكي .

(١٢) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير .

(١٣) لبّ اللّباب في تحرير الأنساب ، جلال الدّين السيوطي .

(١٤) معجم البلدان ، ياقوت الحموي

(١٥) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ابي الحسن المسعودي .

(١٦) مقالات الاسلاميّين ، ابي الحسن الاشعري .

(١٧) الملل والنحل ، الشهرستاني .

(١٨) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، جمال الدين الأتابكي .

(١٩) النّجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جمال الدين الأتابكي .

(٢٠) الانساب ، للسمعاني .

(٢١) نهاية الأرب في فنون الأدب ، أحمد النويري .

(٢٢) نهاية لأرب في معرفة انساب العرب ، القلقشندي .

(٢٣) وفيات الأعيان ، ابن خلّكان .

ألمح كل من القرآن الكريم والسنّة النّبوية إلى مثل هذا ، فقال تعالى : ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (١)

وعن أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه (٢) عن النبي ﷺ قال : «مثل مابعثني اللّه به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقية قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع اللّه بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه في دين اللّه ، ونفعه مابعثني اللّه به فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى اللّه الذي أرسلت به » . (٣)

وفي هذه العُجالة سنسلط الضَوء على حياة الإمام الحافظ ابن كثير ، والتي سنتعرض فيها للبيئةالتي نشأ فيها من جوانبها السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والدينية والعلمية والعقلية ، لنتعرف من خلالها على مدى تفاعل الإمام ابن كثير - رحمه اللّه - مع مجتمعه ومدى إسهامه فيه ، وإلى أي حدّ شارك في أحداثه .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ٥٨ .

(٢) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر الأشعري ، أسلم وهاجر إلى الحبشة . ولّاه رسول الله ﷺ مخاليف اليمن . وولّاه عمر البصرة ثم عزله عثمان عنها . فنزل أبو موسى حينئذ بالكوفة وسكنها ، فلما دفع أهل الكوفة سعيد بن العاص ولّوا أبا موسى وأقرّه عثمان عليها إلى أن مات ، وعزله علي رضي الله عنه ، ومات بالكوفة في داره وقيل أنه مات بمكة سنة ٤٤ هـ .
أُنظر الإستيعاب في معرفة الأصحاب لأبي عمر يوسف بن عبد البر تحقيق محمّد علي البجّاوي ٩٨٠/٣ مكتبة نهضة مصر .

(٣) متفق عليه ، انظر فتح الباري كتاب العلم ، باب فضل من عَلِمَ وَعَلَّم ١٧٥/١ ، حديث رقم ٧٩ تحقيق عبد العزيز بن باز ، وصحيح مسلم ، ١٧٨٧/٤ ، كتاب الفضائل باب بيان مثل مابعث النبي ﷺ من الهدى والعلم حديث رقم ٢٢٨٢ .

المطلب الأول
الحياة السياسيّة

منذ أن صدع سيدنا رسول الله ﷺ بدعوة لا إله إلا الله محمد رسول الله ، احتدم الصراع بين الكفر والإيمان .. بل إن الناظر في عمق التاريخ يدرك أن الصراع كان قديماً بين دعوات الرسل السابقين والكفّار من بني قومهم .

ولقد زادت حدة الصراع يوم أن خرج المسلمون من شبه الجزيرة العربية لنشر دعوة الإسلام ليخرجوا العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الحكام إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .

ولقد حدث هذا فعلاً ،حيث فتح المسلمون الأندلس وغربي أوربا إلى جانب أجزاء كثيرة من المعمورة .

كل هذا والكفار لا يستطيعون فعل شئ سوى أنهم يزدادون حقداً إلى حقدهم على الإسلام .

ولكن لما تخلى المسلمون عن دينهم انقلب الحال غير الحال ، فلقد حلّ بالعالم الإسلامي الضعف ، وتمزقت وحدة الأمة الإسلامية ، الأمر الذي أتاح الفرصة للكافرين كي ينفّسوا عن أحقادهم الدفينة ، حيث نشبت الحروب الصليبية ، والتي استغرقت نحو قرنين من الزمان ، حيث بدأت سنة ٤٩٢هـ ، وانتهت سنة ٦٩٠هـ .

فإذا تجاوزنا الحروب الصليبية على اعتبار أنها كانت سابقة لعصر الإمام ابن كثير ، فإننا مضطرون للحديث عن الغزو التتري للعالم الإسلامي ، لما له من علاقة بحياة الإمام ابن كثير ، والذي بدأ سنة ٦١٦هـ حتى سنة ٨٠٧هـ .

الغزو التتري للعالم الإسلامي :

يعتبر الغزو التتري للعالم الإسلامي نكبة من أعظم النكبات التي حلت به ، واستمرت حوالي قرنين من الزمان .

قال ابن الأثير : «لقد بقيت عدّة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها ، كارهاً لذكرها ، فأنا أُقدِّم إليه رجلاً ، وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي

الإسلام والمسلمين ، ومن الذي يسهل عليه ذكر ذلك ؟ ياليت أمي لم تلدني ، وياليتني مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً ... ثم يقول : فلو قال قائل : إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً ، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا مايدانيها .

ومن أعظم مايذكرون من الحوادث مافعله بختنصر ببني اسرائيل من القتل ، وتخريب البيت المقدّس ، ومالبيت المقدس بالنسبة إلى ماخرّب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس ، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا ؟ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلاّ يأجوج ومأجوج » .[1]

أما عن سبب غزو التتار لبلاد المسلمين فهو أن جنكيز خان - ملك التتار- بعث تجاراً له ومعهم أموالٌ كثيرة إلى بلاد خوارزم شاه يبتضعون له ثياباً للكسوة ، فكتب نائبها إلى خوارزم شاه يذكر له مامعهم من كثرة الأموال ، فأرسل إليه بأن يقتلهم ،ويأخذ مامعهم ففعل ذلك .

فلما بلغ جنكيز خان خبرهم ، أرسل يتهدد خورازم شاه ، ولم يكن مافعله خوارزم شاه فعلاً جيداً ، فلما تهددهم أشار من أشار على خوارزم شاه بالمسير إليهم ، فسار إليهم وهم في شغل شاغل بقتلى كشلى خان ، فنهب خوارزم شاه أموالهم وسبى ذراريهم وأطفالهم ، فأقبلوا إليه محروبين ، فاقتتلوا معه أربعة أيام قتالاً لم يسمع بمثله .

أولئك يقاتلون عن حريمهم ، والمسلمون عن أنفسهم ، يعلمون أنهم متى ولّوا استأصلوهم فقتل من الفريقين خلق كثير ، حتى إن الخيول كانت تزلق في الدماء .[2]

ومن أعظم النكبات التي حلّت بالعالم الإسلامي إبّان الغزو التتري له هو سقوط بغداد

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري ٣٥٨/١٢ - ٣٥٩ ، ط دار صادر - بيروت ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م . وانظر طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي ١٧٥/١ ط ٢ - دار المعرفة بيروت .

(٢) انظر البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ٨٢/١٣ - ٨٣ ، ط٣ - ١٩٨٠م - مكتبة المعارف بيروت .

فقد زحف هولاكو [1] على بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية - الدولة العباسية آنذاك - فدمَّرها ، وقتل الخليفة المستعصم وجلّة العلماء والفقهاء ، ووضع السيف في أهلها أربعين يوماً حتى زاد عدد القتلى على ثمانمائة ألف (عدا الأطفال ، ومن هلكوا في السراديب ، والقنى ، والآبار) ، وبدد مظاهر الحضارة من كتب وفنون وتراث ،ونهب أكثر من أربعمائة ألف مجلَّد . [2]

وتؤكد غارات التتار هذه وغيرها على أنّ سنة الله في خلقه ماضية لا يمكن لها أن تتخلف ، فكلما انحدرت الحضارة ، وغلب الترف ، ووقع التفكك ، وضعفت الجيوش وتخلت الأمة عن مقومات فكرها ، وقيمها الأساسية ، أو بمعنى آخر إذا دب الوهن في قلوب المسلمين ، كان لابد لملكهم أن يسقط .

وقد اجمع المؤرخون على أن غزو التتار لبغداد إنما كان بتحريض واتفاق من ومع الصليبيين ، في سبيل القضاء على قوة الإسلام ، فقد كانت زوجة هولاكو «دقوز خاتون» مسيحية نسطورية ، وكانت ذات نفوذ مسموعة الكلمة ، وقد كان للقوى الصليبية في مملكة هولاكو نفوذ بارز ، ومن هنا استطاعت هذه القوى وفق خطة مرسومة أن تحرض التتار وتستغل قوتهم في القضاء على عالم الإسلام .

وبعد مرور عامين على سقوط بغداد ، بعد سنوات طويلة من الإندفاع المغولي، والانتصار التتري ، دون أن تقف في وجههم قوة يحسب حسابها ، قيّض الله للمسلمين قوة تدافع عن الإسلام تمثلت في وحدة مصر والشام ، حيث هزم المسلمون التتار في معركة عين

---

(١) إن هولاكو لم يكن مستقلاً بالملك، بل كان تحت رئاسة أخيه (مونككا) الخان الأعظم ، الذي بعثه مع قسم من الجيوش لغزو البلاد التي غربي الفرات ، بدليل أنه لم يكن يضرب اسمه على السكك ، بل اسم الخان العظيم ، والذي حمل بعض مؤرخي العرب أن يذكروا هولاكو كأنه خان عظيم ، انما هو لانه أول من ملك بلاد المسلمين بعد سقوط بغداد ، وزوال الدولة العباسية .
انظرتاريخ مختصر الدول - غرغوريوس الملطي المعروف بابن العبري ص ٣٧٦ . ط دار الميسرة بيروت .

(٢) انظر الإسلام وحركة التاريخ لأنور الجندي ٥/٢٢٤ - ط ٨ ، دار الكتاب اللبناني ، دار الكتاب المصري ، ١٩٨٦م . والمسيرة الإسلامية للتاريخ لمنير الغضبان ص ١٦٠، ط٢ - ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م ، دار الفرقان . والبداية والنهاية ١٣/ ٢٠٠ - ٢٠٣ .

جالوت بقيادة الملك المظفر سيف الدين قطز . [1]

على أثر ذلك إزداد حنق التتار على مصر ، ولذلك تتالت الحملات التترية على مصر والشام ، ومن هذه الحملات وقعة قازان سنة ٦٩٦هـ وفيها هزم المسلمون ، وبالرغم من ذلك رفض أهل الشام تسليم قلعتهم للتتار ، فإن الشيخ تقي الدين ابن تيمية [2] أرسل إلى نائب القلعة يقول له :«لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت» وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام ، فإن الله تعالى حفظ لهم هذا الحصن ، والمعقل الذي جعله الله حرزاً لأهل الشام التي لا تزال دار إيمان وسنة حتى ينزل فيها عيسى بن مريم .

لكن التتار دخلوا الصالحية فنهبوا الأموال ، وحرقوا المساجد ، وسبوا من أهلها خلقاً كثيراً ، وجمّاً غفيراً . كل ذلك بسبب تحالف النصارى معهم قبحهم الله .

وفي سنة ٧٠٢هـ تجددت المعارك مرة أخرى بين المسلمين والتتار وحرض شيخ الإسلام ابن تيمية المسلمين على الجهاد ، وذهب بنفسه إلى مصر ليستحث السلطان و المسلمين على السير إلى دمشق وملاقاة التتار ، وظل الأمر كذلك إلى أن أُنزل الله النصر على المسلمين وقتلوا من التتار مالا يعلم عدده إلاّ الله ، وجعلوا يجيئون بهم في الجبال فتضرب أعناقهم .. وكشف الله بذلك عن المسلمين غمة عظيمة شديدة ولله الحمد والمنة . [3]

وقد كان لمصر والشام دور كبير في صد التتار ، وحمل لواء المقاومة في تلك الفترة العصيبة التي مرت بالعالم الإسلامي ، واستطاع الإسلام أن يصهر المعتدين في بوتقة حيث دخل خلق كثير من التتار في دين الله أفواجاً وأصبحوا يذودون عن البلاد التي فتحوها باسم الدين لا باسم السيطرة التاريخية .

---

(١) انظر الاسلام وحركة التاريخ ٢٢٥/٥ - ٢٢٦ .

وقطز هو الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله . الثالث من ملوك الترك بالديار المصرية وقال عن نفسه أني محمود بن ممدود ابن اخت السلطان خوارزم شاه . نصر الله الاسلام على يديه في معركة مع التتار هي معركة عين جالوت بفلسطين (قريه بين بيسان ونابلس) . انظر النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة / ابن تغري بردى ٧٢/٧ - ٨٧ ، طبعة مصورة عن دار الكتب شذرات الذهب في أخبار من ذهب / ابن العماد الحنبلي ،٩٣/٥ - دار الافاق الجديد - بيروت .

(٢) ستأتي ترجمته عند الحديث عن شيوخ الامام ابن كثير في المبحث الثالث من هذا البحث .

(٣) انظر البداية والنهاية ٦/١٤ ، ٢٦ .

وتعد معركة عين جالوت من المواقع الفاصلة في التاريخ ، فلو انتصر التتار في هذه الموقعة لفعلوا بمصر وأهلها مافعلوا بالعراق وأهله ، ولأقاموا واستقروا في الشام ، ومن هنا لم ينقذ انتصار المماليك مصر وحدها ، بل انقذ الشام أيضاً.[١]

ظهور الأفرنج :

كنا في البداية قد أعرضنا صفحاً عن الحديث عن الحروب الصليبية على اعتبار أنها كانت سابقة لعصر الإمام ابن كثير ، إلا أن الصراع لم ينته بين عالم الإسلام والغرب بسقوط آخر معقل للصليبيين في الشرق سنة ٦٩٠هـ[٢]

فالتاريخ يثبت حتى هذه اللحظة أن الغرب الصليبي الضال يكيد للاسلام ويريد سحقه وإبادة أهله . ومالحرب الطاحنة وما يسمى بالتطهير العرقي ،[٣] الذي تعرّض له المسلمون في البوسنة والهرسك خلال اربع سنوات إلاّ دليلٌ قاطعٌ على مانقول .

وماتسلط الولايات المتحدة الأمريكية ، وما يسمى بالنظام العالمي الجديد على العالم الاسلامي إلا دليلٌ على مانقول ، فتارة تتدخل عسكرياً كما فعلت في لبنان والعراق والصومال ، وتارة تفرض حصاراً اقتصادياً كما هو حاصل مع ليبيا ، وتارة تجمع بين الأثنين كما فعلت مع العراق فبعد أن دمرته عسكرياً حاصرته اقتصادياً ، ولا يخفى على أحد مايترتب على ذلك من خسائر .وهي اليوم تتحرش بالسودان ليس إلا محاولة منها لإفشال مشروعه الحضاري المتمثل في نهجه الإسلام .

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٢٤ ، ٢٥ .
وانظر العصر المماليكي في مصر والشام للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ص ٣٤ - ٣٥ ، ط٢ - دار النهضة العربية .

(٢) انتهى الحكم الصليبي للأراضي المقدسة بعد فتح مدينة عكا على يد السلطان الملك الأشرف خليل بن السلطان قلاون ، حيث فتحها في يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٦٩٠هـ ، وهو نفس اليوم الذي سقطت فيه عكا سنة ٥٨٧هـ . انظر المختصر في أخبار البشر للملك المؤيد أبي الفداء اسماعيل بن علي ص ٥٢٤ / طبعة دار الفكر .

(٣) من الخطأ الفادح أن تطلق كلمة «التطهير العرقي» على التخلص من الاسلام وأهله ، لأن كلمة التطهير إنما تطلق على إزالة النجاسات . والاسلام هو الطهارة بعينها والنقاء بعينه ، وأهله أطهار .

وصدق الله العظيم القائل : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ . (١)

ولقد عاد الإفرنج سنة ٧٥٧هـ واستحوذوا على مدينة صفد ، فقتلوا طائفة من أهلها ونهبوا شيئاً كثيراً ، وأسروا أيضاً وهجموا على الناس وقت الفجر يوم الجمعة ، وقد قتل منهم المسلمون خلقاً كثيراً .

وفي سنة ٧٦٧هـ استولى التتار على الاسكندرية بعد أن استعانوا بطائفة من الفرنج ففتحوها قسراً ، وقتلوا من أهلها خلقاً ، وغنموا شيئاً كثيراً. (٢)

وهكذا فإن العصر الذي عاشه الإمام ابن كثير كان من الناحية السياسية مليئاً بالحروب والمعارك التي شارك فيها كثير من العلماء أمثال الامام ابن كثير نفسه وشيخه الحافظ تقي الدين ابن تيمية - رحمهما الله رحمة واسعة - .

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٠ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١٤/٢٥٥ ، ٣١٤ .

المطلب الثاني
الحياة الاجتماعية والاقتصادية

كان هذا الجانب من الحياة في عصر الإمام ابن كثير من أسوأ مايكون حيث القحط والفقر ، والأوبئة ، والأمراض الفتاكة من كل حدب وصوب .[1]

كما كان لتعدد الأجناس وتعدد دياناتهم أثر كبير أدى إلى عدم استقرار المجتمع ، وفيما يلي نستعرض بشكل موجز بعض جوانب الحياة الاجتماعية أولاً ثم الاقتصادية ثانياً .

أولاً : الحياة الاجتماعية :

أ/ إنتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة .

انتشر الوباء في البلاد - في عصر الامام ابن كثير - انتشاراً فظيعاً حتى قيل : إن أهل بعض البلاد مات أكثرهم أو مايقارب ذلك . وكثر الموت في الناس بأمراض الطاعون وزاد عدد الأموات كل يوم على المائة ، وإذا وقع في أهل بيت لا يكاد يخرج منهم حتى يموت أكثرهم فتعطلت مصالح الناس ، وزاد ضمان الموتى ، فإنه كان يؤخذ على الميت الشئ الكثير ، الأمر الذي دعا السلطان فأصدر مرسومه بإبطال ضمان النعوش والمغسلين والحمالين ،[2] وضمنت الخمارات ، ومواضع الزنا من الحانات وغيرها في سنة ٦٦٩هـ .[3]

ب/ تعدد الأجناس واختلاطها :

اختلط الحابل بالنابل * فيما يتعلق بتعدد الأجناس في عصر الإمام ابن كثير الأمر الذي أثر

---

(١) انظر المجددون في الاسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر ، لعبد المتعال الصعيدي ص ٢٩١ ، دار الحمامي للطباعة .

(٢) انظر البداية والنهاية ٢٢٦/١٤ .

(٣) المصدر السابق ١٠/١٤ ، وانظر نهاية الأرب في فنون الأدب ، لأحمد عبد الوهاب النويري ٢٩٣/٣١ - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

* الحابل : صاحب الحبالة ، وهي شبكة الصائد ، والنابل صاحب النبل ويكون ذلك إذا اجتمع القنّاص فيختلط أصحاب الحبال بأصحاب النبال ،فلا يصطاد شيئ ،لأنه إنما يصطاد في الإنفراد .

كتاب الأمثال للامام أبي عبيد القاسم بن سلام ، تحقيق د. عبد المجيد قطامش ص ٢٩٨ ، دار المأمون للتراث ط ١ سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

على المجتمع تأثيراً خطيراً ، فإلى جانب المماليك الذين كانت بأيديهم مقاليد الحكم والسلطان ، نجد الأتراك واليهود والنصارى والآرمن، والفرنج ، والتتار، ولاشك أن لكل جنس من هؤلاء عادات وعقائد تغاير مايعتقده الجنس الآخر ، ولاشك أن أصحاب الملل الأخرى كانوا يجمعون على تدمير الإسلام ،وإبادة أهله بالرغم من اختلافهم فيما بينهم .

فالنصارى - الضالون - قد بدت البغضاء من أفواههم ، وماتخفي صدورهم أكبر ، بالرغم من أنهم يعيشون في كنف الإسلام وتحت رعايته ، وقد وصف الامام ابن كثير فرحتهم واستقبالهم للتتار فقال :

« ... وذهبت طائفة من النصارى إلى هولاكو وأخذوا معهم هدايا وتحفاً وقدموا من عنده ومعهم أمان فرمان من جهته ، ودخلوا من باب توما ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس ، وهم ينادون بشعارهم ويقولون : ظهر الدين الصحيح دين المسيح ويذّمون دين الإسلام وأهله ومعهم أواني فيها خمر ، لايمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمراً وقماقم ملآنة خمراً يرشون منها على وجوه الناس ، وثيابهم ، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبيهم » . [(١)]

أما التتار فقد كانوا يتحاكمون إلى الياسا ،[(٢)] التي وضعها لهم سلطانهم الأعظم جنكيز خان - ويحكمون بها ، وأكثرها مخالف لشرائع اللّه تعالى وكتبه ، وهو شئ اقترحه من عند نفسه ، ووما جاء فيها :« أنه من زنا قتل ، محصناً كان أو غير محصن وكذلك من لاط قتل ومن تعمد الكذب قتل ، ومن سحر قتل ، ومن تجسس قتل ، ومن دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قتل ، ومن بال في الماء الواقف قتل ومن انغمس فيه قتل ، ومن أطعم أسيراً أو سقاه أو كساه بغير اذن أهله قتل ، ومن وجد هارباً ولم يرده قتل ... ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل ، ومن ذبح حيواناً ذبح مثله بل يشق جوفه ويتناول قلبه بيده يستخرجه من جوفه أولاً » . [(٣)]

---

(١) البداية والنهاية ٢١٩/١٣ ،

(٢) الياسا : مركبة من سي بمعنى ثلاثة ، ويسا بمعنى الترتيب ثم حرفها العرب فقالوا : سياسة . انظر صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، لأحمد بن علي القلقشندي ، تعليق محمد حسين شمس الدين ٣١٤/٤ ، ط١ ، ١٤٠٧هـ . دار الكتب العلمية بيروت .

(٣) البداية والنهاية ، ١١٩/١٣ .

قال الامام ابن كثير - رحمه الله - معقباً على ذلك :

« وفي ذلك كله مخالفة لشرائع الله المنزلةعلى عباده الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر ، فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقدمها عليه ؟ فمن فعل ذلك كفر باجماع المسلمين » .(١)

قال تعالى : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .(٢)

وقال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ .(٣)

ثانياً : الحياة الاقتصادية :-

أما عن الحياة الاقتصادية ، فلم تكن أقل سوءاً من سابقتها .

ففي مستهل سنة ٦٦٥هـ كان الغلاء والفناء بديار مصر شديدين جداً وقد تفانى الناس إلا القليل ، وكانوا يحفرون الحفيرة فيدفنون فيها الفئام من الناس ، والأسعار والأقوات في غاية القلة والغلاء فمات بها في شهر صفر مائة ألف ونحواً من ثلاثين ألفاً . ووقع غلاء بالشام فبلغت الغرارة إلى مائتين .(٤)

وبيعت الأمتعة والثياب والمغلّات بأرخص الأثمان .(٥)

وأكل الناس ماوجدوه من الجمادات ، والحيوانات، والميتات ، وباعوا حتى أولادهم ، فبيع الولد بخمسين درهماً ، وأقل من ذلك ، حتى أن كثيراً كانوا لا يشترون من أولاد المسلمين وكانت المرأة تصرح بأنها نصرانية ليشترى منها ولدها لتنتفع بثمنه ، ويحصل له من يطعمه

---

(١) المصدر السابق .

(٢) سورة المائدة آية ٥٠ .

(٣) سورة النساء آية ٦٥ .

(٤) انظر البداية والنهاية ٣٤٣/١٣ ، والنجوم الزاهرة ١٩٥/١٠. والفئام : الجماعة من الناس . انظر لسان العرب لابن منظور مادة فأم ٤٤٧/١٢ . طبعة دار صادر . والغرارة : وعاء من الخيش يوضع فيه القمح ونحوه . انظر المعجم الوسيط - ٦٤٨/٢ - ط٢ ، دار إحياء التراث العربي .

(٥) البداية والنهاية ١٤/١٤ .

فيعيش ، وتأمن عليه من الهلاك .[1]

وفي سنة ٦٩٥هـ اشتد الغلاء بالديار المصرية ، وانتهى سعر القمح إلى مائة درهم وسبعة وستين درهماً عن كل إردب .[2]

وغلت الأسعار في سائر الأصناف ، وبلغ ثمن الفروج عشرين درهماً ،وسمعت أن بعض الناس اشترى فراريج لمريض عنده فوزن لحمها فكان بوزن الدراهم التي اشتراها بها .[3]

هذه هي بعض الشواهد التي سقناها لبيان سوء الحياة الاقتصادية في عصر الإمام ابن كثير،ولم نشأ أن نسرف في ذلك رغبة في عدم الإطالة،ثم إن ذلك موضعه كتب التاريخ .

---

(١) المصدر السابق ١٤/٨٦ .

(٢) الاردب : مكيال يسع أربعة وعشرين صاعاً ، والصاع : مكيال لأهل المدينة يأخذ أربعة أمداد والمد مختلف فيه فقيل : هو رطل وثلث بالعراقي ، وبه أخذ الشافعي وفقهاء الحجاز ، وقيل : هو رطلان وبه أخذ أبو حنيفة وفقهاء العراق .أنظر لسان العرب ٤/٢٥٢٦ - دار المعارف .

(٣) انظر نهاية الأرب في فنون الأدب ٣١/٢٩٣ .

المطلب الثالث
الحياة الدينّية

لا يستطيع أحد أن ينكر أن الرسالة الاسلامية الهادية ، هدفت في غايتها إلى إسعاد البشرية ، وانقاذها من دوامة الفوضى التي تخبطت فيها آجالاً طويلة ، فكان الإيمان بها قوياً ، وكان التمسك بها عظيماً ، فنشط المسلمون وتوسعت آفاق دنياهم ، وترسخت أصول دولتهم تحت علم الإسلام الشامخ ، ورايته العالية الخفاقة .

ولم يكن المسلمون في بداية أمرهم بحاجة ماسّة إلى التبصر في اكتشاف حقائق الإسلام وتشريعاته ، بل اعتمدوا على النبي | الذي كان يجيبهم على كل أمر ، ويعالج كل معضلة تعترض سبيلهم .

ولما انتقل الرسول | إلى ربه عز وجل ، أحدث غيابه فراغاً شعر المسلمون به وتحسسوا نفوسهم فوجدوا هوّة سحيقة بين معارفهم البدائية ، وكنوز القرآن الكريم الخفيّة فتطلعوا بشغف إلى شخص تكون له القدرة على أن يسد فراغهم ، ويضيّق هوّتهم .فلم يجد المسلمون إلاّ كتاب الله العزيز دستوراً يتقيدون بأحكامه ، والحديث النبوي الشريف سنّة يعتمدونها في معالجة أمورهم ، ولم يكن المسلمون في مستوى علمي واحد ، أو ارتباط موحد بالإسلام ، فسرعان ماظهرت التأويلات وتشعبت بحسب درجة الوعي وتأثير الغايات والخواطر ، فتولد عن ذلك أول بذرة من بذور الانقسام في صفوف المسلمين .

ولئن كان تعدد الأجناس واختلاطها هو أحد أهم الأسباب التي أدت إلى تدهور الحياة الاجتماعيّة كما بيّنّا ذلك ، فان أحد أهم الأسباب التي أدت إلى تدهور الحياة الدينية ، هو انقسام الأمة إلى شيع وطوائف واتباع للأهواء والعصبيّة المذهبيّة ، في حين أننا لو تتبعنا آيات القرآن الكريم لوجدنا أن الله تعالى ماذكر الهوى إلا ذمّه . فقال تعالى :{فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين} . (١)

وقال تعالى : ﴿واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾ . (٢)

---

(١) سورة القصص آية (٥٠) .

(٢) سورة الكهف آية (٢٨) .

وعن الشعبي [١] قال :« إنما سمّي الهوى لأنه يهوى بصاحبه » . [٢]

وفي رواية قال :« إنما سمّوا أصحاب الأهواء لأنهم يهوون في النار » . [٣]

وعن الحسن وابن سيرين أنهما قالا :« لاتجالسوا أصحاب الأهواء ولا تجادلوهم ولا تسمعوا منهم » . [٤]

وإنما قيل له هوى لأن صاحبهُ يجيل فكره ، ولا يستقر على شئ ، ولا يعتمد على أصل ثابت ، فهو تقليد أعمى لأنه لم يجد الحق ، فاذا وجد الحق وطريق النجاة استقر وثبت فلا يهوي

وأما المذاهب فواحدها مذهب وهو مشتق من ذهب يذهب إذا أخذ في وجه من الوجوه وذهب فيه،والمذهب الوجه الذي تأخذ فيه وتمضي وتتجنب سواه . [٥]

والهوى : مقصور ، هو النفس ، وإذا أضفته إليك قلت هواي . [٦]

والمذهب : المعتقد الذي يذهب إليه . [٧]

ولقد أدت هذه الإنقسامات إلى ضعف الأمة ، وتفرّق كلمتها ، وبعثرة صفوفها .ومما يدمع العين ، ويحزن القلب أن هذه الانقسامات لازالت قائمة حتى يومنا هذا ،ولازال ضعف الأمة على إثره قائماً .. في الوقت الذي تجتمع فيه كلمة الأعداء - على اختلاف أجناسهم - على استئصال شأفة الإسلام ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

أما عن الطوائف والشيع التي وجدت آنذاك فكثيرة هي نذكر منها :

---

(١) الشعبي هو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار - وذو كبار ، ولد في إمرة عمر بن الخطاب لست سنين خلت منها ، سمع من ثمانية وأربعين من أصحاب رسول الله ﷺ ، ولايكاد يرسل إلاّ صحيحاً ، قال ابن عيينة : علماء الناس ثلاثة ، ابن عباس في زمانه ، والشعبي في زمانه والثوري في زمانه . وكان ممن روى عنه الدارمي ، مات سنة خمس ومائة ، عن سبع وسبعين سنة . أنظر سير أعلام النبلاء ٤/٢٩٤ - ٣١٨ .

(٢) سنن الدرامي للإمام أبي محمد عبد الله الدرامي ١/١٠٩ ، دار الكتب العلمية .

(٣) المصدر السابق ١/١١٠ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) انظر الغلو والفرق الغالية في الحضارة الاسلامية ، للدكتور عبد الله سلّوم السامرائي ص ٢٤٧ - ٢٤٩ ، دار واسط للنشر .

(٦) لسان العرب ٤٧٢٨/٦ ، مادة هوى ، طبعة دار المعارف .

(٧) القاموس المحيط ، لمجد الدين الفيروز أبادي ٧٢/١ ، باب الباء فصل الذال ، طبعة دار الجيل .

أ - الشيعة

الشيعة هم الذين شايعوا علياً - رضي الله عنه - على وجه الخصوص . وقالوا بإمامته ، وخلافته ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده ، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقيّة من عنده ،[1] وقالوا : ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة ، بل هي قضية أصولية ، وهي ركن الدين ، ولا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله وإهماله ، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله ،[2] أما عن نقطة البداية في التشيع فمن الباحثين - لا سيما الشيعة - من يرجعها إلى زمن النبي ﷺ ، وآخرون يرجعونها إلى الفترة التي تلت وفاة الرسول ﷺ ، وما أعقبها من خلاف حول الإمامة ، وفريق ثالث يرجعها إلى أواخر عهد الخليفة عثمان - رضي الله عنه - ورابع يربط بداية التشيع بفاجعة كربلاء والتي انتهت بمقتل الحسين بن علي - رضيً الله عنه - .[3]

والشيعة خمس فرق : كيسانية ، وزيدية ، وإمامية ، وغلاه ، واسماعيلية وبعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال ، وبعضهم إلى السنة ،وبعضهم إلى التشبيه .[4]

ذكر الامام ابن كثير - رحمه الله - أن التتار قبل إسلامهم كانوا يميلون إلى الشيعة أكثر من مسلمي أهل السنة ، فلما أسلموا دخلوا في المذهب الشيعي ، فناصروه وأيدوه ، وفي سنة ٧٠٩هـ أظهر ملك التتر خربندا الرفض في بلاده ، وأمر الخطباء ألا يذكروا في خطبهم إلا علياً بن أبي طالب - رضي الله عنه - وآل بيته .[5]

---

(١) معنى التقية : يريد أنهم يتقون بعضهم بعضاً ، ويظهرون الصلح والاتفاق ، وباطنهم بخلاف ذلك . انظر لسان العرب ٤٩٠٢/٦ - ٤٩٠٣ هـ ، ط دار المعارف .

(٢) انظر الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، تحقيق عبد العزيز الوكيل ص ١٤٦،ط دار الفكر ، وانظر مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الاشعري ص ٥ ، ط ٣ - دار إحياء التراث

(٣) انظر دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ، «الخوارج والشيعة» للدكتور أحمد محمد جلي ص ١٥٢ - ١٥٩ ، ط٢ (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م) مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية .

(٤) انظر الملل والنحل ص ١٤٩ ، ومقالات الاسلاميين ص ٥ .

(٥) البداية والنهاية ٥٦/١٤ .

" والرفض يرجع أصله إلى فرقة الرافضة ، وهم صنف من الشيعة ، وإنّما سمّوا بهذا الإسم لأنهم رفضوا إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وهم مجمعون على أن النبي ﷺ نص على استخلاف علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - باسمه وأظهر ذلك وأعلنه ، وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الإقتداء به بعد وفاة النبي ﷺ ".[1]

والرافضة لا تنكر هذا اللقب ويزعمون أنهم رفضوا الباطل واتبعوا الحق .[2]

وبدخول التتار المذهب الشيعي واعتناقهم له إزداد العداء بين أهل السنة والرافضة .

ففي سنة ٦٥٥هـ حدثت فتنة عظيمة ببغداد بين الرافضة وأهل السنّة فنهب الكرخ ، ودور الرافضة ، حتى دور قرابات الوزير ابن العلقمي[3] الأمر الذي كان له أكبر الأثر في ممالأته للتتار ، إلى أن وقع ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد وإلى هذه الأوقات .[4]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص ١٦ .

(٢) انظر الغلو والفرق الغالية ص ٢٧١ .

(٣) الوزير ابن العلقمي : هو محمّد بن محمّد علي بن أبي طالب ابن العلقمي البغدادي ، وزير المستعصم ، كانت دولته أربع عشرة سنة أفشى فيها الرفض وعارض السنّة ، كاتب هولاكر وقوّى عزمه على قصد العراق ليتخذ عنده يداً ، وليتمكن من أغراضه ، حفر للأمة قليباً فأوقع فيه قريباً وذاق الهوان وبقي يركب كديشاً وحده ، بعد أن كانت ركبته تضاهي موكب سلطان ، فمات غبناً وغمّاً ، وفي الآخرة أشد خزياً ، وأشد تنكيلاً . أُنظر سير أعلام النبلاء ٢٣/٣٦١ - ٣٦٢ .

(٤) انظر البداية والنهاية ١٣/١٩٦ ، ٢١٠ .

ب ـ المعتزلة

الاعتزال لغة : من اعتزل الشئ وتعزّله ، بمعنى تنحى عنه .[1]

قال تعالى : ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ .[2]

أما في الاصطلاح : فالمعتزلة اسم يطلق على أول مدرسة كلامية واسعة ظهرت في الإسلام وأوجدت الأصول العقليّة للعقائد الإسلاميّة ، وقد نشأت في البصرة في حدود نهاية المائة الأولى للهجرة .[3]

وعرّفها آخرون فقالوا :هم طائفة من علماء المسلمين رأوا في الدين آراء غير الآراء المتفق عليها ، وإنما سموا المعتزلة لأنهم اعتزلوا أهل السنة .[4]

أما عن سبب ظهور هذه المدرسة ، فهو كما قال الشهرستاني : «أنه دخل واحد على الحسن البصري ،[5] فقال :يا إمام الدين لقد ظهر في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم كفر يخرج من الملّة ، وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، فلا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمّة فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً ؟ .

فتفكر الحسن في ذلك ، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء .[6] أنا لا أقول إن صاحب

---

(١) لسان العرب ٤/ ٢٩٣٠ ، طبعة دار المعارف .

(٢) سورة الدخان آية (٢١) .

(٣) دراسات في الفرق والعقائد الاسلامية / د.عرفان عبد الحميد ص ١٣،ط « ١ » مؤسسة الرسالة

(٤) دائرةمعارف القرن العشرين/محمّد فريدوجدي ٤٢٣/٦ مادة عزل،ط «٣»،دار المعرفة ١٩٧١م

(٥) هو الحسن بن أبي الحسن بن يسار ، كان أبوه من موالي الأنصار ،وكانت أمه مولاة لأم المؤمنين أم سلمة – رضي الله عنها – ولد في خلافة عمر – رضي الله عنه – سنة إحدى وعشرين من الهجرة ، يكنى بأبي سعيد ، ويلقب بإمام أهل البصرة ، فقد كان أكثر أهل زمانه علماً وعملاً .
انظر تاريخ الفرق ونشأة علم الكلام عند المسلمين / علي مصطفى الغرابي ص ٤١ ، ط « ٢ » ١٩٨٥م ، مكتبة الانجلو المصرية ، وانظر سير أعلام النبلاء / شمس الدين الذهبي تحقيق شعيب الأرناؤوط مؤسسة الرسالة ط (٦) ١٤٢٠هـ - ١٩٩٠م

(٦) هو واصل بن عطاء الغزّال ، رأس المعتزلة ، ومن أئمة البلغاء والمتكلمين ، سُمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزالهم حلقة الحسن البصري ، لقب بالغزال لكثرة تردده على سوق الغزّالين بالبصرة .
انظر معجم الأعلام ص ٩٢٥ ، بسام الجابي ، ط١ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، الجفان والجابي للطباعة والنشر .

الكبيرة مؤمن مطلقاً ، ولاكافر مطلقاً ، بل هو في منزلة بين المنزلتين .[1] ، لا مؤمن ولا كافر ثم قام واعتزل إلى اسطوانة ،[2] من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب على جماعة من أصحاب الحسن . فقال الحسن : اعتزل عنّا واصل ، فسمي هو وأصحابه معتزلة » .[3]

وقد توزعت حركة الاعتزال إلى جملة فرق ، يقدّرها الاسفراييني بعشرين فرقة هي :-

الواصليّة ،والهذليّة ، والعمرويّة ، والنظاميّة ، والاسواريّة ، والمعمريّة ، والإسكافيّة والجعفريّة ، والمرداريّة ، والهشاميّة ، والثماميّة ، والجاحظيّة ، والخابطيّة ، والحماريّة ،والخياطيّة ، والشحاميّة ، والمؤنسيّة ، و الكعبيّة ، والجبائيّة ، والبهشميّة .[4]

---

(١) أحد الأصول الخمسة التي يجمع عليها المعتزلة على اختلاف اتجاهاتهم ، وهذه الأصول هي :
العدل ، التوحيد ، الوعد والوعيد ، المنزلة بين المنزلتين ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٣٠١ وما بعدها مكتبة وهبة القاهرة ١٩٦٩م .

(٢) العمود أو السارية .

(٣) الملل والنحل ص ٤٧ ، ولكن هل هذا هو أول استعمال لهذه الكلمة ؟ وهل هذا هو أول اطلاق لها ؟ أم أنها كانت تطلق قبل هذا على غير واصل وأصحابه ؟ تشير بعض المراجع التاريخية القديمة إلى أن هذه التسمية كانت تطلق من قبل على الجماعة الذين اعتزلوا فريقي المحاربين من أنصار علي ومعاوية ، وأنهم آثروا البعد عن الفريقين ، تجنباً لإثارة الفتن ، واشتعالها بين المسلمين حرصاً على توحيد كلمتهم . فهذا أبو الفداء في تاريخه يذكر عند كلامه على حوادث سنة ٣٥ هـ أن بعض الأشخاص لم يبايعوا علياً مع أنهم ليسو من شيعة عثمان ثم يقول عنهم : وسمّوا هؤلاء (المعتزلة) لاعتزالهم بيعة علي ، انظر المختصر في أخبار البشر ٨٢/٢ .
وفي تاريخ الطبري يقول : «إن قيس بن سعد كتب إلى علي يقول : إن قبلي رجالاً معتزلين ، قد سألوني أن أكف عنهم ، وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس» .
تاريخ الأمم والملوك الامام محمد بن جرير الطبري ٢٣٠/٣ ، طبعة دار القلم ، بيروت .
وقال القاضي ابوبكر ابن العربي :«فكان ابو موسى يشفق على دماء المسلمين أن تسفك بتحريض الغلاة ... فاعتزلهم أبو موسى واختار الاقامة في قرية يقال لها عرض بعيداً عن الفتن وسفك الدماء» انظر العواصم من القواصم للامام القاضي أبي بكر بن العربي المالكي ، تحقيق العلامة الشيخ محب الدين الخطيب ، ص ١٧٦ ، (الهامش) ط« ١ » ١٤٠٥هـ - دار الكتب السلفية .

(٤) التبصير في الدين وتمييز الفرقة ةالناجية عن الفرق الهالكين لأبي المظفر الاسفراييني ، تحقيق كمال يوسف الحوت ص ١٥ ، ط « ١ » ١٤٠٣هـ . ١٩٨٣م - عالم الكتب .

جـ - الأشاعرة

يرجع أصل هذه التسمية إلى أبي الحسن الأشعري ،[1] أحد تلامذة الجبّائي[2] ، الذي يقال أنه أقام على المعتزلة أربعين سنة ، حتى صار إماماً للمعتزلة ، ثم غاب عن الناس خمسة عشر يوماً ، ثم خرج إلى الجامع ، وصعد المنبر ، وقال : معاشر الناس إنما تغيبت عنكم هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلّة ، ولم يترجح عندي شئ على شى ، فاستهديت الله تعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه وانخلعت من جميع ماكنت اعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا . وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ، ودفع بالكتب التي ألّفها على مذهب أهل السنّة إلى الناس .[3]

أما عن سبب خروج الأشعري على استاذه الجبائي فإنه يقال : إن أبا الحسن الأشعري لما تبحر في علم الإعتزال ، وبلغ غايته ، كان يورد الأسئلة على أستاذه في الدروس ، فلا يجد لها جواباً شافياً ، فلما رأى أن أستاذه الجبّائي لا يقنعه فيما يقول ، فيما يرد عليه من شكوك ترك الاعتزال .

ولقد ذكروا من بين المسائل التي تناظر فيها التلميذ وأستاذه ، وجوب الصلاح والأصلح على الله تعالى لعباده كما تقول المعتزلة .

قال ابو الحسن الأشعري : سائلاً أستاذه الجبائي : أيها الشيخ ، ماتقول في ثلاثة ، مؤمن وكافر ، وصبي ؟ .

---

(١) هو علي بن اسماعيل ابن أبي بشر اسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن عبد الله أبي موسى الأشعري صاحب رسول ﷺ ، ولد منذ سنة ٢٦٠هـ/ انظر طبقات الشافعية الكبرى ٢/ ٢٤٥ ، وتبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الامام أبي الحسن الأشعري ابن عساكر ص ٣٥ - ٣٨ ، دار الكتاب العربي - بيروت .

(٢) هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن عمران بن أبان مولى عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ، ولد سنة ٢٣٥هـ بجبّى (بالضم ثم بالتشديد والقصر) وهي على الراجح بلد من أعمال خورستان ، ولذلك نسب إليها . توفى في شعبان ٣٠٣هـ . انظر الأنساب / عبد الكريم بن محمد السمعاني ص ١٢١ ، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ،ومعجم البلدان لياقوت الحموي ٢/ ١٢ ، طبعة دار صادر .

(٣) طبقات الشافعية ٢/ ٤٦ ، تبين كذ ب المفترى ص ٣٦ .

فقال الجبائي : المؤمن من أهل الدرجات ، والكافر من أهل المهلكات والصبي من أهل النجاة قال أبو الحسن ، فإن أراد الصبي أن يرقى إلى أهل الدرجات هل يمكن ؟ قال الجبّائي : لا فإنّه يقال له إن المؤمن إنما نال هذه الدرجة بالطاعة ، وليس لك مثلها . قال الأشعري : فإن قال التقصير ليس مني ، فلو أحييتني كنت عملت الطاعات كعمل المؤمن .

قال الجبّائي : يقول له الله :إعلم أنك لو بقيت لعصيت ولعوقبت فراعيت مصلحتك ، وأمتك قبل أن تنتهي إلى سن التكليف .

قال : الأشعري : فلو قال الكافر يارب علمت حاله كما علمت حالي ، فهلاً راعيت مصلحتي مثله ؟ فانقطع الجبّائي .[1]

د . الباجربقية

وهي فرقة ضالة ، تنسب إلى رجل يقال له : محمد بن عبد الرحيم بن عمر الباجربقي النحوي الشافعي .

والمشهور عنهم انكار الصانع جل جلاله ، وتقدست أسماؤه .

ولشدة خطر هذه الجماعة حكم القاضي المالكي بإراقة دم زعيمها ، فهرب إلى الشرق ، ثم إنه أثبت عداوة بينه وبين الشهود ، فحكم الحنبلي بحقن دمه ، فأقام بالقابون عدداً من السنين إلى أن توفى سنة ٧٢٤هـ وله من العمر ستون سنة ،وهو صاحب الملحمة الباجربقية ، وله غيرها عدة تصانيف أخر.[2]

---

(١) طبقات الشافعية ٢/ ٢٥٠ ، التبصير في الدين ٣٣ - ٣٤ ، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان / أبي العباس شمس الدين أحمد بن ابراهيم، تحقيق د. احسان عباس ٢/ ٢٧٧ ، ط دار الثقافة - بيروت ١٩٧٠م

(٢) انظر البداية والنهاية ١٤/ ١١٥ ، والنجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٢ .

هـ - الصوفية

لا يشك عاقل في أن رسول الله ﷺ هو أزهد خلق الله في الدنيا وزخارفها على الإطلاق وأصحابه رضوان الله عليهم كانوا كذلك ، كانوا يعدّون الدنيا ومافيها لهواً ولعباً ، زائلة فانية وأن الأموال والأولاد فتنة ابتلي المؤمنون بها .

ومن هنا فقد جعلوا أكبر همّهم ابتغاء مرضاة الله تعالى ، يرجون لقاءه وثوابه ، ويخافون غضبه وعقابه ، أخذوا من الدنيا ما أباح الله لهم أخذه،واجتنبوا مانهاهم عنه ، سلكوا مسلك الإعتدال،وانتهجوا منهج القصد وتبعهم في ذلك التابعون،والتابعون لهم بإحسان .

ولم يكن لهؤلاء كلهم في غير رسول الله ﷺ أسوة ولا قدوة ثم خلف من بعدهم خلف تنطعوا وذهبوا بعيداً عن التصور السليم ، فهربوا عن الحياة وجدّها وكدّها ، ولجأوا إلى الخانقاوات والتكئات والزوايا والرباطات ،[1] وصبغوا هذا الفرار والإنهزام بصبغة دينية ، ولون قداسة وطهارة ، وتنزه ، وقرابة ، فظهر التصوف بصورة مذهب مخصوص ، وبطائفة مخصوصة،اعتنقه قوم ، وسلكه أشخاص ساذجون بدون تفكير كثير وتدبر عميق،كما تستر بقناعه بعض آخرون بهدف هدم الإسلام وكيانه ، وإدخال اليهودية والمسيحية وأفكارهما في الإسلام من جانب والأفكار والعقائد المنحرفة الأخرى كالزرادشتيته والمانوية وغيرها .[2]

---

(١) الخانقاوات :الأماكن الضيقة ، كأن تكون شعباً ضيقاً في الجبل أو مضيقاً في الوادي . انظر لسان العرب ٢/ ١٢٨١ ،مادة خنق ، دار المعارف .
التكئات:كلمة تركية الأصل معناها رباط الصوفية .
انظر معجم الأخطاء اللغوية ، محمد العدناني ص ٩٧ ،ط « ١ » ١٩٨٤م ، مكتبة لبنان .
الرباطات : الأماكن التي يلجأ إليها الزهاد ليربطوا أنفسهم عن الدنيا ، والربيط الراهب والزاهد.
تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الزبيدي ، تحقيق عبد الحليم الطحاوي ١٩/ ٣٠١ طبعة دار الجيل .

(٢) الزرادشتية : دين قديم لم يعد له اتباع منظمون ، ولا يدخل في عداد الأديان الحية ، مؤسسه حكيم يدعى : سبيتا مازرادشت ، عاش مابين ٦٦٠ ق.م - ٥٨٣ ق . م ، ومن تعاليمه أن للعالم إلهان ، إله للخير ويدعى (أهوار مازدا) ، وإله للشر يدعى (انكرا مانيو) ، والزرادشتية في المجال الاجتماعي يستحلون زواج الأمهات ،وقالوا : الابن أحرى بتسكين شهوة أمه ، وإذا مات الزوج ، فإبنه أولى بالمرأة ، انظر تلبيس إبليس ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ص ٧٣ ، دار الكتب العلمية ١٣٩٨هـ .و انظر أيضاً حكمة الأديان الحية ، جوزيف كاير ، ترجمة حسين الكيلاني ، مراجعة محمود الملاح ص ٢٥٧ ، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦٤م

كل ذلك لنسخ الإسلام ، وإبطال شريعته بنعرة وحدة الوجود ، ووحدة الأديان ، وترجيح من سمي بالولي على أنبياء الله ورسله ، ومخالفة العلم وترويج الحكايات والأباطيل والأساطير باسم الكرامات والخوارق .

والحق يقال أن التصوف لوعادت إليه صورته الحقيقة الناصعة ، فإنّ فيه تربية روحية سامقة تسمو دوماً بالانسان وترتفع به إلى الدرجات وتحول دون انحداره ونزوله إلى الدركات .

و - الزنادقة

يتفق كثير من معاجم اللغة على أن المفرد منها «زنديق» والجمع زنادقة والمصدر زندقة .

فالزنديق :هو القائل ببقاء الدهر ،[1] وهو الذي يسر الكفر ويظهر الإيمان .[2]

والزندقة : عدم الإيمان بالآخرة ، ووحدانيّة الخالق .[3] وعرّفها بعضهم فقال :«هي كراهية الإسلام ديناً ودولة ، ذلك أن دولة الإسلام اكتسحت عروشاً وزعامات كانت قائمة على تضليل الشعوب في عقائدها ، ورأى الناس في ظلال الإسلام كرامة للفرد ، واحتراماً للعقيدة وقضاء على الأوهام والأباطيل ، فأقبلوا عليه يدخلون فيه أفواجاً .

وأصبحت قوة الإسلام السياسية والعسكرية لا تقف في وجهها قوة ، ورأى أعداء الإسلام أنهم ليس في استطاعتهم أن يقاوموا الإسلام بالقوة فلجأوا إلى الكيد له عن طريق إفساد العقائد ، وتشويه محاسنه وتفريق صفوف أتباعه وجنوده».[4]

ويحدّد بعض المؤرخين ظهور هذه الكلمة بعهد بهرام بن هرمز ،[5] عندما أتاه ماني صاحب

---

(١) لسان العرب ١٨٧١/٣ ، دار المعارف .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي ١٩٩/١ ، ط «٣» ، دار الكتاب العربي ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

(٣) لسان العرب ١٨٧١/٣ - دار المعارف .

(٤) الكشف الإلهي عن شديد الضعف والموضوع والواهي ، محمد السندروسي ، تحقيق د. محمد بكار ١٩/١ ، مكتبة الطالب الجامعي - مكة ط «١» ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م

(٥) هو بهرام بن هرمز بن سابور بن أردشير بن بابك أحد ملوك الفرس ، وكان فيما ذكر رجلاً ذا حلم وتؤدة ، فاستبشر الناس بولايته ، وأحسن السيرة فيهم . تاريخ الأمم والملوك / محمد بن جرير الطبري ٦٤/١ - ٦٥ ، دار الفكر - بيروت.

مذهب المانويّة ، وعرض عليه مذهبه القائل بأن العالم نشأ من أصلين وهما النور والظلمة ، وعن النور نشأ كل خير وعن الظلمة نشأ كل شر ، والنور لا يقدر على الشر ، والظلمة لا تقدر على الخير وهما أزليّان .[1]

وهو في هذا يتفق مع مذهب زرادشت ،[2] إلا أن ماني زاد عليه الدعوة إلى الرهبنة والزهد .

وفي أيام ماني ظهر اسم الزندقة الذي أضيف إليه الزنادقة ، وذلك أن الفرس أتاهم زرادشت بكتاب يسمى «البستاه» وعمل له التفسير وهو الزنّد ، وعمل لهذا التفسير شرحاً سمّاه «البازند» . وكل من أورد في شريعتهم شيئاً يخالف المنزل الذي هو البستاه، وعدل إلى التأويل الذي هو الزند ، قالوا زندي ، وأضافوه إلى التأويل ، وأنه منحرف عن الظاهر من المنزل إلى التأويل .

فلما أن جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس ، وقالوا : زنديق ،[3] ومن هنا فإن كل منحرف عن الإسلام زنديق .

ويرى الإمام احمد بن حنبل أن الجهميّة والمعتزلة القائلين بخلق القرآن هم الزنادقة .[4] ويقرر الامام البخاري أن الجهمية هم الزنادقة .[5]

ومما جاء في كتاب الحيوان في الرد على كتب الزنادقة قوله «ليس في كتبهم مثل سائر ولا خبر طريف ،ولاصبغة أدب ، ولا كلمة غريبة ،ولا فلسفة ، ولا مسألة كلاميّة ... وجل مافيها ذكر النور والظلمة ، وتناكح الشياطين وتسافد العفاريت وكله هذر وعي وخرافة ، وسخرية

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة للامام أحمد بن حنبل ، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة ص ٤٩ ، طبعة دار اللواء - الرياض ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م .

(٢) المصدر السابق .

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن المسعودي ٢٥٩/١ - ٢٥١، ط «٥» ١٤٩٣هـ - ١٩٧٣م ، دار الفكر .

(٤) الرد على الجهمية والزنادقة ، للإمام أحمد بن حنبل ص ٥١ .

(٥) انظر خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل للإمام محمد بن اسماعيل البخاري ص ٨ ، ط «١» ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، مؤسسة الرسالة .

وتكذيب ، لاترى فيها موعظة حسنة ولا حديثاً موفق ولا تدبير معاش ، ولاسياسة عامة ، ولا ترتيب خاصة.[1]

ولقد تصدى غير واحد من العلماء المخلصين لهذا الإلحاد والانحلال إن في الزندقة أو في غيرها .

ومما نود الإشارة إليه في خاتمة هذا المطلب هو أن شيوع المنكر والزندقة والانحلال في مجتمع تخلى عن مصدر قوته ليس بدعاً من القول ، بل هو سنة كونية ، فإذا دب الخلاف بين الأمة ، ولم تسر على المنهج الرباني ، شاع فيها المنكر والفساد والانحلال الأمر الذي لن يكون إلا نذير سوء ومؤشراً خطيراً إذا لم يتداركه العلماء وأ لوا الأمر .

---

(١) الحيوان لأبي عثمان عمروبن بن بحر الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون ١/٥٧ - ٥٨ ، طبعة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م ، دار الجيل بيروت .

المطلب الرابع
الحياة العلميّة والعقليّة ومراكز العلم

أولاً : الحياة العلميّة والعقلية :-

مما هو معلوم بداهةً أن روح الإبداع والتجديد والابتكار لكي تسري في مجتمع من المجتمعات لابد أن تتوفر لها حياة الأمن والطمأنينة وازدهار السلام .

ولمّا كان هذا العصر - عصر الإمام ابن كثير رحمه الّله - عصر مقاومة وجهاد فإنه من الطبيعي أن تتوقف حركة الاجتهاد .

ذلك إن عصر المقاومة والجهاد لا يتيح فرصة للعمل العقلي المنظم الذي يحقق الإبداع والاجتهاد أن يتصل بعصور البناء ونمو الحضارات .

بل إن الفكر الإسلامي كلّه يتجه إلى شحذ أسلحة المواجهة والجهاد . والواقع العملي للتاريخ الإسلامي خير شاهد على مانقول ، فما من معركة ولا غزوة كان يتعرض لها الإسلام والمسلمون إلا ويكون العلماء ، ورجال الفكر ، أول من يتصدى لرد الاعتداء أمثال ابن تيمية ، والذهبي ، وابن كثير .

وبالرغم مما حدث في تلك الفترة من أحداث جسام أرهقت الجسد الإسلامي إلاّ أنّه لا يمكن القول أنها كانت فترة موت ، ولكنها فترة بناء على نحو يتفق مع تحدّيات العصر .

ثانياً : مراكز العلم :-

كانت مصر والشام منذ قديم الزمان من مراكز العلم الكبيرة في العالم الإسلامي ، ثم زاد خطرهما وأهميتهما في هذه الناحية بعد زوال الخلافة من بغداد سنة ٦٥٦هـ ، وقيامها بعد ذلك في القاهرة ، فقد كان هذا سبباً طبيعياً لهجرة العلماء من بغداد إليها وإلى دمشق ، أو إلى غيرهما من مدائن مصر والشام ، واستقرارهم فيها ، واتخاذها أوطاناً لهم تكون مجال نشاطهم الفكري ، وانتاجهم العلمي في ضروبه العديدة المختلفة .

إنّه بعد ذلك الحادث الجلل - سقوط بغداد وزوال الخلافة - نرى انتقال مراكز العلم التي كانت في بغداد والري وبخارى ونيسابور ، وغيرها من مدن العراق وغيره من ولايات الدولة العربية الإسلامية أيام العباسيين إلى القاهرة والإسكندرية والفيوم وأسيوط ودمشق وحلب وحمص وحماة ، وإلى غيرها من مدن مصر والشام .

ومن ثم نجد في هذه العصر وماتلاه هذه النسب التي يعرف بها العلماء كالقاهري الاسكندري ، الفيومي ، السيوطي ، الدمشقي ، الحلبي ، الحموي ، ونحوها كمانجد كثيراً من العلماء يقال في تعريف الواحد منهم : نزيل دمشق أو نزيل حلب ، أو نزيل القاهرة ، أو نزيل الإسكندرية ، وهكذا .[١]

وفي معرض الحديث عن مراكز العلم في مصر والشام نتحدث أولاً عن مصر .

أولاً مراكز العلم في مصر :-

كانت مراكز العلم تتمثل في الجوامع والمساجد والمدارس ، ومن أشهر الجوامع في مصر الجامع الأزهر ، الذي هو بلا ريب قمّة هذه الجوامع ، وأهم موطن للعلم والمعرفة منذ قديم الزمان فقد أنشأه الفاطميون في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وأوقفوا عليه من الأملاك الدارّة مايضمن له الخلود على الزمن ، ومايهئ المعيشة الطيبة لقاصديه من شتى البلاد والجهات ، ومايبسر لهم سبيل الدرس والبحث من الكتب والمراجع العلمية العديدة .

وفي الاسكندرية نجد في هذه الناحية جامع العطّارين ، وقد كان هذا الجامع ينبوعاً من ينابيع العلم والثقافة طوال عصر الحروب الصليبية وبعدها ، كما كان حافلاً دائماً في تلك الأيام بطلاب العلم وشيوخه الذين يقومون بالتدريس فيه .[٢]

وأما المدارس فكانت كثيرة ، ولقد خصص للمذهب الواحد أو المذهبين مدارس خاصة ، فقد بنى السلطان صلاح الدّين[٣] بالقاهرة المدرسة السيوفيّة للأحناف وأوقف عليها ما ينفق منه على من يقوم بالتدريس فيها ، وعلى الطلبة على قدر طبقاتهم .[٤]

---

(١) ابن تيمية / د. محمد يوسف موسى ص ٥٢ - مكتبة مصر .

(٢) المصدر السابق ص ٥٤ .

(٣) هو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى ، ولد سنة ٥٣٢هـ وتوفي ٥٨٩هـ وله من العمر ٥٧ سنة ، دفن في داره بالقلعة بالمنصورة ، كان رداءاً للإسلام وحرزاً من كيد الكفرة اللئام ، قال العماد وغيره : لم يترك في خزانته من الذهب سوى جرام واحد ، أي ديناراً واحداً وستة وثلاثين درهماً ، وقد رأى بعض الصالحين النبي ﷺ في جماعة من أصحابه ، وقد زاروا قبر صلاح الدين .
انظر البداية والنهاية ٤/١٣ ، والنجوم الزاهرة ١٣٢/٦ ، وشذرات الذهب ٤/ ٣٠٠ .

(٤) ابن تيمية ص ٥٧ .

وبنى القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني [(١)] المدرسة الفاضلية سنة ٥٨٠هـ ، وجعلها لفقهاء الشافعية والمالكية ، وأوقف بها جملة عظيمة من الكتب في سائر العلوم ، يقال إنها كانت مائة ألف مجلد . [(٢)]

وكان بالقاهرة أيضاً المدرسة الصالحيّة التي بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب [(٣)] وجعلها لفقهاء المذاهب الأربعة . [(٤)]

وأخيراً نذكر من مدارس القاهرة المدرسة المحمودية ، وخزانة كتبها التي لا يعرف اليوم بديار مصر والشام مثلها ... وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كل فن . [(٥)]

ثانياً : مراكز العلم في بلاد الشام :

وإذ تركنا مصر إلى بلاد الشام ، نجد الأمر مثل ذلك أو قريباً منه ويرجع الفضل في هذا - بعد الله - تعالى - للسلطان صلاح الدين ولأبنائه من بعده ففي دمشق وحدها وجد في القرنين السادس والسابع نحو تسعين مدرسة للفقه بمذاهبه المختلفة ، وللتفسير والحديث وغيرهما .

وكان لمدينة حلب حظها الموفور من هذه المدارس ، فهي ثاني المراكز العلمية في الشام بعد دمشق .

وكذلك كان الحال في القدس وحماة وحرّان وحمص وغيرها من بلاد الشام ، ففي كل هذه المدن والبلاد كانت مدارس عديدة زاهرة تعجّ بالعلم وطلابه وشيوخه . [(٦)]

---

(١) هو أبو على عبد الرحيم بن القاضي الأشرف أبي المجد على بن الحسن البيساني ، لم يكن له في زمانه نظير ، ولا فيما بعده إلى وقتنا هذا مثيل ، ولما استقر الملك لصلاح الدين بمصر جعله صاحبه وكاتبه ووزيره وجليسه وأنيسه ، وكان أعز عليه من أهله وأولاده ، وتساعدا حتى فتحا الأقاليم والبلاد ، هذا بحسامه وسنانه وهذا بقلمه ولسانه ، وكان القاضي الفاضل من كثرة أمواله كثير الصدقات والصلات ، والصيام والصلاة ، ولد سنة ٥٠٢هـ وتوفي سنة ٥٩٦هـ رحمه الله تعالى .

انظر : البداية والنهاية ٢٤/١٣، والنجوم الزاهرة ١٥٦/٦ ، شذرات الذهب ٣٢٤/٥ .

(٢) ابن تيمية ص ٥٧ .

(٣) هو الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل ولد سنة ٦٠٣هـ بالقاهرة كان وافر الحرمة ، عظيم الهيبة ، خليقاً للملك ، ظاهر الجبروت ، توفي سنة ٦٤٧هـ .

انظر البداية والنهاية ١٧٧/١٣ ، والنجوم الزاهرة ٣٦١/٦ ، وشذرات الذهب ٢٣٧/٥ .

(٤) ابن تيمية ص ٥٧ .

(٥) المصدر السابق ص ٥٩ .

(٦) ابن تيمية ص ٥٩ - ٦٠ .

ففي هذا الوسط الزاخر بالعلم والمعرفة نشأ وترعرع إمامنا الجليل الحافظ ابن كثير ، حيث استفاد منه استفادة فاقت استفادة الكثير من أقرانه ومعاصريه ، ساعده في ذلك الهبات الجليلة التي منحه الّله إيّاها ، وقلبه الشغوف بحب المعرفة والعلم والاطلاع فضلاً عن عقله النافذ ، وقوة بصيرته ، وحافظته التي لا تضيع وذاكرته التي لا تنسى .

من أجل هذا ننتقل الآن إلى الامام نفسه لنعرف ونتعرف على حياته وماكان فيها من صراع وكفاح وجهاد ، ومدى إسهامه فيها إلى أن صار حقاً من الخالدين .

المبحث الثاني

حياته الخاصة : ويشتمل على أربعة مطالب

المطلب الأول : اسمه ، مولده ونشأته .

المطلب الثاني : نسبه، نسبته ولقبه .

المطلب الثالث : اسرته (والده ، والدته واخوانه،زوجته وأولاده) .

المطلب الرابع : صفاته ومعالم شخصيته .

المطلب الأول
اسمــــه ومولــده ونشأته

أولاً : إسمه :-

هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن كثير بن ضو بن درع القرشي القيسي ، البصروي الأصل ، الدمشقي النشأة والتعليم ، الشافعي عماد الدين أبو الفداء .[1]

ولاسمه إسماعيل قصة ، ذلك أن أخاه الأكبر لأبيه اسمه إسماعيل ، وقد سمّى هو بهذا الاسم ايضاً ، فما هي هذه القصة ؟

قال في البداية والنهاية : « ... وسمّيت باسم الأخ إسماعيل ، لأنه كان قد قدم دمشق فاشتغل بها بعد أن حفظ القرآن على والده ، وقرأ مقدمة في النحو ، وحفظ التنبيه وشرحه على العلاّمة تاج الدين الفزاري [2] ، وحصّل المنتخب في أصول الفقه ، قال لي شيخنا ابن الزملكاني[3] ثم إنه سقط من سطح الشاميّة البرانيّة ، فمكث أياماً ومات فوجد الوالد عليه وجداً كبيراً ورثاه بأبيات كثيرة ، فلما ولدت أنا له بعد ذلك سمّاني بأسمه فأكبر أولاده إسماعيل ، وآخرهم وأصغرهم إسماعيل » .[4]

ويشتهر اسماعيل بلقب ابن كثير [5] كما كان أبوه من قبل وابنه محمد من بعد .

ثانياً : مولده :

ولد ابن كثير في إحدى المدن الدمشقيّة في بلدة تسمى بـ « مجدل القرية » من أعمال بصري شرقي دمشق ، وكان ذلك سنة سبعمائة أو إحدى وسبعمائة للهجرة .[6]

---

(١) انظر البداية والنهاية ٣١/١٤ ، وانظر الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ٣٧٣/١ ، دار الجيل

(٢،٣) ستأتي تراجمهما في شيوخ ابن كثير ، انظر ص (٤٩-٥٠)

(٤) البداية والنهاية ٣٢/١٤ .

(٥) هناك شخص آخر يدعى ابن كثير ، وهو عبد الله ابوبكر أحد القراء السبعة ولد عام ٤٥هـ بمكة وينتسب إلى أسرة فارسية هاجرت إلى اليمن وقد كان قاضي الجماعة بمكة ، وتوفي بها عام ١٢٠هـ انظر دائرة المعارف الإسلامية - النسخة العربية ٣٧٨/١ ، ط دار الشعب .

(٦) انظر الدرر الكامنة ٣٧٤/١ ، ودائرة المعارف الإسلامية ٣٧٨/١ ، وشذرات الذهب ٢٣١/٦ ، والرد الوافر على من زعم : بأن من سمّى ابن تيمية « شيخ الإسلام » كافر / ابن ناصر الدّين الدّمشقي - تحقيق زهير الشاويش ص ١٥٤، ط (١) ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م - المكتب الإسلامي بيروت .

وهذا هو الراجح في ولادته لأنه عندما ترجم لوالده رحمه الّله قال :

« إنه قد توفى في جمادي الأولى سنة ثلاث وسبعمائة ، وكنت إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها ، لا أدركه إلا كالحلم » .[1] أي أن ولادته كانت على الراجح في أواخر سنة ٧٠٠ - ٧٠١ هـ .

ثالثاً : نشأته :

وفي سنة ٧٠٧هـ انتقلت الأسرة برمتها إلى دمشق بعد وفاة رب الأسرة - رحمه الّله - وسكنت بدرب سعود الذي يقال له (درب أبي الهيجاء بالصاغة العتيقة عند الطوريين).[2]

وكان الذي تولى رعاية الأسرة بعد وفاة الوالد - رحمه الّله - أخاهم الأكبر كمال الدين عبد الوهاب ، والذي وصفه ابن كثير بالرفقة والشفقة بالأسرة .

وكان كمال الدين هذا من أوائل الذين تتلمذ على أيديهم الإمام ابن كثير رحمه الّله .[3]

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٣٢ .

(٢) المصدر السابق ١٤/٤٦ .

(٣) المصدر نفسه ١٤/٣٢ .

المطلب الثاني
نسبه ، نسبته ولقبه

أولاً : نسبه

قال ابن كثير عن أسرته أنها تنتسب إلى قريش ، وهم من بني حصلة الذين ينتسبون إلى الشرف ، وبأيديهم نسب ، وقف على بعضها شيخنا المزي .[(١)] فاعجبه ذلك ، وابتهج به وصار يكتب في نسبي بسبب ذلك .[(٢)]

ثانياً : نسبته

علمنا من قبل أن أسرة الإمام ابن كثير تنتسب إلى قريش ، أما عن نسبته هو فقد ورد في أسمه من بعد كونه قرشي قولهم ، القيسي ، البصروي ، الدمشقي ، الشافعي .

فالقيسي : نسبة إلى قيس عيلان ، وقيس بطن من بكر بن وائل .[(٣)] وهي قبيلة من مضر العدنانية .[(٤)]

أما البصروي والدمشقي فنسبة إلى مكان سكناه مع عائلته .[(٥)]

أمـا الشافعي فنسبة إلى مذهب الشافعي في الفقه فقد جاء في أكثر من تعريف به قولهم : الفقيه الشافعي .

بل لقد مثل الإمام ابن كثير مذهب الإمام الشافعي في مسألة خلافية بين أصحاب المذاهب ،

---

(١) ستأتي ترجمته في شيوخ ابن كثير ، انظر ص (٥١)

(٢) انظر البداية والنهاية ٣١/١٤ .

(٣) انظر لب اللباب في تحرير الأنساب / الإمام جلال الدين السيوطي تحقيق [أحمد ومحمد] عبد العزيز ١٩٥/٢، ط (١) دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

(٤) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب / أبي العبّاس أحمد بن علي القلقشندي ص ٣٦٢ ط (١) دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م .

(٥) بصرى : مدينة بالشام من أعمال دمشق ، وهي قصبة كورة حوران ، مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً ، ولما سار خالد بن الوليد من العراق لمدد أهل الشام ، قدم على المسلمين وهم نزول ببصرى فضايقوا أهلها حتى صالحوهم على أن يؤدوا عن كل حالم ديناراً ، وجريب حنطة .
وافتتح المسلمون جميع أرض حوران وغلبوا عليها وقتئذ ، وذلك في سنة ١١٣هـ ، انظر معجم البلدان ٤٤١/١ ، واللباب في تهذيب الأنساب لعز الدين ابن الأثير الجزري ١٥٨/١ - طبعة دار صادر بيروت ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

وكـــان له الفضـل فـي إصلاح الجميع ،[1] وكذا كان أبوه من قبل شافعي المذهب [2]

ثالثاً : لقبه

يلقب الإمام ابن كثير بالعديد من الألقاب ، وهي قولهم : الإمام ، الحافظ،المؤرخ ، عماد الدين .

وهي ألقاب كانت تطلق عليه وعلى غيره من جهابذة العلماء ، وماذلك إلا لسعة أفقهم وزخارة علمهم ، فلقد أطلق على شيخه الإمام ابن تيميه بأنه شيخ الإسلام ولقد لقب الإمام الغزالي بأنه حجّة الإسلام ، وأول من لقب بين العلماء بركن الدين هو الإسفراييني الأصغر المتوفى عام ٤١٨هـ .[3] ولقب العز بن عبد السلام بسلطان العلماء .[4]

---

(١) القصة طويلة انظرها في البداية والنهاية ١٤/٣١٦ - ٣١٨ ، وانظرها مختصرة في هذا البحث عند الحديث عن مشاركته في الإصلاح وفضّ الخلاف ص (٤٠)

(٢) انظر البداية والنهاية ١٤/٣٢، تحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر ابن الحاجب للإمام ابن كثير دارسة وتحقيق عبد الغني الكبيسي ص ٢٢ ، ط (١) ١٤٠٦هـ - دار حراء ، مكة المكرمة .

(٣) الاسفراييني هو أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن مهران ، يقال : أنه بلغ رتبة الاجتهاد وله من المصنفات الشئ الكثير منها الجامع في أصول الدين خمس مجلدات ، توفي يوم عاشوراء سنة ٤١٨هـ بنيسابور ثم نقل إلى بلده اسفرايين . انظر شذرات الذهب ٣/٢٠٩

(٤) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مهذب السلمي ، شيخ الإسلام والمسلمين ، وأحد الأئمة الأعلام ، سلطان العلماء ، إمام عصره بلا مدافعة ، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه ، المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها ، العارف بمقاصدها لم ير من رآه مثله علماً وورعاً وقياماً في الحق ، وشجاعة ولد سنة ٥٧٨هـ . انظر طبقات الشافعية الكبرى ٥/٨٠ .

المطلب الثالث
أســــــــــــرته

ولد الامام ابن كثير في أسرةٍ قرشية عريقة ، عرفت بالعلم ، والخلق ، والديانة ، فهي أسرة متراحمة - والراحمون يرحمهم الله .[1] - يتجلى في هذا ابن كثير الوالد ، وابنه كمال الدين الذي رعى الأسرة بعد وفاة أبيه ، ثم في الداعية الكبير اسماعيل ، رحمهم الله جميعاً .

وفي معرض الحديث عن هذه الأسرة الكريمة نتعرض أولاً للحديث عن والد ابن كثير رحمه الله ثم عن والدته ، ثم عن اخوانه من بعد ، وأخيراً عن زوجته وأولاده .

أولاً : والده

في ترجمتنا لابن كثير الابن تعرضنا لذكر اسم الوالد ، وكذلك مكان النشأة وما شابه فلا داعي للتكرار .

بقي أن نذكر أن ابن كثير الأب اشتغل بالعلم عند أخواله بني عقبة ببصرى فقرأ البداية في مذهب أبي حنيفة ، وحفظ جمل الزجاجي ، وعنى بالنحو و العربية واللّغة ، وحفظ أشعار العرب حتى كان يقول الشعر الجيد الفائق الرائق وقليلاً من الهجاء .

وقد تمذهب ابن كثير الأب للشافعي .[2] . وكان خطيباً بارعاً مفوهاً وله مقول عند الناس توفي رحمه الله في شهر جمادي الأولى سنة ثلاث وسبعمائة في قرية مجيدل القرية ودفن

---

(١) أصل هذا القول حديث راوه عبد الله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ ونصّه « الراحمون يرحمهم الرحمن إرحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء » ، سنن أبي داود / الإمام الحافظ ابي داود السجستاني ٦٣٥/٢ كتاب الأدب باب في الرحمة ، ط (٢) ٣ ١٤٠هـ ، مصطفى البابي الحلبي .

(٢) هو محمد ابن إدريس بن العباس بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد ابن هشام بن المطلب بن عبد مناف ولد في شهر رجب سنة ١٥٠هـ بمدينة غزة الفلسطينية ، قرأ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وافتى وهو ابن خمس عشرة سنة ، وقد أثنى عليه غير واحد من العلماء واتفقوا جميعاً على ثقته ، وأمانته ، وعدالته ، وزهده ، وورعه ، وعفة نفسه ، وحسن سيرته ، وعلو قدره ، وقد ظفر الشافعي رحمه الله بشرف العلم والعمل والحسب بقربه من رسول الله ﷺ .

انظر الأم للشافعي ١/أ- ط ، ط (٢) دار المعرفة ١٣٩٣هـ -١٩٧٣م ، ووفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان لأبي العباس أحمد بن خلكان تحقيق د. إحسان عباس ١٦٣/٤-١٦٩ ، ط . دار الثقافة بيروت ، ومعجم الأدباء/ لياقوت الحموي ٢٨١/١٧-٣٢٧، ط - دار الفكر ، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم الأصفهاني ٦٣/٩-١٦١ ط (٣) دار الكتاب العربي ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م وسير أعلام النبلاء ٥/١٠ والبداية والنهاية ٢٥١/١٠ .

بمقبرتها الشمالية رحمة اللّه تعالى عليه .[١]

ثانياً : والدته

« هي مريم بنت فرج بن علي ، وكانت امرأة صالحة حافظة لكتاب اللّه تعالى » .[٢] وهي من مجيدل القرية التي كان يخطب فيها والد الإمام ابن كثير ، حيث أقاما بها مدة طويلة .[٣]

ثالثاً : إخوانه

كان والد ابن كثير قد تزوج امرأتين حال حياته ، وقد كانت والدة الإمام ابن كثير هي الثانية أما الأولى فقد انجبت ثلاثة أولاد هم :

إسماعيل وكان قد توفى - كما سبق الحديث - وهو شاب صغير يطلب العلم في دمشق وكذلك ولد له منها يونس وإدريس ، وكانوا جميعاً منشغلين بطلب العلم ، أما والدة الإمام ابن كثير فقد انجبت أربعة من الأولاد هم :

كمال الدين عبد الوهاب ، وعبد العزيز ، ومحمد ، وإسماعيل وهو ابن كثير نفسه[٤] وقد عرفنا من قبل لماذا سمى بإسماعيل .

رابعاً : زوجته وأولاده

تزوج الامام ابن كثير - رحمه اللّه - بزينب ابنة شيخه ابي الحجاج المزّي[٥] وكانت امرأة صالحة ، حافظة لكتاب اللّه تعالى ، بارة بوالديها ، وكانت قد حفظت القرآن على والدتها عائشة بنت ابراهيم بن صديق .

قال الإمام ابن كثير -رحمه اللّه- في ترجمة الشيخة الصالحة أم زينب فاطمة بنت عباس[٦] أنها أختمت نساءاً كثيراً القرآن منهم أم زوجتي عائشة بنت

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٤/٣١-٣٢ .

(٢) تحفة الطالب ص ٢٢ .

(٣) البداية والنهاية ١٤/٣١ .

(٤) المصادر السابقة نفسها .

(٥) ستأتي ترجمته في شيوخ ابن كثير . انظر ص (٥١)

(٦) هي الشيخة الصالحة العابدة الناسكة فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح بن محمد البغدادية كانت من العالمات الفاضلات ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وكانت تحضر مجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، وهي التي ختّمت نساءً كثيراً القرآن ، توفيت رحمها الله في يوم عرفة سنة أربع عشرة وسبعمائة : انظر البداية والنهاية ، ١٤/٧٢ .

صديق[١] وهي التي أقرأت ابنتها زوجتي أمة الرحيم زينب[٢] رحمهنّ الّله وأكرمهنّ[٣] وقد رزق منها - رحمه الّله - بأولاد أربعة نذكرهم حسب سنيّ وفاتهم :

١- عمر بن اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، كان فقيهاً وكتب تصانيف أبيه وولي الحسبة مراراً والأوقاف ، ودرّس بأماكن عديدة ، توفي - رحمه الّله - سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة وله من العمر خمساً واربعين سنة .[٤]

٢- أحمد بن اسماعيل بن عمر بن كثير ، ويعرف كأبيه بابن كثير ، ولد سنة خمس وستين وسبعمائة ، كان أحسن اخوته سمتاً ، عارفاً بالأمور ، مات - رحمه الّله - في ربيع الأول سنة أحدى وثمانمائة .[٥]

٣- بدر الدين محمد بن محمد بن اسماعيل بن كثير ، أبو البقاء ، درس العلم وتفقه على كثير من الشيوخ ، وكان ذا فضل معروفاً بحسن الخط وجودة الضبط ولد سنة تسع وخمسين وسبعمائة ومحمد مثل أبيه في أنه محدث حافظ ، ولكنّ باعه أقل بكثير من والده بل لا يكاد يذكر إلى جانبه توفي سنة ثلاث وثمانمائة عليه رحمة الّله .[٦]

٤- التاج عبد الوهاب بن اسماعيل بن كثير ، ولد في ثالث عشر ذي الحجّة سنة سبع وستين وسبعمائة ، سمع من أبيه وغيره من الشيوخ مات في ذي القعدة سنة أربعين وثمانمائة عليه رحمة الّله .[٧]

---

(١) زوجة الشيخ المزي شيخ الإمام ابن كثير، المصدر السابق .

(٢) ابنة الشيخ المزي وزوجة الإمام ابن كثير . المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق ، وانظر تحفة الطالب ص ٢٣ .

(٤) انظر إنباء الغمر لشيخ الإسلام الحافظ بن حجر العسقلاني ، تحقيق د. حسن حبشي ٢٤٨/١ طبعة القاهرة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

(٥) انظر الضوء اللامع لأهل القرن التاسع / شمس الدين السخاوي المجلد الأول ٢٤٣/١ ط ، دار الحياة بيروت ، وانظر إنباء الغمر ٥٨/٢ .

(٦) انظر إنباء الغمر بأنباء العمر ١٨٤/٢ .

(٧) الضوء اللامع المجلد الثالث الجزء الخامس ص ٩٨ .

المطلب الرابع
صفاته ومعالم شخصيّته

عادة ماتتكون شخصيّة الإنسان من عنصرين أساسيين ، أولهما : عنصر الوراثة والثاني العنصر المكتسب ، ومعلوم أن هذين العنصرين يختلفان عن بعضهما تماماً رغم أن منهما تتكون شخصية الإنسان ، والخلاف بين العنصرين الوراثي والمكتسب يتمحور في أن الأول غالباً مايختص بخلقة الإنسان التى يرثها عن والديه كالطول والقصر ولون العينين ولون البشرة والشعر وماإلى ذلك .

بينما يختص الثاني فيما يكتسبه الإنسان من بيئته كالعادات والتقاليد ، والخلق والشجاعة والكرم ، والتواضع ، والإخلاص ، والأمانة .

وعند الحديث عن معالم شخصية الإمام ابن كثير - رحمه الله - حسب ماتقدم فإنني لم أعثر في المراجع التي وقفت عليها حديثاً عن العنصر الوراثي أو بمعنى آخر الصفات الجسديّة .

ولذلك سوف أقتصر في حديثي عن مكونات شخصيّة الإمام ابن كثير على العنصر الثاني ألا وهو العنصر المكتسب .

أولاً : عدله وورعه :

كان الامام ابن كثير - رحمه الله - عدلاً ورعاً ، تقّياً لا يقول إلاّ الحق ، وكان وقّافاً عند حدود الشريعة المطهرة ، وحسبنا للاستدلال على مانقول مايرويه هو عن نفسه فيقول : عندما استولى الفرنج - لعنهم الله - على الاسكندرية وعاثوا في أهلها فساداً يقتلون الرجال ، ويأخذون الأموال ، ويأسرون النساء ، والأطفال ، ورداً على ذلك أراد السلطان في مصر أن يأخد ربع أموال النصارى في الشام لعمارة ما خرّب من الإسكندرية وهنا نجد الإمام ابن كثير يرفض هذا وطلب الإجتماع بنائب السلطنة ، وأخبره أن هذا مما لا يسوغ شرعاً فقال نائب السلطنة : إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك فقال الإمام ابن كثير - رحمه اللّه - : لا يجوز لأحد أن يفتي بهذا متى كانوا النصارى - باقين على الذمّة ، يؤدون الجزية للمسلمين ملتزمين بالذلّة والصغار .[1] فانظر

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٤/٣١٤- ٣١٥ .

إلى ، هذا الإمام الفذ الذي فهم هذه المعادلة من قول ربنا جل شأنه ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1] ومن خلال هذا الفهم الدقيق والإيمان العميق رفض الإمام ابن كثير - رحمه الله -أي مفهوم آخر يتعارض مع الفهم الصحيح . وهذا هو موقف الإسلام العظيم في العدل والإنصاف والمساواة ، كما فهمه الإمام ابن كثير .

والسؤال الذي يطرح نفسه ، أين هي مواقف اليهود والنصارى وأهل الذمة والكفرة ؟ هل لهم مثل هذه المواقف ؟! أم هم على العكس من ذلك ؟ لِنَرَ :-

جاء في العهد القديم :

« وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم ، منهم تقتنون عبيداً وإماءً ، وأيضاً أبناء المستوطنين النازلين عندكم ، منهم تقتنون ، ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم في أرضكم فيكونون ملكاً لكم ، وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك تستعبدونهم إلى الدهر ، وأما إخوتكم بنو اسرائيل فلا يتسلط إنسان على أخيه بعنف »[2]

ومن تعاليم التلمود :[3]

« محرم على اليهود أن ينجّي أحداً من الأجانب من هلاك ، أو يخرجه من حفرة يقع فيها بل عليه أن يسدها بحجر »[4].

«اليهودي لا يخطئ إذا اعتدى على عرض غير اليهود ، لأن كل عقد زواج عند غير

---

(١) سورة المائدة آية (٨) .

(٢) الكتاب المقدّس سفر لاوين إصحاح (٢٥) آية ٤٤ - ٤٦ ، ص٢٠٠

(٣) التلمود معناه ، كتاب تعليم ديانة اليهود وآدابهم ، وهو من أندر الكتب الموجودة في عالمنا على الإطلاق ، ولا يوجد في العالم أجمع أكثر من خمس نسخ ، إحداها موجودة في جمهورية مصر العربية ، محفوظ حفظ الوثائق شديدة الأهمية وقد استلزم وصولها من مكانها الأصلي إلى مصر وضع خطة أشبه بخطط الجاسوسية التى نقرأ عنها في الكتب البوليسية - استغرق تنفيذها بصبر ، وحرص، وتكتم شديد،ثلاث سنوات كاملة .

انظر بروتوكولات حكماء صهيون / شوقي عبد الناصر ص ١٠ ط (٢) ، والبروتوكولات ليست خططاً تفصيلية يمكن تغييرها بحال من الأحوال ، فهي بمنزلة الدستور ، أو مجموعة من المبادئ الأساسية الإستراتيجية وهي وإن كانت ترسم الخطوط العريضة إلا أنه يمكن أن ينسب إليها كل عمل من أعمالهم مهما صغر ويوزن بميزانها كل تصرف ، والبروتوكولات (المقررات) تستمد روحها من التعاليم اليهودية الواردة في التوراة"العهد القديم"، والتى جمعها اليهود كتاريخ لبني إسرائيل بعد موسى عليه السلام بمئات السنين تحت اسم «الأسفار» انظر البروتوكولات ص ١٣ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٦ - ٣٧ .

اليهود باطل ، فالمرأة غير اليهودية تعتبر بهيمة والعقد لايقوم بين البهائم » .[1]

« لليهود الحق في اغتصاب النساء غير اليهوديات » .[2]

أما النصارى فما فعلوه بالمسلمين منذ الحملات الصليبية وإلى الآن لا يقل عما يفعله اليهود ، ومن مخازي هذا العصر والتي ستظل وصمة عار في جبين النصارى بل في جبين العالم أجمع،هو مافعله الصرب بمسلمي البوسنة والهرسك من تقتيل وتجويع واغتصاب وانتهاك للأعراض ، حتى لقد أقدمت شابة مسلمة على شنق نفسها في شجرة مفضلة الموت على هتك شرفها وعرضها .[3]

وصدق القائل :

حكمنا فكان العفو منا سجيّة ❊❊❊ فلما حكمتم سال بالدم أبطح

فحسبكم ذاك التفاوت بيننا ❊❊❊ وكل إناءٍ بالذي فيه ينضح

ثانياً : جرأته في قول الحق

كان الإمام ابن كثير - رحمه الله - جريئاً في قول الحق ، فقد كان يقول الحق ولا يخشى في الله لومة لائم ، وكثيراً ماجرّت هذه الجرأة على أصحابها الويلات إن في الماضي أو في الحاضر ولكن أصحاب الحق لا يأبهون بهذا وكيف لا ، وقد علموا قول نبيهم ﷺ عندما سئل أي الجهاد أفضل ؟ فقال : « كلمة حق عند سلطان جائر »[4]

ومن هؤلاء كان الإمام ابن كثير - رحمه الله - فلقد لقي من الاضطهاد الشئ الكثير مقابل جرأته في قول الحق وحبه له .

ومن صور جرأته في قول الحق قال :

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦ - ٣٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦ - ٣٧ .

(٣) انظر مجلة فلسطين المسلمة العدد التاسع السنة الثالثة عشر ربيع الآخر ١٤١٦هـ ص ٤٨ .

(٤) سنن النسائي بشرح الحافظ جمال الدين السيوطي ٧/ ١٦١ كتاب البيعة باب فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر (ط) دارالجيل ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، و سنن ابن ماجة /للامام ابن ماجة القزويني تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي كتاب الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حديث ٤٠١١ (ط) دار احياء التراث العربي ، ومسند الإمام احمد ٤/ ٣١٤ ، ٣١٥ دار صادر .

«وجاءتني فتيا صورتها : ما تقول السادة العلماء في ملك إشترى غلاماً فأحسن إليه وأعطاه وقدمه ، ثم إنه وثب على سيده فقتله وأخذ ماله ، ومنع ورثته منه ، وتصرف في المملكة ، وأرسل إلى بعض نواب البلاد ليقدم عليه ليقتله فهل له الامتناع منه ؟ وهل إذا قاتل دون نفسه وماله حتى يقتل يكون شهيداً أم لا ؟ وهل يثاب الساعي في خلاص حق ورثة الملك المقتول من القصاص والمال ؟ أفتونا مأجورين .

فقلت للذي جاءني بها من جهة الأمير : إن كان مراده خلاص ذمته فيما بينه وبين الله تعالى فهو أعلم بنيته في الذي يقصده ، ولايسعى في تحصيل حق معين اذا ترتب على ذلك مفسدة راجحة على ذلك فيؤخر الطلب إلى وقت إمكانه بطريقته ، وإن كان مراده بهذا الإستفتاء أن يتقوى بها في جمع الدولة والامراء عليه ، فلابد أن يكتب عليها كبار القضاة والمشايخ أولاً . ثم بعد ذلك بقية المفتين والله الموفق للصواب .[1]

ثالثاً : مشاركته في الإصلاح وفض الخلاف

حدث أن القاضيين جمال الدين المالكي ، وجمال الدين الحنبلي ، رميا القاضي تاج الدين السبكي بأشياء أثارت حفيظته ، فشكاهما إلى نائب السلطنة بمصر فعقد مجلساً لهذا الغرض حضره القضاة الثلاثة ، وابن كثير ، وخلق من أتباع المذاهب الأربعة بحضرة نائب الشام سيف الدين منكلي بغا .

وكان ابن كثير يمثل المذهب الشافعي في المجلس ذاك ، فأشار نائب السلطنة بالصلح بينهم وأن يرجع القاضيان عما قالا ، وبذلك أشار الإمام ابن كثير ، فلان المالكي وامتنع الحنبلي وانفض المجلس على لا شئ .

ثم عقد اجتماع آخر حضره نائب السلطان ، وكان قد قال فيه : كنا نحن الترك وغيرنا إذا اختلفنا واختصمنا نجيئ بالعلماء فيصلحون بيننا ، فإذا اختصم العلماء فمن يصلح بينهم ؟ وبين لهم أن الخلاف من مصلحة الأعداء ، وأشار بالصلح بين القضاة ، وذكرهم بقول الله تعالى ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ .[2] فلانت القلوب عندئذ وتصالحوا فيما بينهم .[3]

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٢٨١ - ٢٨٢ .

(٢) سورة المائدة آية ٩٥ .

(٣) البداية والنهاية ١٤/٣١٦ - ٣١٧ .

رابعاً : محاربته للخرافات والإسرائيليات

كان الإمام ابن كثير - رحمه الله - ذا عقل حصيف ناضج يميز بين الغث والسمين فكان لا يقبل إلاّ ما يستند إلى دليل ، وكل ماعدا ذلك لا يقبله ، بل يرفضه رفضاً صريحاً .

فقد قال أبو جعفر الرازي(١) عن الربيع بن أنس(٢) عن أبي العالية(٣) في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .(٤) قال : « الإنس عالم ، والجن عالم ، وماسوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم - هو يشك - الملائكة على الأرض ، وللأرض أربع زوايا ، في كل زاوية ثلاثة آلاف عالم وخمسمائة عالم خلقهم الله لعبادته » .(٥) قال ابن كثير : « وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح » .(٦)

وأما من جهة الاسرائيليات ، فقد حذر الإمام ابن كثير منها أيّما تحذير ، ومن أمثلة ذلك قصة هاروت وماروت وأنهما من الملائكة ، وأنهما يعلمان الناس السحر ، وكذلك قصة الغرانيق ، فقد رويت كثير من الإسرائيليات في هذه القصص ، وعندما يعلق عليها الإمام ابن كثير نجده يرفض كل مالا يستند إلى دليل ، وما لا يقبله العقل ، فنجده مثلاً يقول : « وهذا السياق فيه زيادة كثيرة وإغراب ونكارة والله أعلم بالصواب » .(٧)

(١) مشهور بكنيته ، واسمه عيسى ابن أبي عيسى ابن ماهان ، وأصله من مرو ، كان يتجر إلى الري ، قال ابن معين : ثقة ، وقال أحمد والنسائي : ليس بالقوي . انظر تقريب التهذيب ابن حجر العسقلاني ٤٠٦/٢ - ط (١) دار الفكر ، وميزان الإعتدال في نقض الرجال / الذهبي ٣١٩/٣ - دار الفكر العربي، والجرح والتعديل / لابن أبي حاتم الرازي ٢٨٠/٦ ط دار الكتب العربية .

(٢) هو الربيع بن أنس البكري ، أو الحنفي ، بصري نزل خراسان ، ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال النسائي : ليس به بأس ، وقال أبو حاتم : صدوق ، وقال ابن حجر : صدوق له أوهام . انظر التقريب ٢٤٣/١ ، والجرح والتعديل ٢٥٤/٣ .

(٣) هو رفيع بن مهران الرياحي ، من بني رياح ابن يربوع ، حي من تيميم ، مات سنة ٩٣هـ روي له الجماعة . انظر التقريب ٢٥٢/١ ، والجرح والتعديل ٥١٠/٣ ، واللباب في تهذيب الأنساب ٤٦/٢ .

(٤) سورة الفاتحة آية (١) .

(٥) أخرجه الطبري (محمد بن جرير) في جامع البيان ٤٩/١ ط (٣) دار المعرفة بيروت - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م ، وذكره السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور / جلال الدين السيوطي ٣٤/١ ط (٢) ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م - ط دار الفكر . وذكره في الجامع لأحكام القرآن ١٣٨/١ .

(٦) تفسير القرآن العظيم ٢٣/١ - ٢٤ .

(٧) المصدر السابق ١٤٠/٤ .

وفي موضع آخر نجده يقول : « لأن سحرة اليهود كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان ابن داود ، فأكذبهم الله بذلك » .[1]

خامساً : حبّه وكرهه في الله .

كانت محبة وكراهية الإمام بن كثير لغيره من الناس خاضعة لميزان الشرع ومدى القرب والبعد من الله ، فكان لا يحب إلا في الله ، ولا يبغض إلاّ في الله .

فعلى صعيد المحبّة في الله ، هاهو يحدث عن الإمام العلامة ابن قيم الجوزية [2] بعد أن أثنى عليه وعدّد كثيراً من مناقبه فيقول : « وكنت من أصحب الناس له ، وأحب الناس إليه ولا أعرف في زماننا أكثر عبادة منه » .[3]

أما على صعيد الكراهية ، فيحدثنا عن عبد الله الملطي [4] فيقول : « وكنت ممن يكرهه طبعاً وشرعاً » [5] .

---

(١) المصدر نفسه ٤/١٣٧ .

(٢) هو الامام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي ، إمام الجوزية وابن قيّمها ولد في سنة إحدى وتسعين وستمائة ، سمع الحديث واشتغل بالعلم وبرع في علوم متعددة لاسيما علم الحديث والتفسير ، ومن نوادره أنّه وقع بينه وبين ابن كثير منازعةً في تدريس الناس ، فقال له ان كثير : أنت تكرهني لأنني أشعري ، فقال له : لو كان من رأسك إلى قدمك شعر ما صدقك الناس في قولك : أنك أشعري وشيخك ابن تيمية ، توفي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة . انظر البداية والنهاية ١٤/٢٣٤ ، والدرر الكامنة ١/٥٨ .

(٣) البداية والنهاية ١٤/٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٤) هو الشيخ عبد الله الملطي ، كانت له أشياء كثيرة من الطراريح والآلات الفقرية ، ويلبس على طريقة الحريرية ، وشكله مزعج توفي سنة ست وستين وسبعمائة ، البداية والنهاية ١٤/٣١٣ .

(٥) المصدر نفسه ١٤/٣١٣ .

المبحث الثالث

حياته العلميّة : ويشتمل على أُربعة مطالب :-

المطلب الأول : نشاطه في طلب العلم .

المطلب الثاني : شيوخه وتلاميذه .

المطلب الثالث : مكانته العلميّة وثناء العلماء عليه .

المطلب الرابع : مؤلفاته ووفاته .

المطلب الاوّل
نشاطه في طلب العلم

كان للوسط الذي عاشه الامام ابن كثير - رحمه الله -أثر كبير في توجيهه التوجيه السليم حيث كانت أسرته أسرة علميّة الأمر الذي كان له أكبر الأثر في توجه ابن كثير العلمي ، فلقد التحق بطلب العلم منذ نعومة أظفاره حيث حفظ القرآن الكريم على يد الشيخ شمس الدين البعلبكي وعمره لم يتجاوز الحادية عشرة .(١)

ولقد سمع صحيح مسلم في تسعة مجالس بقراءة الوزير العالم ابو القاسم الآزدي .(٢)

كما أنه درس القراءات والتفسير وعنى بالفقه والأصول ودرس التاريخ وعلم الرجال والنحو والشعر وغيرها .

وهكذا أخذ يقرأ ويواصل ، ويتابع ، ويعكف على العلم ، ويجالس العلماء حتى ذاع صيته وطار في الامصار ذكره ، وتولى مشيخة العديد من المدارس وانتهت إليه رئاسة العلم في التفسير والحديث والفقه والتاريخ .

وكان - رحمه الله يقول الشعر ، ومما قاله :

تمر بنا الأيام تترى وإنما *** نساق إلى الآجال والعين تنظر
فلا عائد ذاك الشباب الذي مضى *** ولا زائل هذا المشيب المكدر(٣)

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٤/ ١٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ١٤/١٤٩ .

(٣) شذرات الذهب ٦/ ٢٣٠ .

المطلب الثّاني
شيوخه وتلاميذه

أولاً : شيوخه :

مادمنا بصدد الحديث عن شيوخ الإمام ابن كثير - رحمه الله - فما ينبغي لنا أن ننسى أمّه - رحمها الله - التى كانت تحفظ كتاب الله الكريم ، فلابد أنه سمع منها وحفظ عنها منه شيئاً ، وكيف لا وهي التي كانت تتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، تستعيد حفظه وتؤكد تذكارها له ، ومن هنا فإنّ أمّه - رحمها الله - كانت بحق شيختـه الأولى ،كما أن أخاه عبد الوهاب كان أحد شيوخه أيضاً ، وقد كان ذا علم وفضل .

قال عنه ابن كثير - رحمه الله - « فاشتغلت على يديه في العلم فيسرالله منه مايسر وسهل منه ما تعسر » .[1]

وقد تتلمذ الإمام ابن كثير - رحمه الله - على أيدي شيوخ أجّلاء ، وعلماء فضلاء وأساتذة أكفاء ، كان لهم تأثير واضح في علمه وثقافته ، وقد عرفوا بغزارة العلم وسعة الإطلاع ، كما عرفوا بالتقوى والورع والإخلاص .

وهآنذا أترجم لطائفة من شيوخ الإمام ابن كثير ، وقد رتبتهم حسب سنيّ وفاتهم .

١ - *عبد المؤمن الدمياطي* :

هو الحافظ شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن بن شرف بن الخضر ابن موسى الدمياطي أحد الائمة الأعلام والحفاظ والثقات ، ولد سنة ثلاث عشرة وستمائة بتونه وهي بلدة في بحيرة تنّيس من أعمال دمياط [2] قال عنه الامام بن كثير : «حامل لواء هذا الفنّ - يعنى صناعة الحديث وعلم اللغّة - مع كبر السن والقدر ... تردد الطلبة إليه من سائر الآفاق ، سمع الكثير على المشايخ ورحل وطاف وحصّل وجمع فأوعى ، ولكن مامنع ولا بخل بل بذل وصنف ونشر العلم .[3]

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٣٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٢١٨/٨ ، وبجيرة تنيس تعرف اليوم ببحيرة المنزلة الواقعة في شمال أراضي مديرتي الشرقية والدقهلية بمصر .

(٣) انظر البداية والنهاية ١٤/ ٤٠ .

كان يعرف بابن الجامد ، وكان جميل الصورة جداً ، حتى كان أهل دمياط إذا بالغوا في وصف العروس قالوا عنها : كأنها ابن الجامد .[١]

ولم يزل في إسماع الحديث إلى أن أدركته وفاته وهو صائم في مجلس الإملاء حيث أغشي عليه ، فحمل إلى منزله فمات من ساعته يوم الأحد عاشر ذي القعدة سنة خمس وسبعمائة بالقاهرة ، ودفن بمقابر باب النصر ، وكانت جنازته حافلة جداً رحمه الله تعالى .[٢]

٢- *الشيرازي :*

هو الشيخ الأصيل شمس الدين أبو نصر بن محمّد بن عماد الدين ، أبي الفضل الشيرازي .

ولد في شوال سنة تسع وعشرين وستمائة ، سمع الكثير ، وأسمع وأفاد ، وكان شيخاً حسناً مباركاً متواضعاً ، لم يتدنس بشئ من الولايات ، ولا تدنس بشئ من وظائف المدارس ولا الشهادات،[٣] وكان ساكناً وقوراً، وكبر سنه ولم يختلط ، توفي بالمزّة ليلة عرفة عن أربعة وتسعين سنة وشهرين[٤] وكانت وفاته - رحمه الله - في يوم عرفة سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة[٥]

---

(١) انظر الدرر الكامنة ٤١٧/٢ ط دار الجيل .

(٢) انظر البداية والنهاية ١٤/ ٤٠ .

(٣) المصدر السابق ١٠٩/١٤ ، وعبارة الامام ابن كثير - رحمه الله - « ولم يتدنس بشئ من الولايات ... ولا الشهادات » ، غير صحيحة على إطلاقها ، فإن من يتولى أمراً من أمور المسلمين ويتقي الله في ذلك كما كان ابوبكر وعمر والصالحون من بعدهم ، فإن مثل هؤلاء الولاة لا تدنسهم ولايتهم ، وإنما تزيدهم شرفاً إلى شرفهم ، إنما يلحق الدنس أولئك الولاة الذين لا يتقون الله في مواليهم كحكام هذا الزمان - إلا من رحم الله - أمثال الرئيس السوداني الفريق الركن عمر حسن أحمد البشير قائد ثورة الإنقاذ الوطني ، فهذا نحسبه من الصالحين ولا نزكي على الله أحداً ، ومن باب أولى المدراس والشهادات ، فإنها لا تندس صاحبها الذي يأخذها بجدّه واجتهاده والله أعلم ، فكان الأجدر بالإمام - رحمه الله - أن يقيد عبارته ، لكن لعلها تكون زلّة قلم غفر الله له .

(٤) انظر شذرات الذهب ٦٢/٦ .

(٥) انظر البداية والنهاية ١٤/ ١١٠.

٣- ابن الزملكاني :

هو العلامة جمال الإسلام كمال الدين ابو المعالي محمد بن علي بن عبد الواحد الزملكاني [(١)] ، ولد سنة سبع وستين وستمائة ، وكان إماماً علامة بصيراً، قوى العربية صحيح الذهن ، فصيحاً أديباً ، ناظماً ، ناثراً ، أفتى وله نيف وعشرون سنة . [(٢)]

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - «وأمّا دروسه في المحافل فلم أسمع أحداً من الناس درّس أحسن منها ، ولا أحلى من عبارته ، وحسن تقريره ، وجودة احترازاته ، وصحة ذهنه وقوة قريحته ، وحسن نظمه ، ولا يهيله تعداد الدروس وكثرة الفقهاء والفضلاء ، بل كلّما كان الجمع أكثر والفضلاء أكبر كان الدرس أنضر وأبهى وأحلى ، وأنصح وأفصح ، توفي رحمه الله يوم الأربعاء سادس عشر رمضان بمدينة بلبيس سنة سبع وعشرين وسبعمائة [(٣)]

٤- ابن تيمية :

هو شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني الدمشقي ، ولد يوم الإثنين عاشر ربيع الأول سنة احدى وستمائة كان إمام عصره بلا منازع في الفقه والحديث ، والأصول ، والنحو ، واللّغة ، وغير ذلك .

له العديد من المصنفات ، يقال أنها بلغت خمسمائة مجلد ، أثنى عليه جماعة من العلماء فقيل إنه اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها ، وقد كان - رحمه الله - جريئاً في الحق لا يخشى في الله لومة لائم ، ولذلك فقد حبس مرات عديدة بالقاهرة والاسكندرية ودمشق وعقدت له مجالس فيها ، توجه في آخر حياته إلى دمشق ، وأقام بها إلى أن ورد مرسوم في سنة ست وعشرين وسبعمائة بأن يجعل في قلعة دمشق في قاعة ، فجعل في قاعة حسنة ، وأقام بها مشغولاً بالتنصيف والكتابة ، ثم بعد ذلك منع من الكتابة ، والمطالعة ، وأخرجوا ماعنده من الكتب ولم يتركوا عنده دواة ولا قلماً ، توفى رحمه الله ليلة الاثنين ، العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة . [(٤)]

---

(١) زملكان : بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح اللام ، قرية بغوطة دمشق ، معجم البلدان ٣/ ١٥٠.

(٢) انظر النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٠ ، وشذرات الذهب ٦/ ٧٨ -٧٩ .

(٣) البداية والنهاية ١٤/ ١٣١-١٣٢ .

(٤) انظر البداية والنهاية ١٤/ ١٣٥-١٤٠ ، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧١ -٢٧٢ ، والدرر الكامنة ١/ ١٥٣ ومابعدها ، والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي / جمال الدين يوسف الاتابكي تحقيق أحمد يوسف نجاتي ١/ ٣٣٦-٣٤٠ ، ط (١) ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م دار الكتب المصرية .

٥- الفزاري :

هو العلاّمة شيخ الإسلام برهان الدين إبراهيم بن شيخ الشافعية تاج الدين عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع الفزاريّ .

ولد في ربيع الأول سنة ستين وستمائة ، حدّث بالصحيح مرّات ، وعرض عليه القضاء فامتنع ، وباشر الخطابة بعد موت عمه مدة يسيره .

قال الذهبي : « انتهت إليه معرفة المذهب ودقائقه ، ووجوهه ، مع علمه فنون الأحكام وعلم أصول العربية ، وغير ذلك ، وكان يدرى أصول علم الحديث مع الدّين ، والورع ، وحسن السمت ، والتواضع » .(١)

قال الإمام ابن كثير : « وكان مقبلاً على شأنه عارفاً بزمانه ، مستغرقاً أوقاته في الاشتغال والعبادة ليلاً ونهاراً ، كثير المطالعة وسماع الحديث ، وقد سمعنا عليه صحيح مسلم وغيره وقال : وبالجملة لم أر شافعياً مثله ، وكان حسن الشكل ، عليه البهاء والجلالة والوقار ، حسن الأخلاق ، وفيه حدّة ثم يعود قريباً ، وكرمه زائد ، وإحسانه إلى الطلبة كثير .

توفي رحمه الله بكرة يوم الجمعة سابع جمادي الأولى سنة تسع وعشرين وسبعمائة وصلي عليه عقب الجمعة ، وحملت جنازته على الرؤوس وأطراف الأنامل ودفن عند أبيه وعمه وذويه » .(٢)

٦- شمس الدين البعلبكي :

هو شمس الدين ابوعبد الله محمّد بن شرف الدين أبي الحسن بن حسين بن غيلان البعلبكي الحنبلي ، سمع الحديث وأسمعه ، وكان يقرئ القرآن طرفي النهار وعليه ختمت القرآن في سنة أحد عشر وسبعمائة ، وكان من الصالحين الكبار والعبّاد الأخيار ، توفي يوم السبت سادس صفر سنة ثلاثين وسبعمائة وكانت جنازته حافلة .(٣)

٧- ابن الشحنة :

هو شهاب الدين أحمد بن أبي طالب بن نعمة بن حسن الصالحي الحجّار بن الشحنه من قرية من قرى وادي بردى بدمشق ، ولد سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، وعمّر مائة عام وسبعة أعوام .

---

(١) انظر شذرات الذهب ٨٨/٦ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١٤٦/١٤ .

(٣) المصدر السابق ١٥٠/١٤ .

كان إذا قلب عليه سند حديث يقول : لم أسمعه هكذا ، وإنما سمعته كذا وكذا طبق مافي الصحيح .[1]

كان دموي اللّون ، صحيح الركب أشقر طويلاً ، أبطأ عنه الشيب ، وكانت له همّة وفيه عقل وفهم ، يصغى جيداً ، وكان فيه دين وملازمه للصلاة ، ويصوم تطوعاً ، وقد صام وهو ابن مائة سنة رمضان،واتبعه ستاً من شوال ، وكان حينئذ يغتسل بالماء البارد ولا يترك غشيان الزوجة .

له بوادر ، منها : أنه سئل عن عاقّ والديه فقال يقتل ، وسئل عن صوم ست من شوال فقال : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾[2] .

شرع في قراءة الصحيح قبل موته بيوم ، ثم قرئ عليه الميعاد الثاني يوم وفاته إلى الظهر فمات قرب العصر في الخامس والعشرين من صفر سنة ٧٣٠هـ[3] .

قال ابن كثير - رحمه الله - « وسمعنا عليه بدار الحديث الاشرفيّه في أيام الشتويات نحواً من خمسائة جزء بالإجازات والسماع .[4]

وهكذا فقد أفاد الإمام ابن كثير من شيخه ابن الشحنة وخاصة في الحديث وعلومه .

٨- *شمس الدين المقدسي :*

هو الإمام العالم العابد شمس الدين ابو محمد عبد الله بن العفيف محمد بن الشيخ تقي الدين يوسف بن عبد المنعم بن نعمة المقدسي النابلسي الحنبلي ، إمام مسجد الحنابلة ، ولد سنة سبع وأربعين وستمائة ، سمع الكثير ، وكان كثير العبادة حسن الصوت ، عليه البهاء والوقار وحسن الشكل والسمت ، قرأت عليه عام ثلاث وثلاثين وسبعمائة كثيراً من الأجزاء والفوائد توفي يوم الخميس ثاني عشر ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين وسبعمائة رحمة الله عليه .[5]

٩- *ابو الحجّاج المزّي :*

هو الحافظ الحجة جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكيّ عبد الرحمن بن يوسف القضاعي ثم الكلبي الدمشقي الشافعي .

---

(١) انظر شذرات الذهب ٩٣/٦ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٤٢ .

(٣) انظر الدرر الكامنة ١٥٢/١ - ١٥٣ .

(٤) انظر البداية والنهاية ١٥٠/١٤ .

(٥) المصدر السابق ١٧٩/١٤ ، والدرر الكامنة ٤٠٣/٢ - ط دار الجيل .

ولد بظاهر حلب سنة أربع وخمسين وستمائة ،[1] كان إمام عصره ، أحد الحفاظ المشهورين سمع الكتب الطوال كالستّة والمسند والمعجم الكبير ، وتاريخ الخطيب ، ومن الأجزاء ألوفاً كان كثير الحياء ، والاحتمال ، والقناعة والتواضع ، والتودد إلى الناس ، وكان قليل الكلام جداً حتى يسأل فيجيب ويجيد ، وكان لا يتكثر بفضائله ولا يغتاب أحداً ،[2] ومن مصنّفاته (تهذيب الكمال) ، اشتهر في زمانه ، وحدث به خمس مرات ، وكتاب (الأطراف) وهو كتاب مفيد جداً ، وقد أخذ عنه الأكابر ، وترجموا له وعظموه .

كان أحفظ الناس للتراجم ، وأعلمهم بالرواة من أعارب وأعاجم ، وكان في اللّغة إماماً وله بالفرائض معرفة وإلمام ،[3] وقد لازمه الامام ابن كثير ، وتوثقت صلته به لما تزوج ابنته زينب ولم يفارقه حتى مات بالطاعون رحمه الله ، وكانت وفاته يوم السبت ثاني عشر صفر سنة اثنين واربعين وسبعمائة .[4]

١٠ - *الذهبي*:

هو الامام الحافظ المؤرخ صاحب التصانيف المفيدة شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي الشافعي ، ولد في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وستمائة .

سمع الكثير ورحل إلى البلاد وكتب وألف وصنّف ، وأرّخ وصحح ، وبرع في الحديث وعلومه وقرأ القراءات السبع على جماعة من مشايخ القراءات .[5]

كان أكثر أهل عصره تصنيفاً ، وجمع تاريخ الإسلام فأربى فيه على من تقدم بتحرير اخبار المحدثين ، واختصر منه مختصرات كثيرة منها العبر ، وسير أعلام النبلاء ، وملخص التاريخ واختصر تهذيب الكمال لشيخه المزّي .

رغب الناس في تواليفه ورحلوا إليه بسببها ، وتداولوها قراءة ، ونسخاً ، وسماعاً .[6]

---

(١) انظر النجوم الزاهرة ١٠/٧٦ .

(٢) انظر الدرر الكامنة ٥/٢٣٣ .

(٣) انظر البدر الطالع كاشف من بعد القرن السابع / محمد بن علي الشوكاني ٢/٢٥٣-٢٥٤، دار المعرفة - بيروت .

(٤) انظر البداية والنهاية ١٤/١٩١-١٩٢ .

(٥) انظر النجوم الزاهرة ١٠/١٨٢ .

(٦) انظر الدرر الكامنة ٣/٤٢٦ ، والبدرالطالع ٢/١١٠ .

كان علاّمة زمانه في الرجال وأحوالهم ، جيد الفهم ثاقب الذهن ، وشهرته تغني عن الإطناب فيه .(١)

توفي - رحمه‌الله - ليلة الاثنين ثالث شهر ذي القعدة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة (٢)

ثانياً : تلاميذه :

كما أن الامام ابن كثير - رحمه الله - قد تتلمذ على أيدي شيوخ أجلاء وعلماء فضلاء أثّروا في شخصيته كما تقدم ، فلقد تخرج على يديه طلاب نجباء تأثروا بشخصيته واستفادوا من علمه وأفادوا ، وكما أنني اقتصرت في ترجمة شيوخه على طائفة منهم ، فإنني سأقتصر في ترجمة تلاميذه على طائفة منهم أيضاً وهؤلاء هم :

١- محمّد بن أبي المحاسن الدمشقي

هو محمّد بن علي بن الحسن بن حمزة بن أبي المحاسن الدمشقي الحسيني الشافعي ولد سنة خمسة عشر وسبعمائة ، ومن مصنّفاته كتاب في آداب الحمّام ، والعرف الذكيّ في النسب الزكيّ . مات كهلاً في آخر شعبان سنة ٧٦٥هـ وله خمسون سنة رحمه الله تعالى .(٣)

٢- بدر الدين الزركشي :

هو الإمام العلاّمة بدر الدين أبوعبدالله محمد بن بهادر بن عبدالله المصري الزركشي الشافعي ، ولد سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، سمع الحديث بدمشق من الحافظ ابن كثير رحمه الله ، وكان فقيهاً أصولياً أديباً فاضلاً في جميع ذلك .

ومن تصانيفه تكملة شرح المنهاج للإسنوي ، وشرح جمع الجوامع للسبكي في مجلدين ولقطة العجلان وبلة الظمآن ، وله غير ذلك ، توفي رحمه الله بمصر في رجب سنة أربع وتسعين وسبعمائة .(٤)

---

(١) انظر البدر الطالع ٢/١١١ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١٤/٢٢٥ .

(٣) المصدر السابق ١٤/٣٠٧ -٣٠٨ والدرر الكامنة ٤/٦١ ط دار الجيل .

(٤) انظر شذرات الذهب ٦/٣٣٥ ، والنجوم الزاهرة ١٢/١٣٤ ، وتحفة الطالب ص ٣١ .

٣- الحافظ العراقي :

هو الحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم المهراني[(١)] المولد ، العراقي الأصل ، الكردي ، ولد سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، حفظ التنبيه واشتغل بالقراءات ولازم المشايخ في الرّواية ، صنف تخريج أحاديث الإحياء ، واختصره في مجلد واحدٍ ، توفي - رحمه الله - في ثاني شعبان سنة ست وثمانمائة ، وله إحدى وثمانون سنة .[(٢)]

٤- شهاب الدين الشافعي :

هو شهاب الدّين أحمد بن محمّد بن أحمد الحريري الدّمشقي المعروف بالسلاوي الشافعي ولد سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة أو نحوها ، سمع من الإمام ابن كثير وآخرين ، كان صوته حسناً وقراءته جيدة توفي في صفر سنة ثلاث عشرة وثمانمائة .[(٣)]

٥- أحمد بن حجي :

هو شهاب الدين ابو العباس أحمد بن علاء الدين الحبّاني الدمشقي الشافعي ولد في المحرم سنة إحدى وخمسين وسبعمائة ، تخرج في علوم الحديث على ابن كثير وغيره ، من مصنّفاته الدارس من أخبار المدارس ، توفي رحمه الله في المحرم سنة ست عشرة وثمانمائة .[(٤)]

---

(١) المهراني : نسبة إلي مهران ، بالكسر ثم السكون ، وهو إسم نهر السند .

(٢) انظر انباء الغمر ٢/ ٢٧٥-٢٧٦ ، معجم الأعلام ص ٤١٠ ، وشذرات الذهب ٧/ ٥٥-٥٦ .

(٣) انظر شذرات الذهب ٧/ ١٠٠ ، والضوء اللامع المجلد الأول الجزء الثاني ص ٨١ .

ومراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع / صفي الدين البغدادي ، تحقيق وتعليق على محمد البجاوي ٣/ ١٣٣٨ ط (١) ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م دار احياء الكتب العربية .

(٤) المصدر السابق ٢/ ١١٧ - ١١٨ ، وانظر شذرات الذهب ٧/ ١١٦ - ١١٧ .

المطلب الثالث
مكانته العلمّية و ثناء العلماء عليه

أولاً : مكانته العلمية :

تتضح مكانة ابن كثير العلمية في المدارس التي تولى التدريس فيها ، والمساجد التي كان يلقي محاضراته فيها ، وكذلك في مؤلفاته وكتبه التي كتبها ، أما المدارس التي تولى التدريس فيها فهي :

- مدرسة دار الحديث الأشرفيّة .
- المدرسة الصالحيّة ، أو تربة أمّ الصّالح .
- المدرسة النجيبيّة .
- المدرسة التنكزيّة .
- المدرسة النوريّة الكبرى .

وهذه المدارس كانت مهبط أفئدة طلاب العلم في الشرق والغرب ، لما يدّرس فيها من علوم ولمكانة شيوخها وأستاذتها ومنزلتهم العلمّيّة ، إذ لا يتولى التدريس فيها إلا من كان ذا قدم راسخ في العلم ومكانة بين العلماء ، كسلطان العلماء العز بن عبد السلام ، وشيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ المزي والذهبي عليهم رحمة الله جميعاً ، أما الدروس فكان يلقيها في عدد من مساجد دمشق المهمّة كالأموى ، وتنكز ، والجامع الفوقاني ، وكان يقوم بالقاء الخطب فيه .[1]

ومما يظهر مكانة ابن كثير العلمية هي مؤلفاته ، وعلى رأسها كتاب التفسير جمع فيه بين التفسير والتأويل ، والرواية والدراية ، مع العناية التامّة بذكر الأسانيد ، ونقد الرجال ، والجرح والتعديل واستيفاء الآيات وتفسير القرآن بالقرآن ، مع حسن البيان ، وعدم التعقيد ، وعدم التشعيب في المسائل والاستطراد الكثير[2] .

---

(١) انظر تحفة الطالب ص ٢٩ .

(٢) انظر الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير / د. محمد أبو شهبة ص ١٢٩ مكتبة السنة القاهرة ط (٤) ١٤٠٨هـ .

ثانياً : ثناء العلماء عليه :

قال شيخه الذهبي : "الإمام المفتي ، المحدث البارع ، فقيه متفنن ، محدث متقن ، ومفسر نقاد".[1]

وقال ابن حبيب : "إمام روي التسبيح والتهليل ، وزعيم أرباب التأويل ، سمع ، وجمع وصنف ، وأطرب الأسماع بالفتوى ، واشتهر بالضبط والتحرير".[2] وقال العيني : "كان قدوة العلماء والحفّاظ ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ ، وسمع ، وجمع ، وصنف ، ودرس ، وحدث وألّف وكان له إطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ ، واشتهر بالضبط والتحرير وانتهى إليه علم التاريخ والحديث والتفسير ، وله مصنفات عديدة مفيدة رحمه الله".[3] وقال ابن حجي : "أحفظ من أدركناه لمتون الحديث ، وأعرفهم بجرحها ورجالها ، وصحيحها وسقيمها ، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك وماأعرف أني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلاّ استفدت منه".[4] وقال ابو المحاسن الدمشقي : "الشيخ الامام ، العالم الحافظ ، المفيد البارع عماد الدين ابو الفداء ، أفتى ودرّس ، وناظر وبرع في الفقه والتفسير والنحو ، وأمعن في الرجال والعلل".[5] وقال ابن العماد الحنبلي : "كان كثير الإستحضار ، قليل النسيان جيد الفهم ، يشارك في العربية ، وينظم نظماً وسطاً".[6]

---

(١) انظر الدرر الكامنة ١/٣٧٤ - دار الجيل ، وشذرات الذهب ٦/٢٣١ .

(٢) انظر شذرات الذهب ٦/٢٣١ .

(٣) انظر النجوم الزاهرة ١١/١٢٣ .

(٤) انظر شذرات الذهب ٦/٢٣١ .

(٥) انظر تحفة الطالب ص ٣٣ .

(٦) انظر شذرات الذهب ٦/٢٣١ .

المطلب الرابع
مؤلفاته ووفاته

أولاً : مؤلفاته :

ربت مؤلفات الإمام ابن كثير على الستين مؤلفاً ، وجلّها مابين مفقود ومخطوط ، وسنبين ماهو مطبوع من كتبه أو مخطوط .

أولاً : المطبوع منها[1] :-

١- تفسير القرآن العظيم .

٢- الاجتهاد في طلب الجهاد .

٣- أحاديث التوحيد والرد على أهل الشرك .

٤- اختصار علوم الحديث .

٥- البداية والنهاية .

٦- سيرة عمر بن العزيز .

٧- الفصول في اختيار سيرة الرسول .

٨- فضائل القرآن .

٩- مولد الرسول ﷺ .

١٠- تحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر بن الحاجب .

١١- جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن .

ثانياً : غير المطبوع منها [2]:

١- آداب الحمّامات .

٢- الأحكام الكبير .

٣- ارشاد الفقيه إلى أدلة التنبيه .

٤- التكميل في معرفة الثقات والضعفاوالمجاهيل .

٥- رسالة في أحاديث الإشراك .

---

(١) تحفة الطالب ص ٣٥ - ٣٦ .

(٢) المصدر السابق .

٦- شعب الإيمان .

٧- طبقات الفقهاء الشافعيّين .

٨- كتاب العقائد .

٩- مسند الفاروق .

١٠- الواضح النفيس في مناقب ابن إدريس .

أما الكتب والأجزاء التي ذكرها في بعض مصنفاته كالتفسير ، والبداية والنهاية ، فهي كثيرة جداً .

ثانياً : وفاته :

وبعد هذا الجهد الجهيد ، والعمل المتواصل الدؤوب ، أربعة وسبعين عاماً قضاها في طاعة الرحمن في التعلم والتعليم ، والصبر والمصابرة ، حتى كلّ جسده وضعفت قواه ، وفقد بصره بعد أن أدى ماعليه في هذه الدنيا ، ألفّ كتباً وخرّج أجيالاً ، ونصح الأمّة .

وبعد فلابد للإنسان من رحيل فـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ .[(١)] لتوفى النفوس أعمالها وتعطى للناس أجورها كاملة غير منقوصة ، ويوفّي الصابرون أجرهم بغير حساب ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .[(٢)]

ففي يوم الخميس السادس والعشرين من شهر رجب سنة أربع وسبعين وسبعمائة ودّعت دمشق إمامها وخطيبها وحافظها أبو الفداء إسماعيل ، ابن عمر بن كثير القرشي إلى رضوان الله تعالى حيث المستقر الدائم ، والحياة السرمديّة ، ودفن بجوار شيخه ومحبه شيخ الإسلام ابن تيمية عليهما من الله شأبيب الرحمة والرضوان .[(٣)]

ولقد رثاه أحد طلبته فقال :

لفقدك طلاب العلم تأسفوا *** وجادوا بدمع لا يبيد غزيز

ولو مزجوا ماء المدامع بالدّما *** لكان قليلاً فيك يابن كثير(٤)

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨٥ .

(٢) سورة الزمر آية ١٠ .

(٣) مقتبس من تحفة الطالب ص ٣٨ ، وانظر وفاته في النجوم الزاهرة ١١/١٢٣ الردّ الوافر ص ١٥٤ ، وشذرات الذهب ٦/٢٣١ ، والدرر الكامنة ١/٣٧٤ طبعة دار الجيل .

(٤) النّجوم الزاهرة ١١/١٧٤ .

الفصل الثاني

القضايا العقدّية في دراسة الإمام ابن كثير

ويشتمل على سبعة مباحث

المبحث الأول : أدلّة الإمام ابن كثير في تقرير مسائل العقيدة.

المبحث الثاني : قضايا الإيمان والكفر .

المبحث الثالث : الإلهيّات في دراسة الإمام ابن كثير.

المبحث الرابع : موقفه من قضيّة التأويل .

المبحث الخامس : الكونيّات في دراسة الإمام ابن كثير.

المبحث السادس : في علاقة العبد بربّه .

المبحث السابع : الغيبيّات في دراسة الإمام ابن كثير.

المبحث الأول

أدلة الإمام ابن كثير في تقرير مسائل العقيدة وفيه خمسة مطالب

المطلب الأول : القرآن الكريم .

المطلب الثاني : السنّة النبويّة .

المطلب الثالث :أقوال الصحابة .

المطلب الرابع : أقوال التابعين .

المطلب الخامس : إجتهاده .

المطلب الأول
القــرآن الكـريم

عـرّف العلماء القرآن الكريم بأنه «كلام الله تعالى المنزّل على محمد ﷺ المتعبد بتلاوته» .

«فالكلام» جنس في التعريف ، يشمل كل كلام ، وإضافته إلى الله تعالى يخرج كلام غيره من الإنس والجنّ والملائكة .

«والمنزّل» يخرج كلام الله تعالى الذي استأثر به سبحانه ، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [(١)] .

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [(٢)] .

وتقييد المنزل بكونه على «محمد ﷺ» يخرج ما أنزل على الأنبياء قبله كالتوراه والانجيل وغيرهما .

«والمتعبد بتلاوته» يخرج قراءات الآحاد ، والأحاديث القدسية ، لأنّها لا تقرأ في الصلاة [(٣)]

وبعد أن عرّفنا القرآن الكريم ، وأردنا أن نلقي الضوء على أدلّة الإمام ابن كثير في تقرير مسائل العقيدة ، فإنّ أول دليل عنده هو القرآن الكريم،وإنّ الناظر لأول وهلة على منهجيّة الإمام ابن كثير في تقريره لمسائل العقيدة ليتأكد بشكل قاطع أنّها منهجيّةً قائمة على أصول سليمة صحيحة خالية من العيوب لا ترتقي إليها منهجيّة إلا تلك التي قامت على أصول سليمة مثلها .

وأول أصل قامت عليه منهجيّة الإمام ابن كثير في تقريره لمسائل العقيدة السليمة ، أو حتى إبطاله للعقائد الفاسدة ، هو القرآن الكريم باعتباره كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وذلك ليس إلاّ لإحقاق الحق أو دحض مزاعم

---

(١) سورة الكهف الآية (١٠٩) .

(٢) سورة لقمان الآية (٢٧) .

(٣) مباحث في علوم القرآن /منّاع القطان ص ٢١ ، مؤسسة الرسالة (ط -١٤) ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

المخالفين من أصحاب الأهواء والمغرضين وماأكثرهم ! فإنّه عندما يواجه أحدهم بالدليل من الكتاب الكريم فإن ذلك يعتبر سداً منيعاً في مواجهة فلسفاته الفارغة أو محاولاته اليائسة حتى إذا أبى إلاّ الفلسفة والمجادلة ، تبيّن لكل المهتمّين بهذا الجانب أنّه ليس إلاّ مجادلاً مراء فيترتب على ذلك عدم الاكتراث به وبما يقول ، كل ذلك بفضل هذه المنهجيّة السليمة التى لايستطيع مواجهتها الخرافات ولا الخزعبلات ، وللتدليل على مانقول نود استعراض بعض من القضايا التى طبق فيها ابن كثير منهجيته ، فها هو يؤكد على أنّ صفات الله تعالى صفات كمال كلّها ويستدل على ذلك بقوله تعالى في سورة الإخلاص : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (١) .

ومن خلالها قرر أن الله تعالى هو الواحد الأحد ، الذي لا نظير له ، ولا شبيه ، ولا وزير و لانديد ولاعديل ، وفي إنكاره على المشركين الذين يتخذون من دون الله أنداداً ، يقرر أن هذه الآلهة مخلوقة لله ، مربوبة ، مصنوعة ، لا تسمع ولا تبصر ، بل إنّ عابديها أكمل منها بسمعهم وبصرهم ، فكيف يعبد صاحب الشأن ما هو أقلّ منه شأناً ، وأورد قول الله تعالى : ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿... إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٣) .

وفي مسألة عدم الحكم بما أنزل الله اعتبر الإمام ابن كثير ذلك كفراً واستدل بقوله الله تعالى ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٤) .

وسيأتي بسط القول في ذلك إن شاء الله .

وهكذا في كلّ مسألة نجد الإمام ابن كثير يستند أوّل مايستند الى كتاب ربنا عزّ وجلّ ، فإن وجد مراده فبها ونعمت وإن لم يجده اتجه إلى السنّة النبويّة كما سنرى في المطلب الثاني .

---

(١) سورة الإخلاص .

(٢) سورة الأعراف الآية (١٩١) .

(٣) سورة الحج الآيتان (٧٣-٧٤).

(٤) سورة المائدة الآية (٥٠) .

المطلب الثاني
السنّة النّبوية

عرّف العلماء السنّة النبّوية فقالوا :

«هي مارفع إلى النبّي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلقيّة أو خُلقيّة».[1]

فالقول : كالحديث الذي رواه مالك بن الحويرث[2] - رضي الله عنه - قال :قال رسول الله ﷺ : «إذا حضرت الصلاة فأذنا وأقيما ، وليؤمكما أكبركما وصلّوا كما تروني أصلّي »[3]

والفعل : كمناسك الحجّ والعمرة التي كان يقوم بها ﷺ .

والتقرير : كإقراره خالد بن الوليد في أكله للضب على مائدته ﷺ في الوقت الذي عافته فيه نفسه ، وكإقراره الذين صلّوا العصر في حينه ، والذين صلّوه بعد وصولهم وقد خرج وقته في غزوة بني قريظة .

والصفة الخَلقيّة : فقد وصف ﷺ أنّه لم يكن بالطويل ولا بالقصير، أدعج العينين ، عريض المنكبين .

والصفة الخُلقيّة : كقول عائشة -رضي الله عنها-:«فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن».[4]

وقد اتفق علماء المسلمين على أن السنّة واجبة الإتباع وهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم .

---

(١) انظر علوم الحديث ومصطلحه / د. صبحي الصالح ص ٣ ط (١) دار العلم للملايين ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م .

(٢) هو مالك بن الحويرث بن أشيم الليثي ، يكنى أبا سليمان ، وهو من أهل البصرة ، قدم على النبي ﷺ في شبية من قومه ، فعلّمهم الصلاة ، وأمرهم بتعليم قومهم إذا رجعوا إليهم ، توفي بالبصرة سنة أربع وتسعين . أنظر أسد الغابة في معرفة الصحابة -لعز الدين ابن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري ٥/ ٢٠ تحقيق محمد البنا ، محمد عاشور ط - دار الشعب .

(٣) مسند الإمام أحمد ٥/٥٣ - ط ، دار صادر ، وبنحوه في سنن الدرامي ١/ ٢٣٠ كتاب الصلاة باب من أحق بالامامة حديث رقم ١٢٥٦ ط -٢ دار الدعوة استانبول ، دار سحنون تونس .

(٤) صحيح مسلم ١/٥١٣ كتاب صلاة المسافرين باب جامع صلاة الليل حديث رقم ١٣٩ ، ط دار الفكر وسنن ابي داوود ٢/٨٨ ، كتاب التطوع باب في صلاة الليل ، حديث رقم ١٣٤٢ ط دار الدعوة - استانبول ، ودار سحنون - تونس .

وقد جاء في كثير من آيات القرآن الكريم أمر من الله سبحانه بطاعة الرسول ﷺ ، وجعل طاعته من طاعته ، فقال عزّ من قائل :

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ .(١)

وقال تعالى : ﴿... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا...﴾ (٢).

وذلك لأن القول المأخوذ عن النبي ﷺ إنما هو وحي .

قال تعالى : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ .(٣)

ومن الفروق التي وضعها العلماء بين القرآن الكريم والسنّة النبويّة قولهم : إنّ كليهما من عند الله تعالى ، سوى أن القرآن هو من عند الله تعالى بلفظه ومعناه ، أما السنّة فالمعنى من عند الله عز وجل واللفظ للرسول ﷺ ، لذا فإن الإمام ابن كثير - رحمه الله - من الذين اهتمّوا بالسنّة النبوية أيّما اهتمام ، فنجده في إثباته لأسماء الله عز وجل بعدما أورد الأدلّة عليها من القرآن الكريم يتجه إلى السنّة فيورد حديث عثمان - رضي الله عنه - فيقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول :" ما من عبد يقول في صباح كل يوم ، ومساء كل ليلة بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شئ في والأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات فيضرّه شئ » ، وفي إثبات الصفات ، ففي صفة الحياء يورد حديث سلمان - رضي الله عنه(٤) - عن النبي ﷺ قوله : إن الله حييّ كريم يستحيي إذا رفع العبد إليه يديه أن يردّهما صفراً حتى يضع فيها خيراً » .(٥)

---

(١) سورة النساء الآية (٦٥) .

(٢) سورة الحشر الآية (٧) .

(٣) سورة النجم الآيتان (٣-٤) .

(٤) هو سلمان أبو عبدالله الفارسي ، ويقال له : سلمان الإسلام ، وسلمان الخير ، أصله من رام هرمز ، كانت أوّل مشاهده الخندق ، وشهد بقيّة المشاهد ، كان زاهداً عالماً ، آخى الرسول ﷺ بينه وبين أبي الدرداء ، كان إذا خرج عطاؤه تصدق به ، وكان ينسج الخوص ، ويأكل من كسب يده توفي - رضي الله عنه - سنة ثلاث أو ثنتين وثلاثين . انظر الإصابة ٣/١١٣-١١٤ .

(٥) بنحوه في سنن أبي داود ٢/١٦٥ كتاب الوتر ، باب الدعاء ، حديث رقم ١٤٨٨ ، وسنن ابن ماجه ٢/١٢٧١ ، كتاب الدعاء ، باب رفع اليدين في الدعاء ، حديث رقم ٣٨٦٥ ، ط دار الدعوة - إستانبول - ومسند الإمام أحمد ٥/٤٣٨ .

وفي رؤية الله عز وجل أورد حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «إنّكم سترون ربكم عياناً» .

وماوقف الإمام ابن كثير - رحمه الله - هذا الموقف من السنّة إلاّ لأهميّتها البالغة ، فهي إمّا أن تأتي موافقة للقرآن الكريم ، أو مفسّرة لمبهمه ، أو مفصّلة لمجمله ، أو مقيّدة لمطلقه ، أو مخصّصة لعامّه .

حتى إذا بينّا موقف الإمام ابن كثير - رحمه الله - من السنة المطهرة نتجه الآن إلى موقفه من أقوال الصحابة - رضوان الله عليهم - لنرى رأيه في ذلك .

المطلب الثالث
أقوال الصحابة

تعريف الصحابي عند المحدثين :

هو من لقي النبيّ ﷺ مؤمناً به ومات على الإسلام ، فمناط ثبوت الصحبة عند المحدثين بمجرد اللقاء المصحوب بالإيمان والثبات عليه ، فلا تشترط في الصحبة الرّواية عن الرسول ﷺ ولا الغزو معه ولا الإقامة مدة معيّنة ، فمن لقي الرسول ﷺ وهو مؤمن به وبقي على إيمانه كان صحابياً ، سواء روى عنه أو لم يرو ، غزا معه أو لم يغز أقام معه أو لم يقم ، أبصره أو لم يبصره ، فعبد الله بن أم مكتوم[1] - رضي الله عنه - لم يبصر النبي ﷺ .[2]

ومما تقدم تتضح أهميّة الأخذ بقول الصحابي ، لذلك كان المفسر إن لم يجد مراده في القرآن ولا في السنة ، رجع إلى ماصح من أقوال الصحابة لما لهم من الفهم الثاقب والعلم الصحيح ولما شاهدوه من الأحوال والقرائن ، وهذا الذي فعله الإمام ابن كثير - رحمه الله تعالى - ، فقد أورد قول ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿... اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾[3] « أن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضةً إلاّ جعل لها حداً معلوماً ، ثم عذر أهلها في حال العذر أمّا الذكر فإن اللّه تعالى لم يجعل له حداً ينتهي إليه ... »[4].

وأورد - رحمه الله تعالى - مافعله معاذ بن عمرو بن الجموح[5]

---

(١) هو عبد الله بن أم مكتوم ، ويقال عمرو ، وهو بن قيس بن زائدة بن الأصمّ ، كان من المهاجرين الأوّلين ، قدم المدينة قبل أن يهاجر النبي ﷺ ، روى عن النبي ﷺ وكان يستخلفه على المدينة انظر سير أعلام النبلاء ١/ ٣٦٠ ، وانظر الاصابة في تمييز الصحابة / العسقلاني ٤/ ٢٨٤ - ط دار الكتب بيروت .

(٢) انظر أصول الفقه /محمد زكريّا البرويسي ص ٣٤٧ ، دار الثقافة ١٩٨٣م .

(٣) سورة الأحزاب الآية (٤١) .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٩٥ .

(٥) هو معاذ بن عمرو بن الجموح الخزرجي ، شهد العقبة وبدراً ، وهو أحد من قتل أبا جهل ضربه عكرمة بن أبي جهل فقطع يده فبقيت معلقة حتى تمطى عليه فألقها وقاتل بقيّه يوم ثم بقي بعد ذلك دهراً حتى مات في زمن عثمان - رضي الله عنه - . انظر الإصابة ٦/ ١٠٩ .

ومعاذ بن جبل[1] - رضي الله عنهما - بأصنام المشركين من تكسير وإتلاف واتخاذها حطباً للأرامل ، وماكانا يفعلانه بصنم عمرو بن الجموح [2] من تكسير لرأسه وتلطيخ له بالعذره إلى أن كان ذلك سبباً في إسلام عمرو بن الجموح لمّا علم أنها آلهة باطلة حيث أنشد قائلاً :

تا الله لو كنت إلهاً مستدن *** لم تك والكلب جميعاً في قرن(٣)

ويأتي الحديث الآن عن أخذه - رحمه الله - بأقوال التابعيين بعد الكتاب والسنة ورأي الصحابة وهذا ما سنراه في المطلب الرابع .

---

(١) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الانصاريّ الخزرجيّ ، الإمام المقدّم في علم الحلال والحرام كان أبيض وضيئ الوجه برّاق الثنايا أكحل العينين ، كان من أجمل الرجال ، وشهد المشاهد كلّها روى عن النبي ﷺ ، وروى عنه ابن عباس وآخرون ، أرسله النبي ﷺ قاضياً إلى اليمن ، وقدم من اليمن في خلافة أبي بكر ، وكانت وفاته بالطاعون في الشام سنة سبع عشرة وعاش أربعاً وثلاثين سنة . المصدر السابق ٦/١٠٦-١٠٧ .

(٢) هو عمرو بن الجموح الأنصاري الخزرجي ، سيد بني سلمة ، قاتل يوم أحد حتى قتل وكان أعرجاً كفّن هو وعبد الله بن عمرو بن حرام في كفن واحد ، وكان السيل قد خرّب قبرهما ، فحفر عنهما ليغيّرا من مكانهما فوجدا أنّهما لم يتغيرا ، كأنما ماتا بالأمس . انظر سير أعلام النبلاء ١/٢٥٢- ٢٥٥ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/٢٧٦ .

المطلب الرّابع
أقـــــوال التابعين

معلوم أن التابعي هو الذي عاصر الصحابي مؤمناً بالإسلام ومات عليه .

وهـذه هي المرحلة قبل الأخيرة في أدلة الإمام ابن كثير في تقرير مسائل العقيدة فإنه إذا لم يجد مبتغاه في الكتاب والسنّة وأقوال الصحابة رجع إلى أقوال التابعين ، وإذا وجد مبتغاه في كل ماتقدم أورده - رحمه الله - وماذلك إلا زيادة في الإيضاح والتوثيق ، فنراه عند حديثه في إثبات صفة اليد لله سبحانه في قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[1] نجده يفسر اليد بالقوة وقال : « قاله ابن عباس ومجاهد[2] وقتادة[3] والثوري[4] » حيث قالوا : « أي جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً ، بأَيد:أي بقوة »[5] .

وفي قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[6] ، نقل قول الحسن البصري وغيره من السلف : «زعم قوم أنّهم يحبّون الله فابتلاهم الّله بهذه الآية»[7] .

---

(١) سورة الذاريات الآية (٤٧) .

(٢) هو الإمام مجاهد بن جبر ابو الحجاج المكي ، شيخ القرّاء ، والمفسرين ، روى عن ابن عباس وعنه أخذ القرآن ، والتفسير ، والفقه ، حدث عنه عكرمة ، وطاووس ، وعطاء ، وهم من أقرانه مات رحمه الله وهو ساجد سنة ١٠٢هـ . انظر تهذيب سير أعلام النبلاء ١٥٨/١ .

(٣) هو قتادة ابن دعامة بن قتادة بن عزيز ، حافظ العصر ، قدوة المفسرين ، والمحدثين ، ولد سنة ٦٠هـ روى عن أنس بن مالك ، وسعيد بن المسيب ، وأبي العالية رفيع الرياحي ، وغيرهم ، وروى عنه أئمة الإسلام أيوب السختياني وابن أبي عروبة والاوزاعي ، مات سنة ١١٧هـ .
المصدر السابق ١٩٣/١ .

(٤) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، أبوعبدالله الكوفي ، من ثور ، وثّقه غير واحد من العلماء ، فقالوا : سفيان أميرالمؤمنين في الحديث ، وقال آخرون : كان من سادات الناس فقهاً وورعاً ، واتقاناً ، وقال ابن حجر : ثقة ، حافظ ، فقيه ، عابد ، امام ، حجة ، مات سنة إحدى وستين ، وله أربع وستون . انظر تهذيب التهذيب ابن حجر العسقلاني ٩٩/٤ - ط(١) ١٤٠٤هـ دار الفكر ، تقريب التهذيب ٢١١/١ .

(٥) تفسير القرآن العظيم ٢٣٧/٤ .

(٦) سورة آل عمران الآية (٣١) .

(٧) تفسير القرآن العظيم ٣٥٨/١ .

هذه بإختصار منهجية الإمام ابن كثير بينّا فيها جعل الإمام ابن كثير - رحمه الله - أقوال التابعين مصدراً من مصادره في تقرير مسائل العقيدة .

وفيما يلى المرحلة الختامية في أدلة الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تقرير مسائل العقيدة ألا وهي اجتهاده - رحمه الله - .

المطلب الخامس
اجتهاده

يعتبر الإمام ابن كثير - رحمه الله - من كبار علماء الأمّة الإسلاميّة بلا ريب ، فهو يتمتع بملكة نقدية فاحصة سلطها على كل رواية لا تنسجم مع الأسس السليمة للعقيدة الصحيحة .

فإذا عرضت له مسألة لم يتعرض لها الكتاب ولا السنّة وليس لأحد من الصحابة أو التابعين رأي فيها نجد الامام بن كثير - رحمه الله - يسلط عليها ملكته الفاحصة فيقرّ منها ما يتفق مع النقل الصحيح ، والعقل السليم ، بل وأكثر من ذلك نجده يندد بالروايات المنكرة ، والاخبار الملفقة المختلقة التي تسيئ إلى العقيدة الإسلامية الخالية من العيوب ، فنجده مثلاً في قصة الغرانيق يتصدى لها وبحزم ، ويجزم أن طرق القصة كلّها مرسلات ومنقطعات [(١)] .

وفي قصة هاروت وماروت بيّن أن جميع الروايات راجعةٌ إلى أخبار بني إسرائيل وليس فيها حديث واحد مرفوع متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق ﷺ . [(٢)]

وفي نهاية المطلب آمل أن أكون قد بينت الإطار العام لمنهجيّة الإمام بن كثير في تقريره لمسائل العقيدة والتي بدأت بالقرآن الكريم وانتهت باجتهاده -رحمه الله -رحمة واسعة .

---

(١) انظر القصة ص (١٣٧) وما بعدها .

(٢) انظر ص (١٦٨) وما بعدها .

المبحث الثاني
قضايا الإيمان والكفر في دراسة
ابن كثير وفيه سبعة مطالب

أولاً : قضايا الإيمان : تعريف الإيمان .

المطلب الأول : كيفية الدخول في دين الله عز وجل .

المطلب الثاني : زيادة الإيمان ونقصه .

ثانياً : قضايا الكفر (نواقض الإيمان) تعريف الفكر.

المطلب الثالث : نقض توحيد الربوبية .

المطلب الرابع : نقض توحيد الأسماء والصفات .

المطلب الخامس : نقض توحي الألوهية .

المطلب السادس : الطعن في الرسول ﷺ .

المطلب السابع : عدم الحكم بما أنزل الله تعالى .

أولاً قضايا الإيمان

تعريف الإيمان :

الإيمان لغة :

مصدر آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن ، واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق .[1]

قال تعالى : ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ .[2]

أما في الاصطلاح :

فهو اظهار الخضوع والقبول للشريعة ، ولما أتى به النبي ﷺ واعتقاده وتصديقه .[3]

وقيل هو الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان ، قيل : من شهد وعمل ولم يعتقد فهو منافق ومن شهد ولم يعمل واعتقد فهو فاسق ، ومن أخل بالشهادة فهو كافر .

والإيمان يكون واحداً من خمسة أوجه :

إيمان مطبوع ، وإيمان مقبول ، وإيمان معصوم ، وإيمان موقوف وإيمان مردود .

فالإيمان المطبوع هو إيمان الملائكة ، والإيمان المعصوم هو إيمان الأنبياء ، والإيمان المقبول هو إيمان المؤمنين ، والإيمان الموقوف هو إيمان المبتدعين ، والإيمان المردود هو إيمان المنافقين .[4]

---

(١) لسان العرب ١٤١/١ مادة أمن - دار المعارف ، واحياء علوم الدين لحجّة الإسلام الامام ابي حامد الغزالي ١١٥/١ دار إحياء الكتب العربية .

(٢) سورة يوسف الآية (١٧) .

(٣) اللسان ١٤١/١.

(٤) التعريفات / السيد الشريف على بن محمد الجرجاني - تحقيق د. عبد الرحمن عميرة ص ٦٤ ط (١) ١٤٠٧هـ عالم الكتب .

المطلب الأول
كيفية الدخول في دين الله عز وجل

يعتبر الإنسان داخلاً في دين الله عز وجل إذا نطق بالشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ولئن سأل سائل فقال : ولكن أركان الإيمان أكثر من الإيمان بالله ورسوله ، كالإيمان بالملائكة والكتب والقضاء ... فكيف يكتفى بالشهادتين ليصبح قائلها من جملة المؤمنين [(١)].

والإجابة على ذلك : بأن الإيمان إيمانان :مجمل ومفصل .

فالإيمان المجمل : هو النطق بالشهادتين .

أما الإيمان المفصل : فهو الذي يشمل أركان الإيمان الأخرى ، فمن بلغه الإيمان المفصل ولم يؤمن بواحدة مما جاء فيه فلا يعتبر مؤمناً وأما من لم يبلغه فيكتفي بالإيمان المجمل ، ويعتبر من جملة المؤمنين .

ولكن الشهادة لا تكون شهادة إلاّ إذا كانت عن علم ويقين وصدق ، وأما مع الجهل والشك فلا تعتبر ولا تنفع ، فيكون الشاهد والحالة هذه كاذباً لجهله بمعنى الذي شهد به . [(٢)]

ومن هنا فإن كثيراً من الناس يخطئون في فهم أحاديث من قال لا إله إلا الله دخل الجنّة ، فيظنون أن التلفظ بها يكفي وحده للنجاة من النار ودخول الجنة ، وليس الأمر كذلك .

فإن حقيقة لا إله إلا الله : البراءة من كل معبود سوى الله ، والتعهد بتجريد كل انواع العبادة له وحده سبحانه وتعالى ، والقيام بها على الوجه الذي يحبّه ويرضاه ، فمن لم يقم بحقها من العبادة ، أو قام ببعض انواعها ثم عبد مع الله غيره كدعوة الأولياء والصالحين ، والنذر لهم، ونحو ذلك فإنه يكون هادماً لها ، فلا تنفعه دعواه ولا تغنى عنه شيئاً . [(٣)]

---

(١) انظر الفرقان بين اولياء الرحمن وأولياء الشيطان / لشيخ الإسلام ابن تيمية - تعليق عمرو فايد ص ٥٢ ط (٢) ١٣٧٨هـ مكتبة صبيح القاهرة ، وانظر اصول السرخسي أحمد بن سهل السرخسي ١/ ٢٣٥ ، دار المعرفة بيروت - ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

(٢) انظر قرة عيون الموحدين للعلاّمة الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ص ٣٢ - ط أنصار السنّة المحمديّة . باكستان .

(٣) انظر كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للمؤلف نفسه ط(٥) ١٣٩١هـ المكتبة السلفية .

وبناءً عليه فإن الإيمان الذي نعنيه ليس هو مجرد إعلان المرء بلسانه أنه مؤمن ، فما أكثر المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم ، ولم تؤمن قلوبهم .

قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ .[1]

وقال تعالى :﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ .[2]

قال الشهيد سيد قطب - عليه رحمة الله تعالى - في تفسير هذه الآية الكريمة «فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله ، التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب ، التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب ، ولا تهجس فيه الهواجس ، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور ، والذي ينبثق من الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله ، فالقلب متى تذوق حلاوة الإيمان ، واطمأن إليه وثبت عليه ، لابد مندفع لتحقيق حقيقته خارج القلب في واقع الحياة في دنيا الناس يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان ، وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة ، ولا يطيق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في حسه ، والصورة الواقعية من حوله ، لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة ، ومن هنا هذا الإنطلاق إلى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ، فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن يريد به أن يحقق الصورة الوضيئة التي في قلبه ، ليراها ممثلة في واقع الحياة والنّاس ، والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوره الإيماني وواقعه العملي وعدم استطاعته كذلك التنازل عن تصوره الإيماني الكامل الجميل المستقيم في سبيل واقعه العملي الناقص المنحرف الشائن .

فلابد من حرب بينه وبين الجاهليّة من حوله ، حتى تنثنى هذه الجاهلية إلى التصور الإيماني والحياة الإيمانية » .[3]

---

(١) سورة البقرة الآية (٨) .

(٢) سورة الحجرات الآية (١٥) .

(٣) في ظلال القرآن / سيد قطب ٣٣٤٩/٦ - ٣٣٥٠ ط (١٢) ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م دار العلم - جده .

ولمزيد من التدليل على ماتقدم نسوق هذه الأدلة :

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «أشهد أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله ، لايلقي الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنّة » .(١)

وعن عبادة - رضي الله عنه - (٢) قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله حرّم الله عليه النار» .(٣)

---

(١) صحيح مسلم ١/٥٥ كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً حديث ٤٤ وبنحوه في مسند الإمام أحمد ٥/٣١٨ .

(٢) هو عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي أبو الوليد ، شهد بدراً ، كان أحد النقباء بالعقبة آخى الرسول ﷺ بينه وبين أبي مرثد الغنوي روى عن النبي ﷺ كثيراً ، أول من ولي قضاء فلسطين ، مات ببيت المقدس رحمه الله تعالى . انظر الإصابة في تمييز الصحابة ٤/٢٧ .

(٣) صحيح مسلم ١/٥٨ كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة حديث رقم ٤٥ ط دار الدعوة ، ومسند الإمام أحمد ٥/٣١٨ .

المطلب الثاني
زيادة الإيمان ونقصه

اختلفت كلمة العلماء حول زيادة الإيمان ونقصه بين مثبت لها وناف، والراجح أن الإيمان يزيد وينقص .

ومن الأدلة التي تثبت ذلك ، الحديث الذي راوه أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطيع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .[١]

فقد نص على أن العمل باليد أو القول أو اللسان ، أو الاعتقاد بالقلب من الإيمان ، وأن الإيمان يزيد عند المرء حتي يدفعه إلى تغير المنكر بيده ، وينقص حتى أنّه لا يستطيع إنكار ذلك إلا بقلبه والكل من الإيمان .[٢]

ويرى الباحث : أنه مادام عبّر عن تغير المنكر بالقلب بأنّه أضعف الإيمان ، فإنه يفهم مقابلها بأن تغيير المنكر باليد هو أقوى الإيمان ، مما يدلل على أن هناك إيماناً قوياً وآخر ضعيفاً ، وقوة الإيمان ترادفها زيادة الإيمان ، في حين أن ضعف الإيمان يرادفه نقصان الإيمان والله تعالى أعلم .

قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ .[٣]

وقال تعالى : ﴿...وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ...﴾ .[٤]

وقال تعالى : ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ .[٥]

---

(١) صحيح مسلم ١/٧٩ كتاب الإيمان - باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد حديث رقم ١٧٩ .

(٢) انظر كتاب الإيمان للحافظ محمد بن اسحق بن يحيى بن منده - تحقيق د. على الفقيهي ٢/٣٤٤ ، ط(١) ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

(٣) سورة الفتح الآية (٤) .

(٤) سورة الأنفال الآية (٢) .

(٥) سورة التوبة الآية (١٢٤) .

وقال تعالى : ﴿... وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ...﴾ .[1]

ثبت بهذه الآيات أن الإيمان قابل للزيادة ، وإذا كان قابلاً للزيادة فعدمت ، كان عدمها نقصاناً .[2]

أما الامام ابن كثير-رحمه الله فانه من المثبتين لزيادة الإيمان ونقصه فقال عند قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ..﴾ .

أي الطمأنينة في قلوب المؤمنين يوم الحديبية الذين استجابوا لله ورسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم ايماناً مع ايمانهم [3]وعند قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ قال : زادتهم تصديقاً [4].

وكما هو معلوم أن التصديق هو أحد معاني الإيمان .

ومن أكبر الدلائل واوضحها في رأي الامام بن كثير حيال هذا الموضوع ماقاله عند قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ .

« وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء بل قد حكى غير واحد الاجماع على ذلك »[5].

وبمثل ماتقدم قال عند قوله تعالى : ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ « أي إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم محمد ﷺ »[6]

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ :

« أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخيارهم خيارهم لنسائهم » .[7]

---

(١) سورة المدثر الآية (٣١) .

(٢) انظر الجامع لشعب الإيمان للإمام الحافظ ابي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق د. عبد العلي حامد ١/ ١٦٠ ط (١) ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، الدار السلفية بومباي .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٨٤ .

(٤) المصدر السابق ٢/ ٢٨٥ .

(٥) المصدر السابق ٢/ ٤٠٢ .

(٦) المصدر السابق ٤/ ٤٤٤ .

(٧) سنن ابي داود ٥/ ٦٠ كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، حديث رقم ٤٦٨٢ و مسند الإمام أحمد ٢/ ٢٥٠ .

ويرى الباحث أنه يفهم مماسبق أن صاحب الخلق الحسن يكون كامل الإيمان ، وذلك يعني أن صاحب الخلق السيئ يكون ناقص الإيمان .

وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «يامعشر النساء تصدقن وأكثرن الإستغفار ، فإني رأيتكن أكثر أهل النار» قالت امرأة منهن وما لنا يارسول الله ؟ قال : «تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، ومارأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي اللب منكن» ، قالت يارسول الله : وما نقصان العقل والدين ؟ قال : «أما نقصان العقل فشهادة امراتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل ، وتمكث الليالي ماتصلي ، وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدّين » .(1)

ومن مذهب أهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ومعرفة ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

ولقد سئل الامام أحمد بن حنبل - رحمه الله - عن الإيمان في معنى الزيادة والنقصان فقال : «الإيمان يزيد وينقص» قيل : وما زيادرته وما نقصانه ؟ قال «إذا ذكرنا الله فحمدناه سبحانه فتلك زيادة وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا فذلك نقصانه»(2) .

ونختم هذه المسألة بقول ابن عمر - رضي الله عنه - : «إن للقلوب لنشاطاً وإقبالاً ، وإن لها توليةً وإدباراً ، فحدثوا الناس ما أقبلوا عليكم »(3) .

فإقبال القلوب ونشاطها يعنى زيادة إيمانها ، وتوليها وإدبارها يعنى نقصان الإيمان فيها .

---

(1) فتح الباري ٤٠٥/١ كتاب الحيض باب ترك الحائض الصوم - حديث رقم ٣٠٤ .
صحيح مسلم ٨٦/١ كتاب الإيمان باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات ، حديث ١٣٢رقم ط دار الفكر .

(2) انظر مجموعة الرسائل الكمالية في التوحيد - الرسالة الثالثة - عقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني ص ١٠١ .

(3) سنن الدارمي ٩٨/١ ، المقدمة ، حديث رقم ٤٥٤ ، ط دار سحنون - تونس .

ثانياً : قضايا الكفر (نواقض الإيمان)

تعريف الكفر :

الكفر في اللغة :

أصل الكفر تغطية الشئ تغطية تستهلكه ، وكل من ستر شيئاً فقد كفره ، والكافر الزارع لستره البذر في التراب .[1]

ومنه قوله تعالى : ﴿... كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ...﴾ .[2]

أما في الاصطلاح :

فهو نقيض الإيمان ، وهو إنكار شئ مما جاء به النبي ﷺ ووصل إلينا بطريق يقينيّ قاطع ومن كفر بشئ مما يجب الإيمان به ، يسمّى كافراً .

وقد يطلق الكفر على غير الكفر بالله تعالى ككفر النعمة .[3]

قال تعالى : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ .[4]

وهذا النوع من الكفر لا يخرج من الملّة ، وليس هو مجال بحثنا هنا انما نبحث في الكفر الإعتقادي المخرج من الملّة .

قال الإمام الطحاوي[5] - رحمه الله - : «ونسمّي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ماداموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين ، وله بكل ما قاله وأخبر عنه مصدقين ... ولا نكفر أحداً من أهل

---

(١) لسان العرب ٥/٣٨٩٨-٣٨٩٩ ، دار المعارف .

(٢) سورة الحديد الآية (٢٠) .

(٣) انظر المفردات في غريب القرآن / أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني تحقيق محمد سيد الكيلاني ص ٣٣٦ -٣٣٧ المكتبة المرتضوية - طهران .

(٤) سورة إبراهيم الآية (٣٤) .

(٥) هو الإمام العلامة أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة ... المصري الطحاوي صاحب ، التصانيف من أهل قرية طحان من أعمال مصر ولد سنة ٢٣٩هـ ، برز في علم الحديث ، والفقه ، وتفقه بالقاضي أحمد بن عمران الحنفي ، توفي رحمه الله سنة ٣٢١هـ . انظر تهذيب سير أعلام النبلاء ٢/٦٢ .

القبلة بذنب ما لم يستحلّه ... ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه»[(١)].

وقديماً قيل : الكفر والإيمان متقابلان إذا زال أحدهما خلفه الآخر .

مما سبق يتضح لنا أن الشارع الحكيم قد جعل للإيمان مدخلاً يلج منه اراد ، فمن ولج من باب الإيمان لا يخرجه منه إلاّ أن يصدر عنه قول أو عمل أو اعتقاد يناقض إقراره السابق .

ومعلوم أن شهادة أن لا إله إلاّ اللّه تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة ألا وهي : توحيد الربوبيّة توحيد الألوهية ، توحيد الأسماء والصفات وشهادة أن محمّداً رسول الله معناها الإقرار والتصديق بكل ماجاء به محمد ﷺ .[(٢)]

ويعتقد أهل السنة أن المؤمن وإن أذنب ذنوباً كثيرة صغائر وكبائر فإنه لا يكفر بها ، وإن خرج من الدنيا غير تائب منها ومات على التوحيد والإخلاص فإن أمره إلى الله عز وجل إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة وإن شاء عذبه مدّة بعذاب النار ، وإذا عذبه لم يخلده فيها ، بل يعتقه ويخرجه منها إلى نعيم دار القرار .[(٣)]

فعن أبي ذر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله عز وجل : «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد ، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر ومن تقرب

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية الصفحات ٣٥٠-٣٥١-٣٧٢ / ابن أبي العز الحنفي ط (٨) ١٤٠٤هـ - ١٩٩٤م المكتب الإسلامي - بيروت ، .

(٢) انظر الإيمان أركانه ، حقيقته ، نواقضه/ د. محمّد نعيم ياسين ص ٢٣٣- ٢٣٤ ، ط (٤) ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م - مكتبة الرسالة - عمان .

(٣) انظر مجموعة الرسائل الكمالية رقم ٣ ص ١٠٣- ١٠٤ ،أبو جعفر الطحاوي - مكتبة المعارف ومعارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد / حافظ بن أحمد الحكمي ط٢/٢٨٦-٣٨٧ ط (١) ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م - دار الكتب العلمية - بيروت .

مني شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب منّي ذراعاً تقربت منه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة ...»[1]

---

(١) صحيح مسلم ٢٠٦٨/٤ كتاب الذكر ، باب فضل الذكر والدعاء حديث رقم ٢٢ ط . دار الفكر وبنحوه في مسند الإمام أحمد ١٤٨/٥ .

المطلب الثالث
نقض توحيد الربوبيّة

الربّ في أصل اللغة : التربية ، وهو إنشاء الشئ حالاً فحالاً إلى حدّ التمام ، يقال : ربه وربّاه ، وربيه ، وقيل : لأن يربني رجل من قريش ، خير من أن يربّني رجل من هوازن .

ولايقال الربّ مطلقاً : إلاّ لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات نحو قوله تعالى : ﴿...بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ .[1]

وعلى هذا قال :﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً...﴾ [2] أي آلهة[3]

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية :

«أي ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله ، لانبي ولا رسول ، ولا ملك مقرب» .[4]

وبالإضافة يقال له ولغيره نحو﴿رَبِّ العَالَمِيْنَ﴾[5] و ﴿رَبُّكُم وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِيْنَ﴾.[6]

ويقال ربّ الدّار ، وربّ الفرس لصاحبها .[7]

أمّا في الإصطلاح : «فهو الإعتقاد بأن الله تعالى ربّ كل شئ ومليكه ، وخالق كل شئ ورازقه والمتصرف فيه وحده بمشيئته وعلمه وحكمته سبحانه ».[8]

ومن هنا يتبين أن للفظ الربّ عدّة معان إذا أضيف ،أما إذا أطلق فلا يطلق إلاّ على الله جلّ ثناؤه ، فهو المالك والخالق والرازق والمتصرف .

---

(١) سورة سبأ الآية (١٥) .

(٢) سورة آل عمران الآية (٨٠) .

(٣) انظر دلائل التوحيد / محمد جمال الدين القاسمي ، تعليق الشيخ خالد عبد الرحمن العك ص ٦٩-٧٠ ، ط ١٤١٢هـ -١٩٩١م دار النفائس .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣٧٧/١ .

(٥) سورة الفاتحة الآية (١) .

(٦) سورة الشعراء الآية (٢٦) .

(٧) دلائل التوحيد ص ٦٩-٧٠ .

(٨) الإيمان /محمد نعيم ياسين ص ١٤٦ .

وبناء على ماتقدم ، فإن أي قول أو اعتقاد فيه إنكار لهذه الخصائص الربّانيّة أو بعضها هو كفر وردّة ، فيدخل في هذا انكار الخالق ، أو ادعاء قدم العالم أو إسناد الفعل والتدبير إلى غير اللّه عزّ وجلّ ، كالصدفة ، والطبيعة ، أو أن يدّعى شخص لنفسه شيئاً من تلك الخصائص أو أن يدّعي لنفسه الربوبيّة فإن كل هذا كفر وردّة[1] .

---

(١) المصدر السابق ، وانظر كتاب الحسنة والسيئة / للامام العلامة تقي الدين بن تيمية ص ١٢٧ - دار الكتب العلمية .

المطلب الرابع
نقض توحيد الأسماء والصفات

يقوم هذا النوع من التوحيد - توحيد الأسماء والصفات - على أسس ثلاثة :

الأساس الأول : أن أسماء الله عز وجل وصفاته كلّها توقيفيّة ، لا يجوز اطلاق شئ منها على الله عزّ وجلّ في الاثبات أو النفي إلاّ بإذن من الشرع ، فلا نثبت لله سبحانه من الأسماء والصفات إلا ما أثبته هو سبحانه لنفسه ، أو أثبته له رسوله ﷺ،ولا ننفي كذلك عنه سبحانه من الأسماء والصفات إلاّ مانفاه هو سبحانه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ .

ومالم يصرّح الشرع بإثباته ، ولا بنفيه ، يجب التوقف فيه حتى يعلم ما يراد به ، فإن أريد به معنى صحيحاً ، موافقاً لما جاء به النص قبل ، وإلا وجب ردّه .

والأصل في ذلك أن معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته لاسبيل إلى إدراكها بالعقل وحده لأنّها من شئون الغيب التي لا تدخل في نطاق قدرتنا .

الأساس الثاني : أن الله عزّ وجلّ في كل ماثبت له من الأسماء والصفات لا يماثل شيئاً من خلقه ، ولا يماثله شئ .

لكن ليس معنى هذا أن مايطلق على الله عز وجل أو على صفاته من أسماء لا يسمّى بها غيره ،فقد يكون الاسم مشتركاً بينه وبين غيره ، أو بين صفته وصفة غيره ، ولكن هذا الإشتراك في الإسم لا يوجب مماثلة المخلوقين له فيما دلّت عليه هذه الأسماء .

والأصل في ذلك أن الله عز وجل يوصف بما يليق به ، ويوصف العباد بما يليق بهم .

الأساس الثالث : إن صفاته سبحانه صفات كمال كلّها وضابط ذلك أن كل كمال ثبت للمخلوق ، وأمكن أن يتصف به الخالق عزّ وجلّ ، كان الخالق سبحانه أولى به ، وكل نقص تنزه عنه المخلوق، فالخالق سبحانه أولى بالتنزّه عنه .[1]

---

(١) انظر دلائل التوحيد ص ٥٣-٥٦ .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ .[1] يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ، ولا وزير ، ولا نديد ، ولا شبيه ، ولا عديل ، ولايطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله عزّ وجلّ لأنّه الكامل في جميع صفاته وأفعاله .[2]

مماسبق يتبين لنا أن كفر الصفات نوعان :

الأول : كفر إثبات ، وهو إثبات أي صفة لله تعالى نفاها سبحانه عن نفسه أو نفاها عنه رسوله ﷺ ، كإثبات الولد له سبحانه وتعالى ، أو البنات ، أو الصاحبة ، أو السنة ، أو النوم أو الغفلة ، أو أي نقص من النواقص التي تعتري البشر .

الثاني : كفر نفي ، وهو نفي أي صفة من صفات الله سبحانه ، كنفي علمه الكامل ، أو قدرته ، أو حياته ، أو قيوميته ، أو سمعه ، أو بصره ، أو استوائه على العرش ، أو غيرها كماهو ثابت لله جلّ ثناؤه في الكتاب أو السنّة .

ويدخل فيه أيضاً تأويل صفات الله وأسمائه بما ينقصها أو يحدّ من كمالها كمن يقر بعلم الله ولكنه يدّعـى أنّه العلم الاجمالي ، وأن الله تعالى لا يعلم الجزئيات والتفصيلات .[3]

ويعتقد الباحث أن كل هذه الأمور تخرج صاحبها من دين الله عز و جل قولاً واحداً ، فلا يغسّل ولا يكفّن ولا يصلّى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين ، إنما يدفن مع المجوس واليهود والنصارى .

---

(١) سورة الإخلاص .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٧٠ .

(٣) انظر الإيمان /محمد نعيم ياسين ص ١٤٧ .

المطلب الخامس
نقض توحيد الألوهية

معنى توحيد الألوهيّة ، إفراد الخالق عزّ وجلّ بالعبادة ، وإخلاص الدين له وحده .

أو بمعنى أخر كما جاء في اتحاف السادة المتقين : الألوهيّة هي : «استغناء الإله عن كل ماسواه ، وافتقار كل ماعداه إليه ومن هنا فإن معنى لا إله إلا الله أنهّ لا مستغن عن كل ماسواه ، ومفتقر إليه كل ماعداه إلا الله» .(١)

وهذا النوع من التوحيد هو المقصد الأعظم من بعثه الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهو الذي وقع النزاع فيه بين الرسل وبين أممهم ، كما حكى ذلك القرآن الكريم .

قال تعالى :﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (٢)

وتكرر القول على لسان صالح وشعيب عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

وقال تعالى :﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٣)

وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما- قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» .(٤)

---

(١) اتحاف السادة المتقين ٢/١٧ .

(٢) سورة الأعراف الآية (٥٩) .

(٣) سورة الأنبياء الآية (٢٥) .

(٤) فتح الباري ١/٧٥ كتاب الإيمان ، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة ، حديث رقم ٢٥ ط. دار المعرفة ، وصحيح مسلم ١/٥٣، كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله حديث رقم ٣٦ .

كل هذا لأن المشركين في كل أمة كانوا يتخذون من دون الله أنداداً يشركونهم مع الله في العبادة ، ويعتقدون أنّ لهم فيها حقاً مع الله عز وجل ، وكانوا يعبدونهم على وجه التقرب بهم إلى الله .[1]

قال تعالى على لسانهم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ .[2]

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - عند تفسير قوله تعالى ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ .[3]

«هذا إنكار من الله على المشركين الذي عبدوا مع الله غيره من الانداد ، والأصنام ، والأوثان وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة ، لا تملك من الأمر شيئاً ، ولا تضر ، ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها ، بل هي جماد لا تتحرك ، ولا تسمع ولا تبصر ، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم .

ولو اجتمعت الهتهم كلها ما استطاعوا خلق ذبابة ، بل لو سلبتهم شيئاً من حقير المطاعم وطارت لما استطاعوا إنقاذه منها .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ .[4]

ولقد كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل - رضي الله عنهما - وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ، ويتخذانها حطباً للأرامل ليعتبر قومهما بذلك ، ويرتأوا لأنفسهم ، فكان لعمرو بن

---

(١) انظر دلائل التوحيد ص ٧٧-٧٨ .

(٢) سورة الزمر الآية (٣) .

(٣) سورة الأعراف الآية (١٩١) .

(٤) سورة الحج الأيتان (٧٣-٧٤) .

الجموح ، وكان سيداً في قومه - صنم يعبده ويطيعه ، فكانا - يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة - فيجيئ عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً . ويقول له : انتصر ، ثم يعودان لمثل ذلك ، ويعود إلى صنعه أيضاً ، حتى أخذاه مرةً فقرناه مع كلب حي، ودلياه في حبل ، في بئر هناك ، فلماجاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ماكان عليه من الدين باطل وقال .

تا الله لو كنت إلهـــاً مـــســـتـــدن *** لم تك والكلب جـمـيـعـاً في قــرن

ثم أسلم وحسن إسلامه ، وقتل يوم أحد شهيداً- رضي الله عنه- ، ولقد قص علينا القرآن الكريم قصة أبينا إبراهيم عليه السلام مع قومه عندما كسر أصنامهم».[1]

وعليه فإن التوحيد كما قال شارح العقيدة الطحاوية «هو أول دعوة الرسل وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عزّ وجلّ .[2]

والواقع أن نقض هذا النوع من أنواع التوحيد ، يدخل صاحبه في النوعين السابقين من الكفر لأن من يعترف لله سبحانه بأنّه الخالق لكل شئ والمدبر لكل شئ ، ويعترف له بجميع صفات الجلال ، والكمال ، يقتضيه ذلك أن يعترف له وحده دون غيره بالإلهية المطلقة .[3]

ومن هنا يمكننا القول أن توحيد الألوهيّة يشمل توحيد الربوبيّة وتوحيد الأسماء والصفات .

فمن نقض توحيد الألوهيّة كمن يعتقد أو يقول : إن الله سبحانه وتعالى لا يرجى ولايخشى ، أو لا يوجه إليه الدعاء أو لا يستعان به ، فإنّه يكون ناقضاً للنوعين السابقين من أنواع التوحيد .[4]

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/٢٧٦ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٧ .

(٣) الإيمان - محمد نعيم ياسين ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٤) المصدر السابق .

قال الامام ابن تيمية - رحمه الله - « وهذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين والمشركين وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة ، فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » .[1]

(١) الحسنة والسيئة ص ١٢٦ .

المطلب السادس
الطعن في رســــول الله ﷺ

شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ هي المكمّلة للشهادة ، التي من يقولها معتقداً بها يعتبر مسلماً .

وبناءً عليه يكفر من طعن في صدق رسول الله ﷺ ، أو أمانته أو عفته ، أو صلاح عقله ويكفر كذلك كل من سب الرسول ﷺ أو أستهزأ به أو استخف .[1]

قال تعالى : ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾ .[2]

إن الناظر لهذه الآية الكريمة لأول وهلة يرى أن اللّه تعالى قد وصف بالكفر الصراح من يستهزئ بالله تعالى وآياته أو رسوله ﷺ .

وقد أورد الإمام ابن كثير – رحمه الله – قصة أولئك النفر من المنافقين الذين قال قائلهم «ماأرى قراءنا هؤلاء إلاّ أرغبنا بطوناً ، وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء» ، ووصفهم بأنهم مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة .[3]

ويكفر كذلك من أنكر أمراً من الأمور التي أخبر بها ﷺ كالبعث والحساب والميزان والصراط وغيرها .

ويكفر أيضاً من جحد إرسال الرسل قبل محمد ﷺ ، أو جحد ماذكر من قصصهم مع أقوامهم .

ويكفر من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ ، أو صدّق من يدعيها لأن محمداً ﷺ هو خاتم النبيّين .[4]

---

(١) انظر الإيمان محمد نعيم ياسين ص ٢٤٣-٢٤٦ .

(٢) سورة التوبة الآيتان (٦٥-٦٦) .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/٣٦٧ .

(٤) انظر الإيمان محمد نعيم ياسين ص ٢٤٣-٢٤٦ .

المطلب السابع
عدم الحكم بما أنزل الله

قال تعالى : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .[1]

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية الكريمة :

«ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر وعدل إلى ماسواه من الآراء ، والأهواء ، والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية حيث كانوا يحتكمون إلى ضلالات وجهالات وضعوها بآرائهم وأهوائهم ، وكما احتكم التتار إلى الياسا الذي وضعه لهم ملكهم (جنكيز خان) وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والإسلامية ، وغيرها ، كما أن فيه كثيراً من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدّمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكّم سواه في قليل أو كثير .[2]

وقد سبق وأن بينّا طرفاً من شرائع الياسا في الصفحات الأولى من هذا البحث .

وباعتبار أن مسألة التكفير مسألة خطيرة في العقيدة الإسلامية كما يرى الباحث ، إذ أنّه يترتب عليها دخول النار وبئس القرار ، فإنه ينبغى الإحتياط فيها إلى أقصى درجات الإحتياط .

وعليه نريد أن نوضح هذه المسألة توضيحاً شافياً بإذن الله .

فكما هو واضح من قول الإمام ابن كثير السابق - رحمه الله - أنّه لم يفصّل القول في هذه المسألة ، واكتفى بقوله : «فمن فعل ذلك فهو كافر» .

حيث أنه قد يفهم منها أنّ الأمر على إطلاقه ، ويسند الأمر إلى الامام ابن كثير - رحمه الله - وليس الأمر كذلك فيما أعلم ، فإن الامام ابن كثير -رحمه الله - حسبي فيه أنه إمام فذ عالم ممن فتح الله عليهم ، وليس من السهولة بمكان أن تمر عليه هذه المسألة ، ومن هنا فإن مراد الامام ابن كثير - رحمه الله - أن من اعتقد عدم وجوب الحكم بما أنزل الله تعالى أو استهزأ

(١) سورة المائدة الآية (٥٠) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/٦٧ .

به ، أو قال بعدم صلاحه ورماه بالرجعية والتخلف ، وأنه لم يعد يواكب التقدم الحضاري كماهو شائع في هذا الزمان ، فهذا كفر قولاً واحداً .

وللتدليل على ما أقول أورد قول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الشأن حيث قال - رحمه الله - : «ولا ريب أن من يعتقد عدم وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر» .[1]

ويقول شارح العقيدة الطحاوية : «وهنا أمر يجب أن يتفطن له وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفراً ينقل عن الملّة ، وقد يكون معصية ، كبيرة أو صغيرة ، وذلك بحسب حال الحكم ، فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غيرواجب ، وأنه مخير فيه ، فهذا كافر ، وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله وعلمه في هذه الواقعة وعدل عنه ، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا عاص ... وإن جهل حكم الله فيها مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطأ فهذا مخطئ له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور» .[2]

---

(١) مجموعة التوحيد (وتشتمل على ٢٦ نسخة) شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب ص ١٩٣ - دار العروبة للطباعة قطر .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٢٣-٢٢٤ .

المبحث الثالث

الإلهيّات في دراسة ابن كثير

وفيه ستة مطالب

المطلب الأوّل : وحدانيّة الله تعالى والآيات الدالّة على وجوده في الآفاق وفي الأنفس .

المطلب الثاني : اسماء الله تعالى وصفاته .

المطلب الثالث : رؤية الله تعالى .

المطلب الرابع : موقف الإمام ابن كثير من قضية التأويل .

المطلب الخامس : الموازنة بين منهجي ابن كثير وابن تيمية في قضيّة التأويل .

المطلب السادس : قضاء الله وقدره وموقع الإنسان منه .

المطلب الأوّل
وحدانيّة الله تعالى والآيات الدّالة على وجوده في الآفاق وفي الأنفس

لقد ضرب الله تعالى في كتابه الكريم - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد - أروع الأمثلة وأقوى الأدلّة على وجوده سبحانه وتعالى ، لتكون حافزاً للإنسان على استخدام عقله في معرفة خالقه سبحانه وتعالى ، فقد وجهنا المولى عزّ وجلّ إلى النظر إلى أنفسنا وكيفية خلقها ، فقال عزّ من قائل : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] ، وقال جلّ شأنه ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ .[2]

كما وجهنا المولى عزّ وجلّ للتفكير والنظر ، والتأمل والتدبر في الكون ، ومافيه من شمس وقمر ، ونجوم وكواكب ، وليل ونهار ، وبحار وأنهار ، ونبات وجماد فقال جل ثناؤه : ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .[3]

ثم إن التأمل الذي دعانا إليه كتاب ربنا عزّ وجلّ هو تأمل صادق يصل بصاحبه إلى شاطئ السلامة وبر الأمان الذي أنزل مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ونظراً لأن هذه الجزئية من البحث تتحدث عن آيات الله في الآفاق وفي الأنفس انسجاماً مع قوله تعالى :﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .[4]

فإننا سنتحدث عن بعض آيات الله تعالى في كلّ على حدة .

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٢٠) .

(٢) سورة الطارق الآية (٥-٧) .

(٣) سورة يونس الآية (١٠١) .

(٤) سورة فصلت الآية (٥٣) .

أولاً : آيات الله تعالى في الآفاق

١ - السماء :

ورد لفظ السماء في القرآن الكريم ثلاث مائة وعشر مرات ، وهي في اللغة : اسم لكل ماعلا وارتفع ، وهو مأخوذ من السمو والعلو ، يقال سما ببصره أي : علا .(١)

«إنها آية من آيات الكون المفتوح ، تنطق بالحق ، الحق الذي تنكّر له أكثر الناس ، إنها بنيان مشيّد بلا عمد ، وسقف محفوظ بلا فطور ، وسمك مرفوع بلا فروج ، أفلم ينظروا إلى ما فيها من زينة وجمال ، وبراءة من الخلل والاضطراب » .(٢)

قال تعالى :﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (٣)

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - «يقول تعالى منبهاً للعباد على قدرته العظيمة التى أظهر بها ماهو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه - وهو الحق في الآية السابقة - في قوله تعالى :﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾(٤) وقوله (زيناها) أي بالمصابيح ومالها من فروج يعنى من شقوق » .(٥)

٢ - الأرض :

ذكرت الأرض في القرآن الكريم أربعمائة وست وخمسون مرة ، وهي السيّار الوحيد الذي جعله الله تعالى صالحاً للحياة ، فقربها من الشمس معتدل ، والحرارة التى تصل إليها معتدلة ، ودورتها اليومية معتدلة ، وكافية لإحداث ليل ونهار معتدلين صالحين للسعى والراحة ومن صفات الأرض ، انصداعها بالنبات قال تعالى : ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ .(٦)

---

(١) انظر نزهة الأعين والنواظر في علم الوجوه والنظائر لأبي الفرج بن الجوزي ص ٣٥٨ .

(٢) انظر رحلة القلب السليم في آثار رحمة الله عزّ وجلّ /محمد بن صفوك العلي ص ٢٣ مكتبة دار العليان ببريدة ، وانظر منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام /جمعه عبد العزيز ص ١٢٣ دار الدعوة ط(٢) ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

(٣) سورة ق الآية (٦) .

(٤) سورة ق الآية (٥) .

(٥) تفسير القرآن العظيم ٢٢٢/٤ .

(٦) سورة الطارق الآية (١٢) .

ومن صفاتها أنها خازنة للماء المنزل من السماء ، وإليه الاشارة في قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ...﴾ .(١)

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - :«أي جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض وأرساها بجبال راسيات شامخات وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون » .(٢)

فإذا تأملنا هذه الأرض ببحرها ويابسها ، بجبالها وأغوارها ، بوديانها وسهولها ... ظهر لنا من اتقانها ما يعرّفنا بوحدانيّة الصانع الحكيم الذي اتقن كلّ شئ فنزداد له حباً ، وبدينه تمسكاً وتطبيقاً .(٣)

٣- الماء :

قال تعالى :﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ .(٤)

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - « أي أصل كلّ الأحياء» .(٥)

فالماء إذن هو منّة كبرى من الله على بني الإنسان ولو اقتصرنا منه على أن الإنسان لو اضطر لشربه ثم منع منه، لهان عليه أن يبذل جميع مايملكه من خزائن الدنيا لو ملكها،والناس في غفلة عن هذا .

٤- الرياح (الهواء) .

الريح هو الهواء المتحرك ، والنسيم المنعش، الذي نعيش عليه ، وتعيش عليه جميع المخلوقات البريّة ، خلقه الله عزّ وجلّ بقدرته ، ولولاه لهلك الناس جميعاً والأنعام ، فهو بالنسبة لهم كالماء لمخلوقات البحر ، والهواء مؤلف من انواع كثيرة منها الأوكسجين بنسة ٢١٪ ، ومنها النيتروجين بنسبة ٧٨٪ ومن بعض الغازات الأخرى .

وهذه النسبة ثابتة فلو زادت لا حترقت زروعنا وغاباتنا ، ولو نقصت لاختنقنا . ومن حكمة الله - عزّ وجلّ - في الخلق أن النبات مفتقر في حياته وغذائه وتكوين ثماره إلى الكربون ولا يستطيع أن يتناوله من الطبيعة مباشرة ولكن يتناوله عن طريق ثاني أكسيد الكربون فجعل الله عزّ وجلّ بين الإنسان والنبات مبادلة نافعة .

---

(١) سورة الرعد الآية (٣) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٠٠ .

(٣) انظر رحلة القلب السليم ص ٣٧ ، ومنهج القرآن ص ١٢٤ .

(٤) سورة الأنبياء الآية (٣٠) .

(٥) تفسيرالقرآن العظيم ٣/ ١٧٧ .

فالإنسان عندما يتنفس يطرح السموم القاتلة مع الزفير ليعيش عليه الشجر ، ويتنفّس الشجر فيطرح الأوكسجين ليعيش عليه الإنسان ، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شئ .[1]

٥ - الجبال :

ورد ذكر الجبال باسمها وصفاتها في ثمانية وأربعين موضعاً من القرآن الكريم وقد نصبها اللّه عزّ وجلّ وثبتها لتكون أمارة للسالكين في الفيافي والقفار ومشهدها يوحي إلى النفس جلالاً واستهوالاً ، حيث يتضاءل الإنسان إلى جوارها ، ويستكين ويخشع لجلال الخلاق العظيم سبحانه .

لقد أبرز اللّه تعالى الجبال لتثبيت الأرض وحفظ توازنها ، ووقايتها من التزعزع .

قال تعالى :﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ...﴾ .[2]

قال ابن كثير - رحمه اللّه - «لتقرّ الأرض ولا تميد ، أي تضطرب بما عليها من الحيوانات فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك» .[3]

وفضلاً عن ذلك فهي حواجز للرياح ومعاقد للثلوج في أعاليها ، ومراشح للمياه في أواسطها ، ومخازن في أكنانها ومغاورها ، ومقاطع للحجر في بناء المساكن .[4]

قال تعالى :﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ .[5]

٦ - الشمس :

ورد ذكر الشمس في القرآن الكريم ثلاثاً وثلاثين مرة ، ويصل إلينا نورها في نحو ثمان دقائق ، وتبعد عن الأرض حوالي ثلاث وتسعين مليون ميل تقريباً وهي تشرق على الكون فتملؤه حياةً وبهجة وحركة ووفاءً ويظهر بسببها الظل في أو ل النهار .

قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ .[6]

---

(١) انظر رحلة القلب السليم ٦٤-٦٥ ، ومنهج القرآن ص ١٣٥ .

(٢) سورة النحل الآية (١٥) .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/٥٦٥ .

(٤) انظر رحلة القلب السليم ٦٠-٦١ .

(٥) سورة الحجر الآية (٨٢) .

(٦) سورة الفرقان الآيتان (٤٥-٤٦) .

قال الامام ابن كثير - رحمه الله - : «لولا أن الشّمس تطلع عليه لماعرف فإن الضد لا يعرف إلا بضده» .[1]

" فالشّمس إذن هي السبب الأوّل في حدوث الظلّ ، وتحرك الظلّ على سطح الأرض دليل على حركة الشمس الظاهرية من الشرق إلى الغرب ، والشّمس نجم عظيم من جملة نجوم هذه المجرّة وهناك نجوم وشموس أكبر بكثير من شمسنا هذه في الحجم والضوء".[2]

٧- القمر :

ذكر القمر في القرآن الكريم سبع مرات ، قال تعالى :﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ...﴾ .[3]

فقد كشف الّله - تعالى - عن تقديره للقمر مقادير مخصوصة في الزمان والمكان فهو يسير في فلكه ، وينزل كل ليلة منزلاً ، ليتعلّم النّاس به عدد السنين والحساب للأشهر ، والفصول والأعوام ، لهذا فإن القمر يبدو صغيراً ثم يكبر فيصير هلالاً ، فبدراً ، ثم يعود فيصغر شيئاً فشيئاً .

وبسبب القمر تعرّف الإنسان على الزمن ، وعلم مواقيت الصلاة ، والصوم ، والحج والزكاة واستطاع تسجيل الأحداث الهامة كالمواليد والوفيات ، وعرفت النساء فترة العدّة ، وأيام الحمل والرضاع .

فالّله عزّ وجلّ جعل القمر من آياته العظيمة التى خصصها للإنسان كي يتمكن من الخلافة في الأرض ، وإذا كانت هذه كلّها شرعها الّله تعالى لخير الفرد ولمصلحة الجماعة وعمارة الدنيا أفلا نكون من الشاكرين ؟! .

ثم انظر في موضع القمر فإنه لو اقترب لسحب أمواج المحيطات سحباً يغطي وجه الأرض ثم ينحسر وقد تلاشى كلّ شئ .[4]

ولقد علّم الرسول الكريم ﷺ أمّته أن تدعو عند رؤية الهلال ويطلبون من الّله تبارك وتعالى أن يجعل هلال القمر بالأمن الدائم والإيمان الثابت ، والخير والرشاد .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٢٠ .

(٢) انظر رحلة القلب السليم ٣١-٣٢ .

(٣) سورة يونس الآية (٥) .

(٤) انظر منهج القرآن ص ١٣٣ .

عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا رأى الهلال قال : «اللّهم أهلّه علينا بالأمن والأمان والسلامة والإسلام ربي وربك الله هلال رشد وخير» .[1]

٨- الليل :

ذكر الليل في القرآن الكريم أكثر من تسعين مرة . منها قوله تعالى :﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾[2]

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية :«بيّن تعالى أنه لو جعل الليل دائماً عليهم ، سرمداً إلى يوم القيامة ، لأضر ذلك بهم ولسئمته النّفوس» .[3]

والليل من نعم الله الكبرى ، وآلائه العظمى ، ففيه السكينة والقرار ، وفيه التأمل والتدبر ولكن الناس لطول ما اعتادوا عليه من كر الجديدين .[4] ينسون جدّة الليل التي لا تبلى ، ولا يروعهم مغيب الشمس ، وإقبال الليل إلاّ نادراً .

أما أصحاب الإيمان ، فإنهم يلجأون إلى الله تعالى إذا أدبر النهار ، وأقبل الليل فلو تخيل الإنسان استمرار الليل أبداً فماذا يكون ؟، انّه الملل والهمود ، والتعطل ، والبوار ، أو البلى والهلاك ، ولابد للإنسان أن يشعر بقيمة الشئ حتى يشكر الله سبحانه وتعالى ، والليل بهذا القدر فيه السكينة والقرار ، والحياة تحتاج إلى فترة الليل لتتجدد .[5]

٩- النهار :

النهار من آيات الله عزّ وجلّ التى توقظ العقل ، وتبعثه للتأمل في هذه الظاهرة ولكن الإنسان نسى جمال النهار وأثره في طول التكرار .

عندما يفتح المسلم قلبه إلى حركة النهار وانبعاثه ، وكيف تدب الحياة فيه ليكسب كل مخلوق معاشه من رزق الله ، لأن النهار مبصر بالضوء الذي يكشف كل شئ فيه للإبصار حتى يمشى الناس في الأرض ويستغلوا تربتها وماءها وهواءها ، وكنوزها وأرزاقها جميعاً لأنها مذللة لهم بأمر الله عزّ وجلّ للزرع والسعي والحياة .

---

(١) سنن الترمذي ٥/٥٠٤ كتاب الدعوات باب ما يقول عند رؤية الهلال ح رقم ٣٤٥١ ، ط دار إحياء التراث ، ومسند أحمد ١٦٢/١ .

(٢) سورة القصص الآية (٧١) .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣٩٨/٣ .

(٤) الليل والنهار .

(٥) انظر رحلة القلب السليم ص ١٠٢ .

ولكن كيف بالناس لو ظلّ النهار دائماً إلى يوم القيامة ؟

قال تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ .(١)

قال الإمام ابن كثير - رحمه اللّه - : « أخبر تعالى أنه لو جعل النهار سرمداً أي دائماً مستمراً إلى يوم القيامة لأضرّ ذلك بهم ولتعبت الأبدان وكلّت من كثرة الحركات والأشغال »(٢)

وهكذا منّ اللّه عزّ وجلّ على عباده بلف الليل على النهار في جزء من الأرض ولف النهار على الليل في الجزء الذي يليه .

قال تعالى :﴿... يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ...﴾(٣) هذه حقيقة يشاهدها المؤمن فيزداد إيمانه بقدرة اللّه عزّ وجلّ الذي جعل الأرض كرويّة تدور حول نفسها في مواجهة الشمس فيغمر ضوؤها الجانب المكور من الأرض ليكون النهار ، وتستمر الأرض في الحركة حول الشمس ليبدأ الليل يغمر السطح الذي كان عليه النهار ، وهكذا دائبة إلى أن يشاء اللّه عزّ وجلّ .(٤)

١٠ - *النّبات* :

ورد ذكره في القرآن الكريم باسمه وصفته خمس وثلاثون مرة وجاء على أربعة معان :

الأول : النبات الذي يخرج من الأرض كما قال تعالى :﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾(٥)

الثاني: الإخراج : كما في قوله تعالى :﴿... كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ...﴾ .(٦)

الثالث: الخلق ، قال تعالى :﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ .(٧)

الرابع: التربية ، قال تعالى :﴿... وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ...﴾ .(٨)

---

(١) سورة القصص الآية (٧٢) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/٣٩٨ .

(٣) سورة الزمر الآية (٥) .

(٤) انظر رحلة القلب السليم ١٠٦ -١٠٧ .

(٥) سورة عبس الآية (٢٨) .

(٦) سورة البقرة الآية (٢٦١) .

(٧) سورة نوح الآية (١٧) .

(٨) سورة آل عمران الآية (٣٧) .

وإن المتأمل لهذه الآية (النبات) ومافي بهجتها ونضارتها من الجمال لابد أن يتجه قلبه إلى الله عزوجل القائل :﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَاكَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [(١)] .

فهذه الحدائق الحيّة الجميلة ، التى تبعث في القلب الحياة الإيمانية عندما يتدبر آيات الإبداع والإتقان في تلوين الزهر ، وتخطيط الورق ، وتمويجه ، وجعل أشجارها مختلفة الألوان والأشكال ، والطعوم ، والروائح .

قال تعالى :﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ...﴾ [(٢)] .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله -أي هذا الإختلاف في أجناس الثمرات ، والزروع في أشكالها ، وألوانها ، وطعومها، وروائحها ، وأوراقها ، وأزهارها ، فهذا في غاية الحلاوة وهذا في غاية الحموضة ، وذا في غاية المرارة ... مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة ، وهو الماء مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط ألا تكفي هذه الآيات لإيقاظ الغافلين وقد تجلت لهن آيات المدبّر وقدرة الخالق العظيم سبحانه وتعالى . [(٣)]

ثانياً : آيات الله في الأنفس

١ - *خلق الإنسان :*

قال تعالى :﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [(٤)] .

إن قلب الإنسان يشعر بقدرة الله عزّ وجلّ عليه ، ويحس بها في كل نفس ، وكل نبضة ومن ثم يستصغر كل أعماله الصالحة وطاعاته إلى جانب آلاء الله ، فيكفي العاقل أن يتفكر في أطوار وجوده ونموه ، وكيف نشأ بهذا الاطراد الذي لا يخطئ فسبحان الله رب العالمين .

---

(١) سورة النمل الآية (٦٠) .

(٢) سورة الرعد الآية (٤) .

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٠٠ .

(٤) سورة المؤمنون الآيتان (١٢-١٤) .

٢- عقل الإنسان :

إن هذا العقل الذي منحه الّله عزّ وجلّ للإنسان ، والذي لا يعدو عن كونه شريحة من شرائح الجسم لهو من أعظم النعم التى تلقاها من خالقه سبحانه فبواسطته يستطيع أن يخطّط وينسّق ، ويفكّر ، ويتذوق الجمال ، ويختزن المعلومات بملايين الملايين ، ويستخرجها من مخازنها عند الحاجة ، وبالعقل ارتقى الإنسان إلى الأفق السامق ، والتحق بعالم الملائكة وأصبح مؤهلاً للعلم والمعرفة .[١]

ومن هنا فإن الإنسان إذا استغل هذه الموهبة الربانيّة الكريمة فيما ينفع فاز بدار الكرامة .

أما إذا أطفأها بأهواء النفس ، وأغراضها الخسيسة خسر خسراناً مبيناً وكان ممن قال الّله تعالى فيهم : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [٢] .

٣- بصر الإنسان :

يستطيع الإنسان بواسطة البصر أن يتعرّف على العالم الخارجي ، وبواسطته يستطيع التعرف على الأشياء من ناحية شكلها ، هل هي مربعة أو مدورة أو مستطيلة ، كما يعرف الأصوات ويقدر المسافات .

وسنتحدث بعد قليل عن سمع الإنسان ، ومن هنا فإن سمع الإنسان وبصره يعتبران جهاز التمييز في الإنسان .[٣]

قال تعالى :﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ...﴾.[٤] هذه الآية الكريمة توقفنا أمام بأس الّله عزّ وجلّ في الأسماع والأبصار فإذا أخذهما - سبحانه - لا يستطيع أحد ردّهماوإذا عطلّها لا يستطيع أحد أن يعيدها لوظائفها ، وهذه من أدلّ الدلائل على قدرة الّله تعالى التى ما ينبغي للإنسان أن يعطلها فيورد نفسه موارد الهلاك .[٥]

---

(١) انظر رحلة القلب السليم ١٢٦ -١٢٧ .

(٢) سورة الأعراف الآية (١٧٩) .

(٣) انظررحلة القلب السليم ص ١٤٥ .

(٤) سورة الأنعام الآية (٤٦) .

(٥) انظر رحلة القلب السليم ص ١٤٥ ، وتفسيرالقرآن العظيم ٢/١٣٣ .

٤- سمع الإنسان :

ذكر القرآن الكريم السمع بعد خروج الإنسان من بطن أمّه فقال تعالى :﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .(١)

فالإنسان حين يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، وأول جهاز يبدأ عمله هو السمع الذي يظل يعمل منذ لحظة الولادة حتى رحيل الإنسان عن هذه الدنيا .

وحاسة السمع من الأمور التى تدعو الإنسان إلى الوقوف والتفكر في عجيب صنع اللّه تعالى فبها يسمع ، وبها يفهم الكلمات ، وبها يحصل التمييز بين الأصوات العديدة .(٢)

٥- شم الإنسان وذوقه :

جعل اللّه جلّت قدرته أنف الإنسان بارزاً عن الوجه ليزداد جمالاً ، وجعل أرنبة أنفه صالحة لاستنشاق الهواء وجعل في منتهى فتحتى الأنف عظماً مثقوباً شبيهاً بالمصفاة لتصل الروائح عن طريقه إلى مركز الإحساس وجعل في هذا المجرى تعاريج ليصل الهواء معتدلاً .

أما حاسة الذوق فالأمر فيها أعجب وأعجب ، فقد جعل اللّه تعالى اللسان آلةً للذوق ، وآلةً للمضغ ، وآلةً للبلع والهضم ،كل هذا من عظيم صنع اللّه تعالى وخلقه للإنسان في أحسن تقويم ، فقد خلق اللّه تعالى الشفتين زينة للوجه وستراً للفم وحاجزاً للعاب ولولا هذا لانقلب الإنسان المليح الفصيح إلى مسيخ قبيح ، فهذه الحواس من أكبر نعم اللّه على الإنسان التى طالبنا اللّه سبحانه وتعالى بالشكر عليها ، ومن الشكر ألا يستعملها الإنسان إلا في طاعة اللّه سبحانه وتعالى .(٣)

---

(١) سورة النحل الآية (٧٨) .

(٢) انظر رحلة القلب السليم ص ١٤١ ، وتفسير القرآن العظيم ٢/٥٧٩ .

(٣) انظر رحلة القلب السليم ١٥١-١٥٣ .

٦- قلب الإنسان :

عن النعمان بن بشير[١] - رضي الله عنه - قال : قال رسول اللّه ﷺ :«الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشبهات لا يعملها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى اللّه في أرضه محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » .[٢]

فالقلب هو خلاصة دولة الجسم ، ولذلك حثنا رسول اللّه ﷺ على صلاحه لأن جميع خيوط الجسم فيه،فهو وعاء الإيمان والتصديق وقد أعدّ اللّه سبحانه وتعالى لهذا القلب نوافذ ترد منها عليه دعوة الإسلام ، والخير، والمحبّة ، والجمال ، والقوة ، كما ترد عليه منها كذلك وسوسة الشيطان ، والشرك ، والحسد ، والضعف ، والانهيار ليكون اختياره للهدى أو الضلال بإرادته واختياره ، وهذه حكمة اللّه في ابتلاء الإنسان بعد أن جهزه بأدوات التمييز الأخرى ، فمن آمن وأقام على إيمانه دليلاً على الفهم السليم والعمل الصالح فهو من أهل الجنة برحمة اللّه أولاً ثم بناءً على أعمال سبكها المسلم مفتاحاً للجنة .قال تعالى : ﴿ ... وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .[٣]

ومن هنا فإن القلوب الحيّة هي التى تعتبر موجودة فعلاً أما القلوب الميتة فلا وجود لها.[٤]

---

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة صاحب رسول الله ﷺ ، ابن أخت عبد الله بن رواحة ولد سنة اثنتين وكان ممن شهد بدراً ، قتله خالد بن خلي سنة أربع وستين . انظر سير أعلام النبلاء ٣/ ٤١١- ٤١٢ .

(٢) فتح الباري ١/ ١٢٦ كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه حديث رقم ٥٢ ط.دار المعرفة . وصحيح مسلم ٣/ ١٢١٩ كتاب المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات ، حديث رقم ١٠٧ .

(٣) سورة الأعراف الآية (٤٣) .

(٤) انظر رحلة القلب السليم ص ١٦٢ ، ومنهج القرآن ص ١٤٠ .

المطلب الثاني
أسماء الله تعالى وصفاته

الاسم في اللغة : هو مادلّ على معنى في نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة ، وهو ينقسم إلى اسم عين ، وهو الدّال على معنى يقوم بذاته كزيد وعمرو ، وإلى اسم معنى ، وهو مالا يقوم بذاته،سواء كان معناه وجودياً كالعلم،أو عدمياً كالجهل .

أما الصفة : فهي الأمارة اللازمة بذات الموصوف الذي يعرف بها .(١)

أما في الاصطلاح : فأسماء الله الحسنى ، وصفاته العلى هي التى أثبتها تعالى لنفسه أوأثبتها له عبده ورسوله محمد ﷺ وآمن بها جميع المؤمنين .(٢)

وهذا ماقاله الإمام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - وزاد فيه «وما صرح الله تعالى أو رسوله ﷺ ، بنفيه عنه تعالى ، يجب نفيه ومالم يصرح الشرع لا بنفيه ولا بإثباته يجب استفسار قائله ، فإن أراد به معنى صَحِيْحاً موافقاً لما أثبته الشرع قبل وإلاّ وجب ردّه».(٣)

وأسماء الله جل ثناؤه ثابتة دلّ عليها كتاب الله - تعالى - ودلّت عليها سنة رسوله ﷺ .

فقال جلّ ذكره : ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ...﴾ .(٤)

وقال عزّ اسمه : ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَىٰ﴾(٥)

وعن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من قال في أول يومه أو في ليلته باسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شئ في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات لم يضرّه شئ في ذلك اليوم أو في تلك الليلة »(٦)

---

(١) التعريفات / ص ٤٦ ، ١٧٤ .

(٢) انظر معارج القبول ١/ ٦٠ .

(٣) ابن تيمية السلفي /محمد خليل هراس ص ١٠٣ ط(١) ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م دار الكتب العلمية - بيروت .

(٤) سورة الأعراف الآية (١٨٠) .

(٥) سورة الإسراء الآية (١١٠) .

(٦) بنحوه في سنن أبي داود ٥/ ٣٢٤ كتاب الآداب باب ما يقوله إذا أصبح حديث رقم ٥٠٨٨ . ومسند الامام أحمد ٦٦/١ .

وعن حذيفة - رضي اللّه عنه - قال : كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال : «اللّهم باسمك أحيا ، وباسمك أموت» ، وإذا أصبح قال : «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور» .[1]

وفي إثبات أسمائه جلّ ثناؤه إثبات لصفاته ، لأنّه إذا ثبت كونه موجوداً فوصف بأنه حي فقد وصف بزيادة صفة على الذات هي الحياة ، وإذا وصف بأنّه قادر ، فقد وصف بزيادة صفة هي القدرة ... إذ لولا هذه المعاني لاقتصر في أسمائه على ماينبئ عن وجود الذات فقط .[2]

ثم إنّ صفات اللّه جلّ جلاله تنقسم إلى قسمين :

أحدهما : صفات ذاته ، وهي ما استحقه فيما لم يزل ولا يزال .

والآخر : صفات فعله ، وهي ما استحقه فيما لا يزال دون الأزل .[3]

أو بمعنى آخر فإن صفة الذات هي التى لا يوجد لها مقابل في الأسماء ، وصفة الفعل هي التى يوجد لها مقابل ، فإذا قلت : اللّه حي ، كانت (حي) صفة ذات ، إنما (محي) صفة فعل لأن محيي يوجد لها مقابل وهو مميت لكن حي لا يوجد لها مقابل وهو ميت ، فإذا رأيت الصفة لا مقابل لها فاعلم أنها صفة ذات ، أما إذا كان لها مقابل فاعلم أنها من صفة الفعل فنقول : اللّه (عزيز) صفة ذات،انما اللّه (المعز) صفة فعل ، لأنه يوجد مقابلها (مذل) .[4]

وفي هذا المبحث سنتعرض لعدد من الصفات على سبيل المثال لا الحصر ، لأن حصرها يطول الأمر الذي لا يسمح به حجم هذا البحث ، وهذه الصفات هي :

الاستهزاء ، الحياء ، الاستواء ، القول والكلام ، الإتيان والمجيئ ، المحبة ، المعيّة .

---

(١) فتح الباري ١١/١١٣ كتاب الدعوات باب ما يقوله إذا نام - حديث رقم ٦٣١٢ دار المعرفة وصحيح مسلم ٤/٢٠٨٣ كتاب الذكر باب مايقول عند النوم حديث رقم ٥٩ دار الفكر .

(٢) انظر كتاب الأسماء والصفات /للامام الحافظ ابي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ص ١١٠ ، دار احياء التراث .

(٣) المصدر السابق ، والاعتقاد على مذهب السلف للمؤلف نفسه ص ٣١ ط(٢) ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م دارالكتب العلمية .

(٤) انظر عقيدة المسلم للشيخ محمد متولى الشعراوي جمع وإعداد عبد القادر أحمد عطا ص ٥٦ - ٥٧ ط(٢) ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م دار الجيل .

ا- صفة الاستهزاء :

الهُزْء والهُزُء لغة : السخرية والاستخفاف ، يعدّى بالباء فيقال : هزأت به واستهزأت به سخرت به ، ويقال : هزأت منه أيضاً .[(١)]

وفي الاصطلاح : هو مجازاة الّله للكافرين على هزئهم بالعذاب .[(٢)]

ولقد أثبت الإمام ابن كثير - رحمه الّله - صفة الاستهزاء لله تعالى ، حيث نهج منهج التأويل فيها ، ومراده في الاستهزاء هو سخرية الّله تعالى ومكره وخديعته للمنافقين وأهل الشرك ، أو توبيخه إيّاهم ولومه لهم على ماركبوا من معاصيه والكفر به .

أما الاستهزاء بمعنى المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث فهو منتف عن الّله عز وجل بالإجماع ، وأمّا على وجه الإنتقام والمجازاة فلا يمتنع ذلك .

وإلى هذا المعنى وجّهوا كل مافي القرآن من نظائر ذلك ، وقال آخرون : إن معنى ذلك أن الّله تعالى أخبر عن المنافقين أنّهم إذا خلوا إلى مردتهم قالوا إنّا معكم على دينكم في تكذيب محمد ﷺ ، وما جاء به ، وإنما نحن بما نظهر لهم من قولنا لهم مستهزئون ، فأخبر تعالى أنه يستهزئ بهم فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا ، يعنى من عصمة دمائهم وأموالهم ، خلاف الذي لهم عنده في الآخرة يعني من العقاب والنّكال .

والإمام ابن كثير - رحمه الّله - في إثباته صفة الاستهزاء بالمعنى الأول موافق للإمام ابن جرير الطبري[(٣)] - رحمه الّله تعالى - ، الذي قال :«اختلف في صفة استهزاء الّله جلّ جلاله الذي ذكر أنّه فاعله بالمنافقين فقال بعضهم : ... فهذا وما أشبهه من استهزاء الّله عزّ وجلّ وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين وأهل الشرك به ، وقال آخرون : بل استهزاؤه بهم : توبيخه إيّاهم ولومه لهم على ماركبوا من معاصي الّله والكفر به».[(٤)]

---

(١) انظر مجمّع البحرين للشيخ فخر الدين الطريحي ٤٧٧/١ ، مادة هزأ ط (١٩٨٥) دار ومكتبة الهلال ، وانظر كذلك معجم مقاييس اللّغة لابي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا - تحقيق عبد السلام هارون ٥٢/٦ دار الكتب العلمية -إيران ، ولسان العرب ٤٦٥٩/٦(ط) دار المعارف .

(٢) لسان العرب (المصدر السابق)

(٣) ابن جرير:هو الإمام محمّد بن جرير أبو جعفر الطبري ، صاحب التصانيف البديعة ، من أهل آمل طبرستان ولد سنة ١٢٤ ، طلب العلم وأكثر الترحال ، ولقي نبلاء الرجال ، وكان من أفراد الدهر علماً ، وذكاءً ، وكثرة تصانيف ، وكان من كبار الأئمة في الإجتهاد واستقر في أواخر عمره ببغداد ، توفي سنة ٣١٠هـ . انظر سيرأعلام النبلاء ٢٠٣/١٩.

(٤) جامع البيان ١٠٢/١

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله – «وبنحو ما قلنا روي الخبر عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ...[1] قال : يسخر بهم للنقمة منهم» ،[2] أي أن الله تعالى يفتح لهم في الآخرة باباً إلى الجنّة ، ثم يغلق دونهم فيستهزئ بهم المؤمنون .[3]

والحق – فيما يرى الباحث – أن ماذهب إليه الإمام ابن كثير – رحمه الله – ومن قبله الإمام ابن جرير الطبري في أن الاستهزاء هنا بمعنى سخرية الله تعالى من المنافقين وأهل الشرك وتوبيخه إياهم وانتقامه منهم هو الصواب ، في حين أنهما نفيا أن يكون الإستهزاء بمعنى المكر والخداع على وجه اللعب والعبث ، ذلك أن المعنى الأول يحمل في طيّاته انفاد وعيد الله في كل المتنكبين عن طريقه ، في حين يحمل المعنى الثاني معنى النقص ، الأمر الذي لا يليق بجلال الله تعالى ، لأنه معلوم بداهةً أن الله تعالى متصف بجميع صفات الكمال ومنزه عن جميع صفات النقص .

ومن الملاحظ أن الإمام ابن كثير – رحمه الله تعالى – قد أورد هنا العديد من الآيات التى تتحدث عن هذا الموضوع ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ .[4] وقوله تعالى ﴿... يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ...﴾ .[5]

كما أورد قول ابن عباس الذي ذكرناه آنفاً .

٢- صفة الحياء ثانياً

الحياء لغة : للحاء والياء والحرف المعتل أصلان :-

أحدهما : خلاف الموت ، **والآخر:** الاستحياء الذي هو ضد الوقاحة .[6]

وفي اللسان : التوبة والحشمة ، وقد حيّ منه حياءً ، واستحيا واستحى .[7]

---

(١) سورة البقرة الآية (١٥)

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٢/١ .

(٣) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٤ – المكتبة الشعبية .

(٤) سورة آل عمران الآية (٥٤) .

(٥) سورة النساء الآية (١٤٢) .

(٦) انظر معجم مقاييس اللغة ١٢٢/٢ .

(٧) لسان العرب ١٠٧٩/٢ – دار المعارف .

أما في الإصطلاح : فهو انقباض النفس من شئ وتركه حذراً عن اللوم فيه وهو نوعان :

نفساني: وهو الذي خلقه اللّٰه تعالى في النفوس كلهّا كالحياء من كشف العورة والجماع بين يدي النّاس ، **وإيماني:** وهوأن يمتنع المؤمن من فعل المعاصي خوفاً من اللّٰه تعالى.[1]

وهو «الانقباض عن الشئ والامتناع منه خوفاً من مواقعة القبيح» .[2]

وهو «تغير وانكسار يعترى الإنسان من تخوف مايعاب به ويذم» .[3]

وفي معرض الحديث عن صفة الحياء لله جلّ ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ننزهه تعالى عن هذه المعاني التى لا تليق بكماله سبحانه وتعالى .

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ .[4]

ومناسبة نزول الآية : أن اللّٰه تعالى لما ذكر العنكبوت والذباب قال المشركون : مابال العنكبوت والذباب يذكران؟ فنزلت .[5]

وفي هذه الصفة نجد الإمام ابن كثير - رحمه اللّٰه - ينهج منهج التأويل كسابقتها ، وجلّ ماقاله - رحمه اللّٰه - «أن اللّٰه تعالى أخبر أنّه لا يستحيي أيّ لا يستنكف وقيل لا يخشى أن يضرب مثلاً ما ، أيّ مثل كان ، بأي شئ كان ، صغيراً كان ، أو كبيراً» [6].

ومثله قال : غير واحد من المفسرين ،وليس لنا من اعتراض هاهنا سوى أن الإمام ابن كثير - رحمه اللّٰه - لم يتعرض إلى صفة الحياء التى تليق بجلال اللّٰه - تعالى - في حين أنها ثابته لله عز وجل ففي حديث سلمان - رضي اللّٰه عنه - أن رسول اللّٰه ﷺ قال : «إن اللّٰه عز وجل ليستحيي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خير فيردهما خائبتين» تخريج

---

(١) التعريفات ص ١٢٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١/٢٤٢ .

(٣) تفسير القرآن الجليل المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل / للإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ١/٣٤ - دار الكتاب العربي .

(٤) سورة البقرة الآية (٢٦) .

(٥) انظر أسباب النزول للامام أبي الحسن علي بن أحمد النيسابوري ت : ٤٦٨هـ ص ١٢ ط - دار الكتب العلمية .

(٦) تفسير القرآن العظيم ١/٦٤ .

في حين أن الالوسي [(١)] - رحمه اللّه - قال : وهو الصواب .

« ... والآية تشعر بصحة نسبة الحياء إليه تعالى ، لأنه في العرف لا يسلب الحياء إلاّ عمن هو شأنه ، على أن النفي داخل على كلام فيه قيد ، فيرجع إلى القيد فيفيد ثبوت أصل الفعل أو إمكانه لا أقل » [(٢)].

فكان الأجدر بالإمام ابن كثير - رحمه اللّه تعالى - أن يثبت صفة الحياء لله عزّ وجلّ في معرض حديثه عنها بالكيفية التى تليق بجلال اللّه تعالى واللّه تعالى أعلم .

٣- صفة الاستواء :

تعريف الإستواء : الإستواء في كلام العرب على ثلاثة وجوه :

«**الأول :** أن يستوى الرجل وينتهى شبابه وقوته .

الثاني: يستوى عن إعوجاج .

الثالث: أن تقول : كان فلان مقبل على فلان ثم استوى عليّ وإليّ يشاتمني ، على معنى أقبل إليّ وعليّ فهذا قول اللّه عز وجل :﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ...﴾ [(٣)] .

قال الفرّاء [(٤)] ثم استوى إلى السماء صعد .

وقال أحمد بن يحيي [(٥)] في قوله عز وجل : ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ . [(٦)]

---

(١) هو أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود أفندي الألوسي البغدادي ولد سنة ١٢١٧هـ في جانب الكرخ من بغداد ، وتوفي سنة ١٢٧٠هـ ودفن مع أهله في مقبرة الشيخ معروف الكرخي في الكرخ . انظر التفسير والمفسرون / د. محمد حسين الذهبي ٢٥٢/١ ، ط(٤) ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م مكتبة وهبة .

(٢) انظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني /للعلامة الألوسي البغدادي ٢٠٦/١ - دار الطباعة المنيريّة .

(٣) سورة فصلت الآية (١١) .

(٤) هو العلاّمة ابو زكريا يحيى بن زياد الكوفي النحوي ، قيل عنه : هو أمير المؤمنين في النحو قال ثمامة بن أشرس : رأيت الفراء فناقشته في اللغة فوجدته بحراً ، وعن الفقه فوجدته عارفاً باختلاف القوم ، وبالطب خبيراً ، ومقدار تواليفه ثلاثة آلاف ورقة مات رحمه الله سنة ٢٠٧هـ وله ثلاث وستون سنة . انظر سير أعلام النبلاء ١١٨/١٠ .

(٥) هو العلاّمة الأديب المصنف ابو بكر أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي البلاذري الكاتب ، صاحب «التاريخ الكبير» كان كاتباً بليغاً شاعراً محسناً توفي بعد السبعين ومائتين رحمه الله . المصدر السابق ٢٧٧/٢٢ .

(٦) سورة طه الآية (٥) .

الاستواء : الإقبال علي الشيئ وقال الأخفش [1] استوى أي علا » [2]

قال تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ...﴾ . [3]

أعرب الإمام ابن كثير - رحمه الله - هنا بوضوح عن عقيدته السلفية ، حيث قال في تفسير هذه الآية الكريمة :

(وأما قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها ، وانّما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفيّ عن الله فإن الله لايشبهه شئ من خلقه ﴿ ... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ . [4] بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حمّاد [5] والخزاعي [6] قال : «من شبّه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ، فمن أثبت لله تعالى ماوردت به الآيات الصريحة ، والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى) . [7]

---

(١) هو إمام النحو ، أبو الحسن ، سعيد بن مسعدة البلخي ثم البصري ، مولى بني مجاشع أخذ عن الخليل بن أحمد ، ولزم سيبويه حتى برع ، كان أعلم الناس بالكلام وأحذقهم بالجدل ، وله كتب كثيرة في النحو والعروض ومعاني القرآن . المصدر السابق ٢٠٦/١ .

(٢) اللسان ٢١٦٣/٣ - ٢١٦٤ .

(٣) سورة الأعراف الآية (٥٤) .

(٤) سورة الشورى الآية (١١) .

(٥) نعيم بن حماد هو : نعيم بن معاوية ... أبو عبد الله الخزاعي المروزي ، صاحب التصانيف روى عنه البخاري مقروناً بآخر وأبو داود والترمذي وخلق ، كان من كبار أوعية العلم لكنه لاتركن النفس إلى رواياته ، حمل إلى العراق في امتحان «القرآن مخلوق» مقيداً سنة ٢٢٣ وألقي في السجن ومات به سنة ٢٢٩ ، انظر سير أعلام النبلاء ٥٩٥/١٠ .

(٦) الخزاعي : هو الشيخ الصدوق العالم المحدث أبو القاسم على بن أحمد بن محمد بن الحسن الخزاعي البلخي ، ارتحل في كبره فحدث ببخارى ، وبلخ ، وسمرقند ، ولد سنة ٣٢٦هـ ومات ببخارى سنة ٤١١هـ . المصدر السابق ١٩٩/١٧ .

(٧) تفسيرالقرآن العظيم ٢٢٠/٢ .

والملاحظ هنا أن الإمام ابن كثير - رحمه الله - قد عدل عن المنهج الذي سلكه في الصفتين السابقتين (الاستهزاء والحياء) ألا وهو منهج التأويل حيث سلك هنامذهب أو نهج منهج السلف الصالح ألا وهو التفويض .

٤- ***صفتا القول والكلام :*** وهما مسمّيان لمعنى واحد .

قال تعالى : ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ .[1]

وقال تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ .[2]

في هاتين الآيتين الكريمتين ، وغيرهما من الآيات أثبت الله جل ثناؤه لنفسه صفتي القول والكلام ، وقد أثبتهما له رسوله ﷺ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : إنّ رسول الله ﷺ قال : «تكفل الله عز وجل لمن جاهد في سبيله ، لا يخرجه من بيته إلاّ الجهاد في سبيله وتصديق كلماته أن يدخله الجنّة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع مانال من أجر أو غنيمة» .[3]

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : كان رسول الله ﷺ إذا تهجّد من الليل قال : «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيّم السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنّة حق ، والنّار حق والنبيّون حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك انبت وبك خاصمت وإليك حاكمت ، فاغفر لي ماقدمت ، وما أخرت ، وما أسررت ، وما أعلنت ، أنت إلهي لا إله إلا أنت» .[4]

---

(١) سورة سبأ الآية (٢٣) .

(٢) سورة الكهف الآية (١٠٩) .

(٣) فتح الباري ٤٤١/١٣ كتاب التوحيد باب قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ حديث رقم ٧٤٥٧ وصحيح مسلم ١٤٩٦/٣ كتاب الإمارة باب فضل الجهاد حديث رقم ١٠٤ ، دار الفكر .

(٤) فتح الباري ١١٦/١١ كتاب الدعوات باب الدعاء إذا انتبه من الليل حديث رقم ٦٣١٧ .
صحيح مسلم ٥٢٣/١ كتاب صلاة المسافرين باب الدعاء في صلاة الليل حديث رقم ١٩٩ ط. دار الفكر ٢٠٩/٣ .

والإمام ابن كثير - رحمه الله - أثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه جل ثناؤه ، فقال رحمه الله «وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة ، وهو أنّه تعالى إذا تكلم بالوحي ، فسمع أهل السموات كلامه أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي ...» .(١)

وفي آية الكهف ، قال رحمه الله - : «لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله والشجر كلّه أقلام لانكسرت الأقلام ، وفني ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شئ ، لأن أحداً لا يستطيع أن يقدره قدره ولا يثنى عليه كما ينبغي حتى يكون هو الذي يثني على نفسه إنّ ربنا كما يقول وفوق مانقول » .(١)

والملاحظ هنا أيضاً أن الإمام ابن كثير - رحمه الله - أمرّ هاتين الصفتين كما أثبتهما الله عز وجل لنفسه كما هو حال السلف رضوان الله عليهم ، بمعنى أنه سلك أو نهج منهج التفويض .

٥- صفتا الاتيان والمجئ: وهما مسميان لمعنى واحد ايضاً

قال تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ .(٤)

الإمام ابن كثير - رحمه الله - يثبت هنا صفتي الإتيان والمجيئ بغير تأويل ويمرّهما كما جاءتا فقد قال - رحمه الله - في تفسير الآية الأولى : «... يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين ، فيجزي كل عامل بعمله » ،(٥) وأورد حديث الصور الذي ذكره الإمام ابن جرير - رحمه الله - وفيه : إن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحداً واحداً ، من آدم فمن بعده ، فكلّهم يحيد عنها ، حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ فإذا جاءوا إليه ، قال :أنا لها ، أنا لها فيذهب فيسجد لله تحت العرش ويشفع عند الله في أن يأتى لفصل القضاء بين العباد ، فيشفّعه الله ، ويأتي في ظلل من الغمام ، بعدما تنشق السماء ، وينزل من فيها من الملائكة ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، إلى السابعة ، وينزل حملة العرش والكروبيّون قال : وينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة ، ولهم زجل من

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٥٣٦ .

(٢) المصدر السابق ٣/١٠٨ .

(٣) سورة البقرة الآية (٢١٠) .

(٤) سورة الفجر الآية (٢٢) .

(٥) تفسير القرآن العظيم ١/٢٤٨ .

تسبيحهم يقولون : سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان ذي العزّة والجبروت ، سبحان الحي الذي لا يموت ، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت ، سبّوح قدّوس رب الملائكة والروح ، سبحان ذي السلطان والعظمة سبحانه سبحانه أبداً أبداً .[١]

ورأي الإمام ابن كثير -رحمه الله- موافق لرأي الإمام أبي جعفر الطبري -رحمه الله- الذي يقول « ...لا صفة لذلك غير الذي وصف به نفسه عز وجل من المجئ والاتيان والنزول وغير جائز تكلف القول في ذلك إلاّ بخبر من الله جلّ جلاله أو من رسول مرسل» .[٢]

وقد سبق الإمام ابن تيمية - رحمه الله - تلميذه ابن كثير فيما ذهب إليه .[٣]

٦ - صفتا الحب والكره :

قال تعالى :﴿قُلْ إِنْ كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُم الله ...﴾ .[٤]

وقال تعالى :﴿ ... إِنَّ الله يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ﴾ .[٥]

وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَ فِي سَبِيْلِهِ صَفًّا﴾ .[٦]

وقال تعالى :﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ .[٧]

وقال تعالى :﴿وَلَوْ أَرَادُوا الخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ الله انْبِعَاثَهُم فَثَبَّطَهُم ... ﴾[٨]

وقال تعالى : ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيْهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ .[٩]

هذه جملة من الآيات الكريمات التى أثبت الله عز وجل فيها لنفسه صفتي الحب والكره ونريد أن نرى ماذا يقول فيها الإمام ابن كثير - رحمه الله -

---

(١) المصدر السابق والحديث بتمامه انظره في جامع البيان ٢/١٩٢ .

(٢) المصدر السابق ٢/١٩١ .

(٣) انظر العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٣١ ط(٨) ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م دار المجتمع .

(٤) سورة آل عمران الآية (٣١) .

(٥) سورة البقرة الآية (٢٢٢) .

(٦) سورة الصف الآية (٤) .

(٧) سورة النساء الآية (١٤٨)

(٨) سورة التوبة الآية (٤٦) .

(٩) سورة البقرة الآية (٢٠٥) .

ففي أية البقرة «٢٢٢» لم يؤول ، فقد أمرّها كما جاءت فقال - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ «أي من الذنب وإن تكرر غشيانه ، ويحب المتطهرين أي المتنزهين» ،[١] وبنفس المنهج سار في تفسير آيات آل عمران فقال - رحمه الله - :

«هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله ، وليس هو على الطريقة المحمديّة فإنه كاذب في دعواه حتى يتبع الشرع المحمدي ، ولهذا قال : ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي يحصل لكم من محبتكم إياه ، وهو محبته إياكم ، وهو أعظم من الأول كما قال بعض الحكماء : «ليس الشأن أن تُحِب ، وإنما الشأن أن تُحَب» ، وقال الحسن البصري وغيره من السلف : «زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال : إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» .[٢]

وفي آية الصف كذلك فقال - رحمه الله - : «فهذا إخبار من الله تعالى بمحبته عباده المؤمنين إذا صفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى ، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله لتكون كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان » .[٣]

وعلى النقيض من صفة الحب ، صفة الكره ، فقد أثبتها الإمام ابن كثير - رحمه الله - كماهي دونما تأويل لها فقال - رحمه الله - عند قوله تعالى : ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ...﴾ . «لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلاّ أن يكون مظلوماً فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه وذلك قوله : «إلا من ظلم» .[٤]

وعلى نفس النهج سار في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ « أي لا يحب من هذه صفته ولا من يصدر منه ذلك » ،[٥] بينما نجده - رحمه الله - قد خالف منهجه في آية التوبة حيث نهج منهج التأويل ، فنراه هنا يؤول الكره بالبغض ، فيقول عند قوله تعالى ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ «أي أبغض أن يخرجوا معك» .[٦]

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٥٨/١ .

(٢) المصدر السابق ٣٥٨/١ .

(٣) المصدر السابق ٣٥٨/١ .

(٤) المصدر السابق ٥٧٠/١ .

(٥) المصدر السابق ٢٤٧/١ .

(٦) المصدر السابق ٣٦١/٢ .

والباحث لا يرى في مثل هذه التأويلات بأساً ، على اعتبار أن الكره مرادف للبغض ، كما أن البغض في حدّ ذاته صفةً أثبتها الله جلّ ثناؤه لنفسه ، فلقد جاء في الحديث عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ «إن الله إذا أحب عبداً ، دعا جبريل فقال : إنيّ أحبّ فلاناً فأحبهّ قال : فيحبّه جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحبّ فلاناً فأحبّوه فيحبّه أهل السماء ، قال ثم يوضع له القبول في الأرض وإذا أبغض عبداً دعا جبريل ، فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء : أن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، قال فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض » .[1]

٧- صفة اليد :

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : بعد قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ .[2]

« أي جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً بأيد أي بقوة » .

وكما هو واضح أنه نهج هنا منهج التأويل حيث أوّل اليد بالقوة ، كذلك نهجه هنا الصحابي ابن عباس وعدد من التابعين كمجاهد وقتادة والثوري .

٨- صفة المعية :

قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .[3]

قال الإمام ابن كثير -رحمه الله - بعد تفسيره لهذه الآية الكريمة مانصه « ... ولهذا حكى غير واحد الاجماع على أن المراد بهذه الآية معيّة علمه تعالى ، ولا شك في إرادة ذلك ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم ، وبصره نافذ فيهم ، فهو سبحانه وتعالى مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شئ» .[4]

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٣٠ كتاب البر والصلة،باب إذا أحب الله عبداً ، حديث رقم ١٥٧ وبنحوه في سنن الترمذي ٥/٣١٨ ، كتاب تفسير القرآن باب ١٩ سورة مريم حديث رقم ٣١٦١ ط. دار الدعوة - استانبول ، وبنحوه أيضاً في مسند الإمام أحمد ٥/٢٦٣

(٢) سورة الذاريات الآية (٤٧) .

(٣) سورة المجادلة الآية (٧) .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/٣٢٢ .

والملاحظ في تفسيره - رحمه الله - لهذه الآية الكريمة أنه سار على منهج التأويل حيث أول معيّة الله ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ بعلم الله ، وسمعه ، وبصره ، وأكدّ هذا بقوله «ولا شك في إرادة ذلك» .وهذا تأويل لا يحتمل التأويل .

قال الضحاك[1] في قوله تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ...﴾ هو الله عز وجل على العرش وعلمه معهم .[2]

وفي قوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[3] قال سفيان «أي علمه» .[4]

وقال الإمام ابن تيمية - رحمه الله - : «وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا هو معهم بعلمه» .[5]

ومن تأويلاته أيضاً - رحمه الله - بعد أن أورد قول الله عز وجل : ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ...﴾ .[6]

قال : «أي سنعاملكم معاملة النّاسي لأنّه تعالى لا ينسى شيئاً ، ولا يضل عنه شئ »[7]

---

(١) هو الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو محمد صاحب التفسير ، كان من أوعية العلم حدث عن ابن عبّاس وابو سعيد الخدري وأنس ابن مالك ، توفي الضحاك سنة ١٠٢ . انظر سير أعلام النبلاء ٥٩٨/٤ .

(٢) الأسماء والصفات ص ٤٣٠ .

(٣) سورة الحديد الآية (٤) .

(٤) الأسماء والصفات ص ٤٣٠ .

(٥) شرح حديث النزول لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٢٦ ط(٥) ١٣٩٧هـ -١٩٧٧م المكتب الإسلامي - بيروت .

(٦) سورة السجدة الآية (١٤) .

(٧) تفسير القرآن العظيم ٤٥٨/٣ .

المطلب الثالث
رؤيـــة اللّه تعالـــى

هذا المطلب هو أشرف مطالب هـذا البحـث علـى الاطلاق ، وأجلّهـا قدراً فرؤية اللّه تعالى هي التي ينبغى أن يشمّر عن ساعد الجدّ إليـها المشمّرون ، وهي التي ينبغي أن يتنافس فيـها المتنافسون ، ويتسابق إليها المتسابقون ، ولمحاولة الوصول إليها فليعمل العاملون .

قال تعالى : ﴿... وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ .(١)

وقال تعالى :﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ .(٢)

ورؤية اللّه تعالى نطق بها كتاب ربنا الحكيم فقال جلّ ثناؤه : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ،(٣) واتفق عليها الأنبياء والمرسلون ، وجميع الصحابة والتابعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ،أما عن التعريف بها فهي غنيّة عن التعريف ، إن في اللغة أو الاصطلاح ، فهي أعرف من أن تعرّف ، إن على صعيد اللفظ أو المعنى ، وممن أثبت رؤية المؤمنين لربهم في الجنّة إمامنا الجليل ابن كثير -رحمه اللّه- فهو الذي يعنينا أن نرى ماذا يقول

فبعد قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ قال رحمه اللّه ، «من النضارة أي حسنة بهيّة مشرقةً مسرورةً ،«إلى ربها ناظرة» أي تراه عياناً فقد روى الإمام البخاري -رحمه اللّه -(٤) بسنده «عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : إن الناس قالوا : يارسول اللّه هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : «هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا يارسول اللّه ، قال فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا قال : فإنكم ترونه كذلك» .(٥)

---

(١) سورة المطففين الآية (٢٦) .

(٢) سورة الصافات الآية (٦١) .

(٣) سورة القيامة الآيات (٢٢-٢٣) .

(٤) هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزيه أبو عبدالله بن أبي الحسن البخاري الحافظ صاحب الصحيح ، أعرف من أن يعرف ، إمام أهل الحديث ، والمقتدى به ، والمعول على كتابه بين أهل الإسلام ، ألهم حفظ الحديث وهو ابن عشر سنين توفي رحمه الله سنة ٢٥٦هـ وله من العمر ستون . انظر تهذيب الكمال في أسماء الرجال/ الحافظ المزّي ٢١/٦٠١ -تحقيق د. بشار معرف ط(١) ١٤١٣هـ مؤسسةالرسالة .

(٥) فتح الباري ٢/٢٩٢ كتاب الأذان باب فضل السجود حديث رقم ٨٠٦ دار المعرفة .
وبنحوه في سنن أبي دواد ٥/٩٨-٩٩ كتاب السنن ، باب في الرؤية حديث رقم ٤٧٣٠ .

ثم يستطرد قائلا : (وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عزّوجلّ في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولامنعها لحديث أبي سعيد وأبي هريرة أن ناساً قالوا يارسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : «هل تضارون في روية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ؟ قالوا : لا ، قال «إنكم ترون ربكم كذلك » .[1])[2] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - «وأما الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين ، فهؤلاء كلّهم متفقون على اثبات الرؤية لله تعالى ، والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ عند أهل العلم بحديثه »[3] ، فعن صهيب - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : «إذا دخل أهل الجنّة الجنة يقول الله تعالى :«تريدون شيئاً أزيدكم» ؟ فيقولون : «ألم تدخلنا الجنّة ، وتنجنا من النار » ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحّب إليهم من النظرالى ربهم وهي الزيادة ثم تلا هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ...﴾[4] »[5]

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما- قال : قال رسول الله ﷺ : «إنّ أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ، فينظر إلى أزواجه وخدمه ، وإنّ أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين » .[6]

ثم يقول ابن كثير - رحمه الله - : «وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام » .[7]

ولم يقف -رحمه الله - عند هذا الحد ، بل نراه يشن الحملة على من أنكر الرؤية أو تأولها فيقول : (ومن تأوّل ذلك بأن المراد بإلى مفرد آلاء وهي النعم كما قال مجاهد

(١) سبق تخريجه في البخاري ، وفي صحيح مسلم ١/ ١٧١ كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية حديث رقم ٣٠٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٥٠ .

(٣) انظر منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ٢١٥-٢١٦ المكتبة العلمية - بيروت .

(٤) سورة يونس الآية (٢٦) .

(٥) صحيح مسلم ١/ ١٦٣ كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الأخرة ربهم سبحانه وتعالى حديث رقم ٢٩٧ .

(٦) مسند الامام أحمد ٢/ ١٣ .

(٧) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٥٠ .

﴿إلى ربها ناظرة﴾ قال «تنتظرالثواب من ربها» فقد أبعد هذا القائل النُّجْعَة [1] وأبطل فيما ذهب إليه ، وأين هو من قول الله تعالى :﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ . [2] قال الشافعي رحمه الله : ماحجب الفجار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه عز وجل) . [3]

وقد ذهب غير واحد من علماء المسلمين إلى ماذهب إليه الإمام ابن كثير في اثبات رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة ، وأوردوا النصوص الدالة عليها من الكتاب والسنة ، ثم ساقوا العديد من أقوال الصحابة وإجماعهم على ذلك وأقوال أئمة الإسلام وأهل الحديث [4] .

وقد ردّ الإمام الطحاوي - رحمه الله - على من أنكر روية الله ولو بالتأويل فقال : «ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم ، أوتأولها بفهم ، إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبيّة بترك التأويل ، ولزوم التسليم ، وعليه دين المسلمين ومن لم يتوق النفي والتشبيه ، زلّ ولم يصب التنزيه» . [5]

وإقفالاً لهذا الباب في وجه كل المتنكبين عن الصواب ، نختمه بدليل دامغ من السنة المطهرة فقد روى عديّ بن حاتم [6] - رضي الله عنه - ، وهو قول رسول الله ﷺ :«مامنكم من أحد

---

(١) طلب الكلأ ومساقط الغيث ، انظر اللسان ٤٣٥٣/٦ مادة نجع .

(٢) سورة المطففين الآية (١٥) .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٥٠ .

(٤) انظر حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح /للامام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية ص ٢٠٤-٢٤٤ ط. دار الجيل - بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م وانظر كتاب شرح أصول إعتقاد أهل السنة والجماعة / للشيخ أبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي تحقيق د. أحمد سعد حمدان ٤٥٤/٣ - ٥١١ ، وانظر كذلك ضوء السارى إلى معرفة رؤية الباري عز وجل للامام شهاب الدين عبد الرحمن ابن اسماعيل الشافعي المعروف بأبي شامة - تحقيق د. أحمد الشريف ص ٣٠-٦٨ دار الصحوة ، وانظر كتاب التمهيد تأليف الإمام القاضي أبي بكر محمد بن الطيب بن الباقلاني ص ٢٦٦ المكتبة الشرقية - بيروت ١٩٥٧م .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١٠ وانظر مجموعة الرسائل الكمالية رقم ص ٥٥ -٥٦

(٦) هو عدي بن حاتم طيئ الذي يضرب بجوده المثل وفد عدي على النبي ﷺ في وسط سنة سبع فأكرمه واحترمه ، له أحاديث ، كان أحد من قطع برية السماوه مع خالد بن الوليد إلى الشام توفي سنة سبع وستين وله مائة وعشرون . انظر سير أعلام النبلاء ١٦٣/٣ -١٦٤ .

إلا سيكلّمه الّله ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ماقدم ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ماقدّم وينظر أمامه فيرى النار ، فمن استطاع منكم أن يقي وجهه عن النار ولو بشق تمرة فليفعل » .[1]

---

(١) بنحوه أخرج البخاري ، انظر فتح الباري ١١/ ٤٠٠ ، كتاب الرقاق باب من نوقش الحساب - حديث رقم ٦٥٣٩ وصحيح مسلم ٢/ ٧٠٣ كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة حديث رقم ٦٧ ، دار الفكر،وأورده الحافظ محمد بن يحيى بن عمر العدني في كتابه الإيمان دراسة وتحقيق محمد بن حمد الحربي ٨٩-٩٠ ط(١) ١٤٠٧هـ -١٩٨٦م الدار السلفية .

المطلب الرابع
موقف الإمام ابن كثير من قضيّة التأويل

تعريف التأويل

أولاً : في اللّغة : قال في اللسان : الأول : الرجوع ، آل الشئ يؤول أولاً ، ومآلاً : رجع وأوّل الشئ رجعه ، وإلت عن الشئ إرتددت، وفي الحديث :« من صام الدهر فلا صام ولا آل »[(١)] أي : ولا رجع إلى خير ، ... ثم قال : وأوّل الكلام وتأوله دبّره وقدّره ، وأوله وتأوله فسره ... الخ ،[(٢)] وعلى هذا فيكون التأويل مأخوذ من الأوّل بمعنى الرجوع ، إنما هو باعتبار أحد معانيه اللّغوية ، فكأن المؤول أرجع الكلام إلى ما يحتمله من المعاني .[(٣)]

وقيل : « التأويل مأخوذ من الإيالة وهي السياسة ، فكأن المؤول يسوس الكلام ويضعه في موضعه ، وآل الرعيّة يؤولها إيالة حسنة ، وهو حسن الإيالة ، وائتالها وهو مؤتال لقومه مقتال عليهم ، أي سائس محتكم » .[(٤)]

ثانياً : في الإصطلاح : له معنيان

الأول : « تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء أوافق ظاهره أو خالفه فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفين » .[(٥)]

والثاني : هو نفس المراد بالكلام ، فإن كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشئ المخبر به .

فالذي قبله يكون التأويل فيه من باب ، العلم ، والكلام،كالتفسير، والشرح ، والإيضاح وأما الثاني فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة في الخارج سواء أكانت ماضية أم مستقبلة فإن قيل : طلعت الشمس ، فتأويل هذا هو نفس طلوعها ، وهذا في نظر ابن تيمية هو لغة القرآن التي نزل بها ، وعلى هذا فيمكن إرجاع ما في القرآن من لفظ التأويل إلى هذا المعنى الثاني[(٦)]

(١) بنحوه في فتح الباري ٤/٢٢١ كتاب الصوم باب حق الأهل في الصوم ، حديث رقم ١٩٧٧ .

(٢) انظر لسان العرب ص ١٣١ ، دار المعارف وانظر التعريفات ص ٧٧ .

(٣) التفسير والمفسرون ١/١٨ .

(٤) أساس البلاغة / للإمام أبي القاسم محمود الزمخشري ص ٢٥ ط- دار الفكر - بيروت .

(٥) التفسير والمفسرون ١/١٩ ، وانظر التعريفات ص ٧٧ .

(٦) التفسير والمفسرون ١/١٩ .

أما عن موقف الإمام ابن كثير – رحمه اللّه – فإنه لا يمكن الحكم عليه في أنّه وقف موقفاً موحداً سواء فيما يتعلق بالتأويل أو التفويض ،[1] ذلك أنه من خلال استعراضنا لبعض صفات المولى جلّ ثناؤه ، وجدنا أن الإمام ابن كثير – رحمه اللّه – تارة ينضم إلى منهج السلف رضوان اللّه عليهم في مسألة التفويض ، وأخرى ينضم إلى منهج الخلف رضوان اللّه عليهم في مسألة التأويل ، فكأني به – رحمه اللّه- لا يرى بأساً في مثل هذه التأويلات غير المخلة ، ولو كان الأمر غير ماذهبنا إليه فماذا يعني تأويله استهزاء اللّه تعالى بالكافرين بأنه سخريةً بهم؟ وقد سبقه بهذا الإمام ابو جعفر الطبري – رحمه الله – وماذا يعني تأويل قوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا ...﴾ .[2] بأنه لا يستنكف وأنّه لا يخشى ؟

وماذا يعنى تأويله معية اللّه بأنها معيّة علمه تعالى ؟ وماذا يعنى تأويل قوله تعالي : ﴿... إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ...﴾ .[3] بقوله أي سنعاملكم معاملة النّاسي وغير ذلك كثير ، بينما سلك مذهب السلف الصالح في مسألة الإستواء ، وكذلك في صفتي القول والكلام ، والاتيان والمجيئ ، والحب والكره .

هذا هو منهج الإمام ابن كثير رحمه اللّه في هذه المسألة الأمر الذي يجعلنا نستغرب أشد الاستغراب من مواقف بعض المتأخرين – الذين يزعمون أنهم أتباع للسلف الصالح – في تنطعهم وتشددهم في أمور لا طائل من ورائها ، ولا أثر لها على سلامة العقيدة ، في حين يجعلونها هم في سلّم الأولويات ، حيث يصل بهم الأمر في كثيرمن الأحيان إلى رمي خصومهم بالكفر، والزيغ ، والضلال ، والزندقة ، في الوقت الذي تحتاج فيه الأمة إلى التماسك والوحدة خاصة وأن الأعداء يتربصون بأمة الإسلام الدوائر وماذا يفعل أو يقول هؤلاء لو علموا أن أشد الناس تمسكاً برأي السلف رضوان اللّه عليهم وهو الإمام أحمد بن حنبل رضي اللّه عنه قد لجأ إلى التأويل في عدّة مواطن ومن ذلك :

---

(١) التفويض : هو إمرار الآيات والأحاديث التي تتعلق بصفات الله تبارك وتعالى كما جاءت والسكوت عن تفسيرها أوتأويلها .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٦) .

(٣) سورة السجدة الآية (١٤) .

تأويله لحديث أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ «الحجر الأسود يمين الله فمن مسح يده على الحجر فقد بايع الله أن لا يعصيه » ،[1] وحديث عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ «قلب ابن آدم على أصبعين من أصابع الجبار عز وجل إذا شاء أن يقلبه قلبه» ،[2] وحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ: «ألا إن الإيمان يمان، والحكمة يمانيّة وأجد نَفَس ربكم من قبل اليمن» .[3]

وبناءً عليه هل سيرمى الإمام أحمد بالكفر ، والزيغ ، والزندقة ، أم ماذا ؟! إنه من الأجدر بهؤلاء أن يشغلوا أوقاتهم فيما يجلب النفع والمصلحة للأمة ، لا أن يقفوا حجرعثرة في وجه الدين باسم الدين .

وانهاء لهذه المسألة فإني أنقل مما جاء في كتاب الاسماء والصفات هذه الفقرة :

« ... ولقد اتفق السلف والخلف على تنزيه الله سبحانه عن مشابهة صفات الخلق ، وليس هناك إلاّ التنزيه مع التفويض ، أو التنزيه مع التأويل عند أهل الحق سلفاً وخلفاً » .[4]

ومماجاء في مجموعة الرسائل مايلي :

«وخلاصة هذا البحث أن السلف والخلف قد اتفقا على أنّ المراد غير الظاهر المتعارف بين الخلق ، وهو تأويل في الجملة ، واتفقا كذلك على أنّ كل تأويل يصطدم بالأصول الشرعيّة غير جائز ، فانحصر الخلاف في تأويل الألفاظ بما يجوز في الشرع ، وهو هين كما ترى ، وأمر لجأ اليه بعض السلف أنفسهم ، وأهم ما يجب أن تتوجه إليه همم المسلمين الآن توحيد الصفوف وجمع الكلمة ، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً والله حسبنا ونعم الوكيل » .[5]

---

(١) كنز العمال في سنن الأفعال والأقوال /للامام علاء الدين الهندي ٢١٧/١٢ ، حديث رقم ٣٤٧٤٤ مؤسسة الرسالة .

(١) مسند أحمد ١٧٣/٢ .

(٣) مسند أحمد ٥٤١/٢ .

(٤) كتاب الأسماء والصفات ص ٣١٤ (الهامش) .

(٥) مجموعة رسائل الامام الشهيد حسن البنا - رسالة العقائد ص ٤٥٦ .

المطلب الخامس
الموازنة بين منهجي ابن كثير وابن تيمية
في قضية التأويل

قد علمنا من قبل منهج الإمام ابن كثير - رحمه الّله - في قضية التأويل وبقى أن نسلط الضوء على منهج الإمام ابن تيمية - رحمه الّله - في هذه القضية وبالاطلاع على المنهجين يتضح الفرق واضحاً جليّاً ، فالمنهج الذي نهجه الإمام ابن تيمية - رحمه الّله تعالى - في أسماء الّله الحسنى وصفاته العلا هو منهج التفويض المطلق ، الذي ليس لمنهج التأويل إليه سبيلاً ، وقوله الشامل في هذا الباب يؤكد ماتوصلنا إليه فقد قال - رحمه الّله - في الفتوى الحموية الكبرى :

« ... ثم القول الشامل في جميع هذا الباب أن يوصف الّله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ، وما وصفه به السابقون الأولون لا يتجاوز القرآن والحديث ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، وهذا هو مذهب السلف ، ونعلم أن ماوصف الّله به نفسه من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي ، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه - لا سيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول ، وأفصح الخلق في بيان العلم ، وأفصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد .[١]

وهو سبحانه وتعالى مع ذلك ليس كمثله شئ ، لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ، ولا في أفعاله ، فكما نتيقن أن الّله سبحانه له ذات حقيقةً ، وله أفعال حقيقة فكذلك له صفات حقيقة وهو ليس كمثله شئ لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله» .[٢]

---

(١) يبدو أن اللسان ومن بعده القلم قد زّلا بابن تيمية - رحمه الله- في قوله «أعلم الخلق وأفصح الخلق» في حق جناب الله تعالى حيث أن أضافة «الخلق» إلى «أعلم وأفصح ، توحي أن الله تعالى من جملة المخلوقين - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - فهو الخالق ، البارئ ، المصور وعليه كان الأجدر بشيخ الإسلام أن يقول ويكتب : لا سيما إذا كان المتكلم هو الأعلم بما يقول والأفصح في بيان العلم ، والأفصح في البيان ، والتعريف ، والدلالة ، والارشاد ، وإنني إذا استدرك عليه أسأل الله تعالى له المغفرة .

(٢) الفتوى الحمويّة الكبرى لشيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية ص ١٦-١٧ ط(٣) ١٣٩٨هـ - المطبعة السلفية / القاهرة - روضة الفسطاط .

المطلب السادس
قضاء الله وقدره ، وموقع الإنسان منه

خير مستهل للحديث عن القضاء والقدر هو تعريفهما في اللغة والإصطلاح .

فالقضاء لغة : الحكم ، أما في الإصطلاح فينقسم إلى قسمين (إلهي وبشري ، فمن الإلهي قوله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[1] ومن البشرى قوله تعالى :﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ...﴾[2]

وعبّر عن الموت بالقضاء قال تعالى : ﴿... فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ...﴾ .[3]

وبمعنى الإتمام الإكمال ، قال تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ...﴾ .[4]

قال الشاعر

إذا خان الأمير وكاتباه *** وقاضي الأمر داهن في القضاء

فويل ثم ويل ثم ويل *** لقاضي الأرض من قاضي السماء

وعن بريدة[5] عن أبيه قال : قال الرسول ﷺ : «القضاة ثلاثة واحد في الجنة وإثنان في النار فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار »[6])[7] .

---

(١) سورة الإسراء الآية (٢٣) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٠٠) .

(٣) سورة الأحزاب الآية (٢٣) .

(٤) سورة القصص الآية (٢٩) .

(٥) هو بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث الأعرج ، أسلم عام الهجرة ، شهد غزوتي خيبر والفتح ، وكان معه اللواء ، إستعمله النبي ﷺ على صدقة قومه ، توفي سنة اثنتين وستين للهجرة انظر سير أعلام النبلاء ٢/٤٦٩ .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب الأقضية باب في القاضي يخطئ حديث رقم ٣٥٧٣ ، وبنحوه في سنن ابن ماجة ٢/٧٧٦ كتاب الأحكام باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق حديث رقم ٢٣١٥ .

(٧) انظر التعريفات ص ٢٢٦ ، وانظر لوامع الأنوار البهيّة ، وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضيّة في عقد الفرقة المرضية للشيخ محمد بن أحمد السفاريني ١/٣٤٥ - المكتب الإسلامي بيروت .

وأما القدر لغة :«التقدير ، وهو جعل كل شئ بمقدار يناسبه بلا تفاوت» [1] وهو «تعلّق الإرادة الذاتيّة بالأشياء في أوقاتها الخاصة ، فتعليق كل حال من أحوال الأعيان بزمان معين وسبب معين عبارة عن القدر» . [2]

وفي الاصطلاح : «جزئيات حكم القضاء وتفاصيله التي تقع فيما لا يزال .

قال تعالى :﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ . [3]

ومعناه أن الله تعالى قدر الأشياء في القدم ، وعلم أنها ستقع في أوقات معلومة عنده وعلى صفات مخصوصة ، فهي تقع على حسب ما قدّرها سبحانه ، وهو بهذا المعنى يعم القضاء بالمعنى السابق» . [4]

الفرق بين القضاء والقدر :

القضاء : إنّما يكون في الأزل ، وهو وجود جميع الموجودات في اللّوح المحفوظ مجتمعة .

والقدر : انما يكون فيما لا يزال ، وهو وجود جميع الموجودات متفرقة في الأعيان بعد حصول شرائطها . [5]

ومعلوم أن الإيمان بقضاء الله وقدره هو أحد أركان العقيدة ، وهو الركن السادس من أركان الإيمان .

ودليلنا على ذلك ماجاء في حديث جبريل المشهور حين جاء إلى النبي ﷺ في صورة أعرابي يسأله عن الإسلام والإيمان والاحسان.فعن أبي هريرة رضي الله قال : كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس ، فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال : «الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته وبلقائه ، ورسله ، وتؤمن بالبعث» . قال : ما الإسلام؟ قال : «أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان ». قال : ما الإحسان ؟ قال : «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك» ، قال : متى الساعة ؟ قال : «ما المسؤل عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربّها ، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم

---

(١) الدين الخالص للشيخ محمود محمد خطاب السبكي تعليق أمين محمود خطاب ١/١٣٦ ط(٤) ١٣٩٧هـ .

(٢) التعريفات ص ٢٢٢ .

(٣) سورة الحجر الآية (٢١) .

(٤) الدين الخالص ١/١٣٦ .

(٥) التعريفات ص ٢٢٢ .

في البنيان في خمس لا يعلمهن إلاّ الله » ثم تلا النبي ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾[1] ثم أدبر فقال : ردّوه ، فلم يروا شيئاً فقال : «هذا جبريل جاء يعلّم الناس دينهم » .[2]

والقضاء والقدر أمران متلازمان ، لا ينفك أحدهما عن الآخر لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء فمن رام الفصل بينهما ، فقد رام هدم البناء ونقضه» .[3]

ثم إن القدر إمّا أن يكون خيراً وإمّا أن يكون على العكس من ذلك وعلى الإنسان أن يرضى بذلك .

قال الإمام الأعظم أبو حنيفة : «أصل التوحيد ومايصح الإعتقاد عليه يجب أن يقول : آمنت بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت ، والقدر خيره وشره من الله تعالى » .[4]

قال تعالى : ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ .[5]

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هاتين الآيتين الكريمتين :

«يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية فقال : « ما أصاب من مصيبة ... » أي في الآفاق و في نفوسكم « إلا في كتاب ... » أي قبل أن نخلق الخلقة ونبرأ النّسمة وقال بعضهم : من قبل أن نبرأها عائد على النفوس ، وقيل : عائد على المعصية والأحسن عوده على الخليقة والبرية لدلالة الكلام عليها .

---

(١) سورة لقمان الآية (٣٤) .

(٢) فتح الباري ١/١٤ كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان حديث رقم (٥٠) ط. دار المعرفة ، وصحيح مسلم ١/ ٤٠ كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والاحسان ، حديث ٧ ط. دار الفكر .

(٣) لوامع الانوار البهيّة ١/٣٥٨ .

(٤) انظر كتاب الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة مع شرحه للإمام الملا على القاري الحنفي ص ١٥ ومابعدها ط(١) ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م دار الكتب العلمية - بيروت .

(٥) سورة الحديد الآيتان (٢٢-٢٣) .

وهــذه الآية العظيمة الكريمة أدل دليل على القدرية نفاة العلم السابق قبحهم الله .[(١)]

روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » .[(٢)]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي أن علمه تعالى الأشياء قبل كونها ، وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها ، سهل على الله عزّ وجلّ ، لأنّه يعلم ماكان ومايكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا ...﴾ أي أعلمناكم بتقدم علمنا ، وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها وتقديرنا الكائنات قبل وجودها لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وماأخطأكم لم يكن ليصيبكم فلا تأسوا على ما فاتكم لأنّه لو قدر شئ لكان .

﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم ...﴾ أي جاءكم ، أو أعطاكم ، وكلاهما متلازم ، فلا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم ، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً تفخرون بها على الناس ، ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ » .[(٣)]

(١) القدرية : هم الذين يزعمون أن كل عبد خالق لفعله ، ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله تعالى ، انظر التعريفات ص ٢٢٢ ، وفيهم قال الرسول ﷺ «القدرية مجوس هذه الأمة» . انظر كشف الخفاء ومزيل الالباس /الشيخ إسماعيل العجلوني ١١٩/٢ حديث رقم ١٨٦١ ط(٤) مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م ، و القدرية نسبة إلى القدر بفتح الدال وسكونها ، قال الخطّابيّ انما جعلهم مجوس هذه الأمة لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس من قولهم بالأصلين النور والظلمة يزعمون أن الخير من فعل النور ، والشر من فعل الظلمة . انظر ، التعريفات ص ٢٢٢ .

(٢) صحيح مسلم ٢٠٤٤/٤ كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام ، حديث رقم ٢٦٥٣ و ومسند الإمام أحمد ١٦٩/٢ .

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم ٣١٣/٤ -٣١٤ .

مراتب القدر : مراتب القدر أربعة :[1] .

الأولى : الإيمان بعلم الله المحيط بكل شئ الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، قال تعالى : ﴿... عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ... ﴾ .[2]

وفي الصحيح عن عمران بن حصين[3] قال : قال رجل : يارسول الله أيعرف أهل الجنة من أهل النار قال : «نعم» ، قال : ففيم يعمل العاملون ؟ قال : «كل يعمل لما خلق له أو لما يسّر له» .[4]

الثانية : الإيمان بكتابه ذلك في اللوح المحفوظ .

قال تعالى : ﴿ ... وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ .[5] وعن علي - رضي الله عنه- قال : قال ﷺ :«ما منكم من أحد ومامن نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنّة والنار ، وإلاّ وقد كتبت شقيّة أو سعيدة » .[6]

الثالثة : الإيمان بمشيئة الله النافذة ، وقدرته الشاملة

قال تعالى : ﴿... وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ .[7]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرّفه حيث يشاء » .[8]

---

(١) انظر مائتي سؤال في العقيدة الإسلامية للشيخ حافظ بن أحمد حكمي ص ٧٦ -٨٦ ، وانظر كتاب الإيمان للامام ابن تيمية ص ٣٢٨ ط(١) دار الكتب العلمية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

(٢) سورة سبأ الآية (٣) .

(٣) هو عمران بن الحصين بن عبيد بن خلف صاحب رسول الله ﷺ أسلم هو وأبو هريرة في وقت سنة سبع وله عدة أحاديث ، توفي سنة اثنين وخمسين رضي الله عنه .

(٤) فتح الباري ٤٩١/١١ كتاب القدر باب جف القلم - حديث رقم ٦٥٩٦ .

(٥) سورة يس الآية (١٢) .

(٦) فتح الباري ٧٠٩/٨ كتاب التفسير باب وكذب بالحسنى حديث رقم ٤٩٤٨ ، وصحيح مسلم ٢٠٣٩/٤ كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي حديث رقم ٦

(٧) سورة فاطر الآية (٤٤) .

(٨) صحيح مسلم ٢٠٤٥/٤ كتاب القدر باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء ، حديث رقم ١٧وبنحوه في سنن الترمذي ٥٣٨/٥ كتاب الدعوات باب ٨٩ ، حديث رقم ٣٥٢٢ .

الرابعة: الإيمان بأن الله تعالى خالق كل شئ لا خالق غيره ولا رب سواه .

قال تعالى : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.[1]

وعن حذيفة مرفوعاً : «إن الله يصنع كل صانع وصنعته»[2]

موقع الإنسان من القضاء والقدر

(هناك أمور تحدث وتتم بمحض القدرة العليا ، وعلى وفق المشيئة الإلهية وحدها ، وهي تنفذ في الناس طوعاً أو كرهاً سواء شعر الناس بها أو لم يشعروا .

فالعقول ومقدار ما يوضع فيها من ذكاءٍ أو غباء ، والأمزجة ، ومايلابسها من هدوء أو عنف ، والأجسام وماتكون عليه من طول أو قصر ، وجمال أو قبح ، والحياة والموت ، والصحة والمرض ، والسعة والضيق كل ذلك وفعله لايد للإنسان فيه .

فأصابع القدر وحدها هي التي تتحرك ، ظاهرة وباطنة لتوجه الحياة كما يريد صاحب الحياة وعلى المؤمن أن يوقن من أعماق قلبه أن هذه أمور مفروغ منها ، مفرقة على ذويها من قديم جفت الأقلام بها ، فلا رادّ لها قال تعالى :﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[3]

وقال تعالى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .[4]

قال الامام ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره للآية الأولى : «أي يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى ، وحسن وقبيح ، وشقي وسعيد ... أي هو الذي خلق وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له ، وله العزة التي لا ترام والحكمة والأحكام»[5] .

وفي تفسيره للآية الثانية قال - رحمه الله - :«يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب ... فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فالامور كلّها خيرها وشرها بيده ومرجعها إليه»[6] .

---

(١) سورة الزمر الآية (٦٢) .

(٢) الأسماء والصفات ٢٦٠ ، ٣٨٨ .

(٣) سورة آل عمران الآية (٦) .

(٤) سورة القصص الآية (٦٨) .

(٥) تفسير القرآن العظيم ٣٤٤/١ .

(٦) المصدر السابق ٣٩٧/٣ .

وهناك أمور على عكس الأولى يشعر بها الناس حين أدائها بيقظة عقولهم وحركة ميولهم ورقابة ضمائرهم ، فهم يشعرون بإستقلال إرادتهم وقدرتهم فيما يباشرون من أعمال ، فمثلاً مسألتي الكفر والإيمان خاضعة لتصرفات الإنسان .

قال تعالى : ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ...﴾ .[1]

وقال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[2]).[3]

وفي تفسيرها قال الامام ابن كثير - رحمه الله - « يقول الله تعالى :آمراً لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ، فمن اهتدى به فإنما يعود نفع ذلك الإتباع على نفسه ، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه »[4] .

وبعبارة أخرى يمكننا القول بأن النوع الأول من الأمور انما يكون الإنسان مسيّراً بها فلا يستطيع مثلاً أن يرى بأذنيه أو أن يسمع بعينيه ذلك أن الله تعالى قد خصص الأذن للسمع والعين للبصر ، فلا يملك الإنسان حيالها من أمره شيئاً .

في حين يكون الإنسان مخيراً في النوع الثاني من الأمور ، فبإمكانه أن يأكل إذا أراد أو لا إذا لم يرد ، وكذلك المشي والقعود والنوم وما شابه .

(١) سورة الكهف الآية (٢٩) .

(٢) سورة يونس الآية (١٠٨) .

(٣) انظر عقيدة المسلم / للشيخ محمد الغزالي ص ١١٠ -١١٢ ط(٣) ١٤١١هـ - ١٩٩٠م دار الدعوة الإسكندرية ، وانظر العقائد الإسلامية سيد سابق ص ١٠٠ - دار سابق بدون تاريخ وانظر أركان الإيمان /لوهبي سليمان الألباني ص ٣٠٧ ط (٤) ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٢/٤٣٤ - ٤٣٥ .

المبحث الرابع
النبوات في دراسة ابن كثير
وفيه أربعة مطالب

المطلب الأوّل : موقفه من قصص الأنبياء .

المطلب الثاني : عصمة الانبياء .

المطلب الثالث : الأنبياء وما يتعلق بأوصافهم ورسالاتهم ومعجزاتهم والمفاضلة بينهم .

المطلب الرابع : رأيه في الكرامات .

المطلب الأوّل
موقفه من قصص الانبياء

قصص الأنبياء يعتبرها الإمام ابن كثير - رحمه الله تعالى - من أهم العوامل النفسية التي لجأ إليها القرآن الكريم في الجدال مع مخالفيه ، وفي التبشير برضوان الله تعالى والتحذير من معصيته ، فقد قال - رحمه الله - عند تفسير قوله تعالى :﴿يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .[1]

(أنذر الله تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته ، وبشر وحذّر فقال تعالى : ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ أي ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ والذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عن العمل بها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون أي ماكثون فيها مكثاً مخلّداً) .[2]

ويؤكد الإمام ابن كثير على أن محمّداً ﷺ لما جاء بهذه القصص الرائعة عن الأنبياء قبله وهو النبي الأمّي ، كان ذلك أعظم دليل على أنّ ماجاء به هو وحي إلهي .

قال تعالى : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .[3]

قال الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى - في تفسير هذه الآية الكريمة : «هذه القصص وأشباهها من أنباء الغيب ، نوحيها إليك على وجهها كأنك شاهدها ، ولم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها حتى يقول من يكذبك أنك تعلمتها منه ، بل أخبرك الله بها مطابقةً لما كان عليه الأمر الصحيح كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك فاصبر على تكذيب من كذّبك من قومك وأذاهم لك ، فإنّا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ونجعل العاقبة لك ولأ تباعك في الدنيا والآخرة ، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم»[4] .

---

(١) سورة الأعراف الآيتان (٣٥-٣٦) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/٢١١ .

(٣) سورة هود الآية (٤٩) .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٢/٤٤٩ .

قال تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ...﴾ .(1)

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ .(2)

ويرى الإمام ابن كثير –رحمه الله تعالى –أن قصص الأنبياء تدلل على أن الدّين كله من عند اللّه ، وأنهم جميعاً دعوا إلى عبادة اللّه وحده دون سواه ، فجميعهم قالوا لأقوامهم ماقاله نوح عليه السلام لقومه ﴿ ... يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ .(3)

وقال تعالى :﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(4)

قال الإمام ابن كثير – رحمه اللّه – في تفسيره لهذه الآية الكريمة : «فكل نبي بعثه اللّه يدعو إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له » .(5)

أما عن تكرار القصص في مواضع شتى من سور القرآن الكريم ، فيرى الإمام ابن كثير – رحمه اللّه – أنها جاءت للمواعظ ، والعبر ، والتحذير من معصية اللّه وأن فيها تسلية وتثبيتاً لقلب الرسول ﷺ قال تعالى : ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .(6)

قال الإمام ابن كثير – رحمه اللّه – في تفسير هذه الآية الكريمة : «وتلك أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم ، وكيف جرى لهم من المحاجّات والخصومات وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى وكيف نصر اللّه حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين كل هذا مما نثبّت به فؤادك أي قلبك يامحمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة ... » .

---

(1) سورة غافر الآية (51) .

(2) سورة الصافات الآيتان (171-172) .

(3) سورة المؤمنون الآية (23) .

(4) سورة الأنبياء الآية (25) .

(5) تفسير القرآن العظيم 3/176 .

(6) سورة هود الآية (120) .

المطلب الثاني
عصمة الانبياء

العصمة في اللغة : الإمساك ، والاعتصام، والاستمساك قال تعالى :﴿...لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ...﴾ [١] أي لا شئ يعصم منه ، والاعتصام التمسك بالشئ ، قال تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا...﴾،[٢] واستعصم : استمسك ، كأنه طلب ما يعتصم به من ركوب الفاحشة ،[٣] قال تعالى :﴿... وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ...﴾ .[٤]

أمّا في الاصطلاح : عصمة الأنبياء ، حفظ الله تعالى إيّاهم بما خصهم به من صفات الجوهر أولاً ، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسميّة والنفسيّة ثانياً ، وثالثاً بالنصرة وتثبيت الأقدام ورابعاً بإنزال السكينة عليهم وبالتوفيق .[٥]

فالعصمة إذن ثابتة للأنبياء ، وهي من صفاتهم التي أكرمهم الله تعالى بها وميّزهم على سائر البشر ، فلم تكن لأحد إلا للأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم ، والحكمة من ذلك أنّ الله عزّ وجلّ أمر باتباعهم والاقتداء بهم والسير على منهجهم ، فهم القدوة الحسنة والأسوة الصالحة ، فلو جاز وقوعهم في المعصية، أو ارتكابهم للموبقات والآثام لأصبحت المعصية مشروعة ، وكيف يصح أن يأمر القائد بالفضيلة وينهى عن الرذيلة ثم يرتكب هو انواع الفواحش والمنكرات .[٦]

---

(١) سورة هود الآية (٤٣) .

(٢) سورة آل عمران الآية (١٠٣) .

(٣) انظر المفردات في غريب القرآن ص ٣٣٦ - ٣٣٧ ، وانظر عصمة الأنبياء في الكتاب والسنة / محمد الخضر بن الناجي ضيف الله ص ١١ ، ١٩ - ٢٠ بدون طبعة ولا تاريخ ، وانظر النبوة والأنبياء في ضوء القرآن / أبي الحسن الندوي ص ٤٩ ط(٢) ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م - مكتبة وهبة القاهرة .

(٤) سورة يوسف الآية (٣٢) .

(٥) انظر المفردات ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

(٦) انظر النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ص ٤٩ - ٥٠ .

جاء في كتاب العقيدة الإسلامية : « ... وحيث ثبت أن الرسول ﷺ هو المثل الأعلى في أمته الذي يجب الاقتداء به في اعتقاداته ، وأفعاله ، وأقواله ، وأخلاقه ، إذ هو الأسوة الحسنة بشهادة الله له وجب أن تكون كل اعتقاداته ، وافعاله ، وأقواله ،وأخلاقه الاختيارية بعد الرسالة موافقة لطاعة الله تعالى ، ووجب ألاّ يدخل في شئ من اعتقاداته ، وأفعاله وأقواله ، واخلاقه ، معصية الله تعالى لأن الله تعالى أمر الأمم الاقتداء برسلهم ، فإذا أُمكن أن يفعل الرسل بعد الرسالة المعاصي كان معنى الأمر باتخاذهم أسوة في حال أن المعصية جزء من أفعالهم أمراً بالمعصية ، وفي هذا تناقض ظاهر » .[1]

قال تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ .[2]

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسيرهذه الآية الكريمة : (يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبرء منهم ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ ...﴾ أي وأتباعه الذين معه ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ ...﴾ تبرأنا منكم أي من دينكم وطريقتكم وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم مادمتم على كفركم إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له وتخلعوا ما تعبدون من دونه من الأوثان والأنداد وقوله تعالى :﴿إلا قول إبراهيم﴾ أي لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها ، إلا في استغفار إبراهيم لأبيه ، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إيّاه ، فلمّا تبين له أنّه عدو الله تبرأ منه ، وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ويقولون إن إبراهيم كان يستغفرلأبيه فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[3] .)[4]

---

(١) العقيدة الإسلامية وأسسها / عبد الرحمن حبنّكة الميداني ٢/١١٤ ط(١) ١٣٨٥هـ ١٩٦٦م .

(٢) سورة الممتحنة الآية (٤) .

(٣) سورة التوبة الآيتان (١١٣-١١٤) .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/٣٤٨ .

وومما لايتلاءم بحال من الأحوال مع عصمة الأنبياء ، بل إنه ينافيها ما ذكره كثير من المفسرين حول قصة الغرانيق[١] ، وهي سبب نزول قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٢] .

وخلاصة القصة عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة "النجم" فلمّا بلغ هذا القول ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾[٣] قال : فألقى الشيطان على لسانه : « تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهنّ لترتجى » قالوا : ماذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ ...﴾ .

وقد تصدّى الامام ابن كثير - رحمه الله تعالى - لهذه الخرافة ، وبيّن أن طرق هذه القصة كلهّا مرسلات منقطعات ، وساق أيضاً أقوال العديد من المفسرين التي كان أهمها تساؤل مفاده « كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة ؟ »[٤] .

ويرى الباحث أنّه يكفي تكذيباً لها قوله تعالى : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[٥] وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[٦] .

وقوله تعالى : ﴿...قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٧] .

وقوله تعالى : ﴿... وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾[٨] .

---

(١) واحدها : غُرْنَيق ، وغِرنْاق ، وهي الأصنام ، وهي في الأصل الذكور من طير الماء وكان المشركون يزعمون أنها تقربهم إلى الله فشبهوها بالطيور التي تعلو وترتفع في السماء .
انظر لسان العرب ١٠/٢٨٧ مادة غرنق ، ط. دار صادر .

(٢) سورة الحج الآية (٥٢) .

(٣) سورة النجم الآيتان (١٩-٢٠) .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/٢٣٠ .

(٥) سورة النجم الآيتان (٣-٤) .

(٦) سورة الحاقة الآيات (٤٤-٤٦) .

(٧) سورة يونس الآية (١٥) .

(٨) سورة الاسراء الآيتان (٧٣-٧٤) .

وإذا ثبت ذلك فلنشرع في بيان معنى التمنّي :

فهو في اللغة على معنيين :

(**الأول:** تمني القلب .

والثاني: التلاوة .

قال تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [1] .

وانما سميت القراءة أمنيّة لأن القارئ إذا انتهى إلى آية عذاب تمنّى الا يبتلى به [2] .

أما في الاصطلاح فهو :"طلب حصول الشئ سواء كان ممكناً أو ممتنعاً" [3] .

ولزيادة الأمر وضوحاً نورد أقوال بعض المفسرين .

قال في التحرير والتنوير - وهو أحسن الأقوال فيما يرى الباحث - : «كيف يروج على ذي مسكة من عقل أن يجتمع في كلام واحد تسفيه المشركين في عبادتهم الأصنام بقوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ [4] إلى أن قال : ﴿... مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ...﴾ [5] فيقع في خلال ذلك مدحها بأنها الغرانيق العلا وأن شفاعتهن لترتجى وهل هذا إلاّ كلاماً يلعن بعضه بعضاً» [6].

أما القرطبي [7] فقال : «هذا الحديث الذي فيه الغرانيق وقع في كتب التفاسير ونحوها ، ولم يدخله البخاري ولا مسلم ولا ذكره مصنف مشهور والذي في التفاسير أن النبي ﷺ تكلم بتلك الألفاظ على لسانه ، هذا أمر لا يجوز على النبّي ﷺ لأنه معصوم في التبليغ وأورد العديد من التأويلات أحسنها عنده أن النبّي ﷺ كان كما أمره ربّه عزّ وجلّ يرتل القرآن ترتيلاً

---

(١) سورة البقرة الآية (٧٨) .

(٢) انظر لسان العرب ٢٩٤/١٥ - مادة مني ، ط. دار صادر وانظر كتاب عصمة الأنبياء / محمد ابن عمر بن الحسن - فخر الدين الرازي دار الكتب العلمية - بيروت ط(١) ١٤٠١هـ ١٩٨١م .

(٣) التعريفات ص ٩٥ .

(٤) سورة النجم الآية (١٩) .

(٥) سورة النجم الآية (٢٣) .

(٦) التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور ٣٠٤/١٧ - الدار التونسية للنشر وانظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن / محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ٧٢٩/٥ - عالم الكتب - بيروت .

(٧) هو : أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي القرطبي ، صاحب كتاب التذكرة ، والجامع لأحكام القرآن ، توفي سنة ٦٧١هـ . انظر شذرات الذهب ٣٣٥/٥ .

ويفصل الآي تفصيلاً في قراءته فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكنات ، ودسّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكياً نغمة النبي ﷺ بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار فظنّوها من قول النبي ﷺ وأشاعوها »[1] .

وهذا التأويل حسب ما يرى الباحث مردود من عدة وجوه :

الأول : عدم مقدرة الشيطان على محاكاة النبي ﷺ ، فالشيطان لا يمكن له أن يتشبه بالنبي ﷺ ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ «من رآني في المنام فقد رآني حقيقة فإن الشيطان لا يتشبه بي»[2] .

وهذا حديث وإن كان ينص على عدم تشبه الشيطان بالنبي ﷺ من حيث الخلقة إلاّ انّه يفهم منه العموم .

الثاني : لو سلمنا : بمحاكاة الشيطان للنبي ﷺ فكيف لم يسمعه النبي ﷺ عندما كان يقلده ، أم أن السمع كان مقصوراً على المشركين ؟ إن هذا لا يستقيم .

الثالث : هل يستطيع الشيطان المكث في مكان يتلى فيه القرآن ؟ ولقد دلّت السنّة أن الشيطان إذا سمع الأذان فرّ وله ضراط ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ :«إذا نودى بالصلاة أدبر الشيطان له ضراط حتى لا يسمع الآذان»[3] .

فهذا مع الأذان فكيف به مع القرآن .

أما الشهيد سيد قطب - رحمه الله - فقال : «هذا الحديث الذي عرف بحديث الغرانيق هو من ناحية السند واهي الأصل جداً ، قال علماء الحديث : إنّه لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه بسند سليم متصل ثقة وهو من ناحية موضوعه يصادم أصلاً من أصول العقيدة وهو عصمة النبي ﷺ من أن يدس عليه الشيطان شيئاً في تبليغ رسالته»[4] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، ١٢/ ٨٠ -٨٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد ٣٦١/١ ، ٢/ ٢٦١ .

(٣) سنن الدارمي ٢١٨/١ كتاب الصلاة باب الشيطان إذا سمع النداء فر،حديث رقم ١٢٠٧ ط دار سحنون - تونس

(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٣٢ .

المطلب الثالث
الأنبياء وما يتعلق بأوصافهم ،ورسالاتهم ،ومعجزاتهم والمفاضلة بينهم

أولاً : صفات الانبياء :

معلوم أنّ الأنبيـاء صلوات الله وسلامه عليهم ، هم من بني البشر ، يأكلون ويشربون ويمشون في الأسـواق ، وينكحـون النسـاء ، وتعـتـريهم العـوارض التي تعـتـرى البـشـر من مـرض وشـيـخوخـة ، وموت ، قـال تعـالى : ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ .[1]

وقـال تعـالى :﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ ...﴾ .[2]

قال الامام ابن كـثير – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية الكريمة : «يخبر تعالى عن جميع من بعثهم من الرسل المتقدمين أنهم كانوا يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذي به ، ويمشون في الأسواق للتكسب ، والتجارة وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم فإنّ الله تعالى جعل لهم من السّمات الحسنة ، والصفات الجميلة ، والأقوال الفاضلة والأعمال الكاملة ، والخوارق الباهرة والأدلة الظاهرة مايستدل به كل ذي لبّ سليم ، وبصيرة مستقيمة على صدق ماجاءوابه من الله» .[3]

ونظير هذه الآية قوله تعالى :﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ...﴾ .[4]

إلا أنهم بالرغم من هذا يتصفون بصفات مما يتصف بها البشر مع الفارق الشاسع في اتصاف كلٍ بهذه الصفات ، فلو قلنا : إن من صفات الأنبياء الصدق ، فهذه الصفة يتصف بها غيرهم من بني البشر ممن ليسوا أنبياء ، لكن صفة الصدق هي الصق بالأنبياء من غيرهم ، ذلك أن معشر الأنبياء هم مصطفون من الله تعالى ، بينما غيرهم من بني البشر ممن يؤمن بالأنبياء

---

(١) سورة الفرقان الآية (٧) .

(٢) سورة الفرقان الآية (٢٠) .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/٣١٣ .

(٤) سورة الأنبياء الآية (٨) .

يحاول أن يلزم نفسه بما جاءوا به بقدر الإستطاعة ، مستعيناً في ذلك بالله رب العالمين ، وعلى ذلك فقس جميع الصفات المشتركة بين الأنبياء وغيرهم ، وأهم هذه الصفات .[1]

أولاً : الصدق

وهذه الصفة ملازمة للنبوة ، وهي وإن كانت ضرورية للبشر إلاّ أنها بالنسبة للأنبياء صفة لازمة ، بل هي من الصفات النظرية فيهم ، فلا يمكن لنبي أن يصدر منه ما يخل بالمروءة كالكذب ، لأنها صفة لاتليق برجل عادي فهل يعقل أن تليق بنبي ؟ ، ولو جاز وقوع الكذب من الأنبياء لما كان هناك ثقة فيما ينقلونه من أخبار الوحي ولذلك نجد القرآن الكريم يفصل في هذه القضية فيقول في حق سيد المرسلين ﷺ : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .[2]

يقول الشهيد سيد قطب عليه رحمة الله في ظلال هذه الآية الكريمة :

«وفي النهاية يجئ ذلك التهديد الرعيب ، لمن يفترى على الله في شأن العقيدة،وهي الجد الذي لا هوادة فيه ، يجئ لتقرير الإحتمال الواحد الذي لا احتمال غيره وهو صدق الرسول ﷺ وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه ، بشهادة أن الله لم يأخذه أخذاً شديداً ، كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ...﴾ ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية أنّ محمداً ﷺ صادق فيما أبلغهم وأنّه لو تقول بعض الأقاويل التي لم يوح بها إليه ، لأخذه الله فقتله على النحو الذي وصفته الآيات ، ولما كان هذا لم يقع فهو لابد صادق» .[3]

أما الإمام ابن كثير – رحمه الله – فقال :

«والمعنى في هذا بل هو : صادق ، بارّ. راشد . لأن اللّه عز وجل مقرر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات » .[4]

---

(١) انظر النبوة والأنبياء / محمد على الصابوني ص ٤٠ – ٤٨ ط(٢) ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م – دار الحديث ، وكتاب البداية من الكفاية في الهداية في أصول الدين /نور الدين الصابوني – تحقيق د. فتح الله خليف ص ٩٥ – ٩٦ ط ١٩٦٩م دار المعارف بمصر ، والعقيدة الإسلامية وأسسها ص ٣٨٧-٣٨٩ ، ونظام الإسلام – العقيدة والعبادة /محمد المبارك ص ١١٠ -١٢٣ – دار الفكر ط(١) ١٣٨٨هـ -١٩٦٨م ، والنبوة والأنبياء في ضوء القرآن ص ٣٣-٦٤ .

(٢) سورة الحاقة الآيات (٤٤ -٤٨) والوتين:هو العرق المعلق فيه القلب إذا قطع مات صاحبه .

(٣) في ظلال القرآن ٣٦٨٩/٦ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤١٧/٤ .

ثانياً : الأمانة :

وهي أن الأنبياء جميعاً مؤتمنون على الوحي في تبليغهم أوامر الله تعالى ونواهيه إلى عباده دون زيادة ، أو نقص ، أو تحريف ، أو تبديل .

قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ . [1]

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - «يمدح تبارك وتعالى ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ أي إلى خلقه ويؤدونها بأماناتها » . [2]

ثالثاً : التبليغ :

وهذه الصفة خاصة بالرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم [3] بأنهم بلّغوا أحكام الله التي أُنزلت وَنُزِّلت عليهم من السماء وماكتموا شيئاً بالرغم من تعرضهم للإيذاء العظيم من بني قومهم من جرّاء هذا التبليغ ، والغرض من التبليغ هو إقامة حجّة الله على الناس لئلا يبقى لأحد عذر يوم القيامة ، وهذه الصفة واجبة في حقهم صلوات الله وسلامه عليهم بتبليغ كل ما أمروا بتبليغه إلى الخلق . [4]

قال تعالى :﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ...﴾. [5]

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسيرهذه الآية الكريمة : يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمد ﷺ باسم الرسالة وآمراً له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به ، وقد امتثل عليه الصلاة والسلام ذلك وقام به أتم قيام » . [6]

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٣٩) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٩٢/٣ .

(٣) باعتبار أن من نبأه الله بخبر السماء وأمره بتبليغ غيره فهو نبي رسول ، وإن لم يأمره بتبليغ غيره فهو نبي وليس رسول ، فالرسول أخص من النبي فكل رسول نبي وليس كل نبي رسول انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٨ .

(٤) انظر الدين الخالص ٨٠/١ .

(٥) سورة المائدة الآية (٦٧).

(٦) تفسير القرآن العظيم ٧٧/٢ .

رابعاً : الفطانة :

وهو الذكاء والنباهة ، فلم يبعث أحد من الأنبياء إلاّ كان على قدر كبير من النباهة والذكاء الخارق ، ليستطيع إقامة الحجّة على قومه وقد جرت حكمة الله الأزلية أن يختار للرسالة أكمل الناس عقلاً ، وأوفرهم ذكاءً وأقواهم حجّة ، لترتفع راية اللّه عالية خفاقة ، وتنكّس جميع الرايات الآخرى ذليلة مهانة .

قال تعالى : ﴿... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ...﴾ .(١)

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - أي هو أعلم حيث يضع رسالته ، ومن يصلح لها من خلقه (٢) .

خامساً : السلامة من العيوب المنفرة :

فإنه لا يمكن أن يكون في الأنبياء الكرام عيوب خَلقية أو خُلقية تنفر الناس منهم ، كما أن الأمراض المنفرة كالجذام والبرص ، لا تكون في أحد من الأنبياء ، فالله عز وجل قد صانهم مما ينفر النفوس منهم .

وماروى عن أيوب عليه السلام أنه مرض واشتد به المرض حتى تعفن جسده وأصبح الدود يخرج منه ، حتى كرهته زوجته ، فإن هذا من الأكاذيب والأباطيل التي نقلت عن الإسرائيليات التي لا يصح الأخذ بها أو مجرد تصديقها ، لأنها تتنافى مع صفات الأنبياء والأهم من ذلك أن القرآن الكريم لم يذكر شيئاً من هذا ، إنما الذي ذكره أنّه قد أصابه الضر فدعا ربّه فكشف عنه الضر ، قال تعالى :﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ...﴾ .(٣)

أما الإمام ابن كثير - رحمه الله- فلم يسر على منهجه الذي عهدناه عليه حيال الترّهات والأساطير وغيرها من الإسرائيليات مما لا يتوافق مع عقديتنا في الأنبياء والمرسلين ، فقد أورد - رحمه الله - في قصة ابتلاء أيوب بعض الإسرائيليات واكتفى بقوله : « وفيها غرابة ، أو وهذ الحديث غريب جداً » (٤) .

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٢٤) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/١٧٣ .

(٣) سورة الأنبياء الأيتان (٨٣ ، ٨٤) .

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/١٨٨ .

ومثل هذه القضية تحتاج إلى رد حاسم لحساسيتها ، فكان الأجدر به رحمه الله أن يتولى مثل هذا الرد ولا يكتفي بما سبق وأن قال ، ومادون ذلك مما يعترى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا ينقص من قدرهم،ولا يزري بمقاماتهم ، وهذا الذي يعترى الأنبياء مما جاء في هذه الصفة ، هو من الله تعالى تحقيقاً للابتلاء الذي يبتلي به عباده المؤمنين .

عن مصعب ابن سعد عن أبيه[1] - رضي الله عنهما - قال : قلت يارسول الله أيّ الناس أشد بلاءً ؟ قال : الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من الناس ، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خفف عليه ، ولا يزال البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وماعليه خطيئة .[2]

وباعتبار أن الإبتلاء قد تعرض له الأنبياء والرسل والدعاة من أتباعهم نود أن نسلط الضوء عليه بعض الشئ لعله يكون زاداً على الطريق .

معنى الابتلاء

قبل الخوض في معنى الابتلاء ، فإنه يحسن بنا أن نوضح أن هناك ثلاثة ألفاظ تستخدم لهذا المعنى ذلكم هي : الابتلاء ، الفتنة ، المحنة .

فالإبتلاء : في اللغة «مأخوذ من الفعل ابتلى ، ومجرده بلى ، فنقول بلاه بلواً وبلاءً أي اختبره ومنه قوله تعالى :﴿... وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً...﴾[3] أي نختبركم وابتلى اختبر ومنه قوله تعالى : ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ...﴾[4] »[5] .

---

(١) هو سعد بن (أبي وقاص) مالك بن أهيب بن مناف ... بن كعب بن لؤي أحد العشرة ، وأحد السابقين الأولين ، شهد بدراً ، والحديبية ، وأحد الستة أهل الشورى ، أمّره عثمان على الكوفه كان آخر المهاجرين وفاة توفي سنة ٥٥هـ . انظر سير أعلام النبلاء ١/٩٢ -١٢٤ .

(٢) سنن الترمذي ٤/٦٠٢ كتاب الزهد،باب ماجاء في الصبر على البلاء حديث رقم ٢٣٩٨ ، وفي سنن الدارمي ٢/٦٢٦ كتاب الرقاق،باب في أشد الناس بلاء حديث رقم ٢٧٨٦ ، وفي سنن ابن ماجة ٢/١٣١٨ كتاب الفتن،باب الوقوف عند الشبهات حديث رقم ٣٩٨٤ .

(٣) سورة الأنبياء الآية (٣٥) .

(٤) سورة النساء الآية (٦) .

(٥) لسان العرب ١/٣٥٥ .

والفتنة: فإنها تأتي بمعنى الإختبار والامتحان[1] فيقال فتنت الذهب والفضة أي وضعتها على النار ، وأذبتها حتى يتميز الرديء من الجيد ، وفتن امتحن واختبر ، ومنه قوله تعالى : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم...﴾[2]

والفتنة الإزالة : ومنه فتن الرجل عن دينه أزاله عنه وغيره فتركه .

والفتن : الإحراق بالنار ، ومنه قوله تعالى :﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾.[3] أي يحرقون

والفتنة القتل ، قال تعالى : ﴿...فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ .[4] أي يقتلوكم .

أما المحنة : فهي من الفعل محن ومحنت الفضة إذا صفّيتها وخلّصتها بالنار وامتحن الله قلوبهم خلّصها وصفّاها ، قال تعالى : ﴿..أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ...﴾.[5]

وفي حديث الشعبي «المحنة بدعة » وهي أن يأخذ السلطان الرجل فيمتحنه ويقول : فعلت كذا وكذا ، فلا يزال به حتى يقول مالم يفعله ، أو ما لايجوز قوله يعني إن هذا التصرف من المسئول بدعة تخالف الشرع يحاسب عليها[6] .

وبعد أن بينّا معنى الإبتلاء فإنه إذا أمعنّا النظر في قوله تعالى :﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[7] ، نلاحظ أن السورة الكريمة ابتدأت بعد الحروف المقطعة بالحديث عن الإيمان والفتنة التي يتعرض لها المؤمنون لتحقيق هذا الإيمان ، وكشف الصادقين والكاذبين بالفتنة والإبتلاء إلا .أن الإبتلاء كان في صورة إستفهام استنكاري ينكر على الناس مفهومهم للإيمان باعتباره كلمة تقال باللسان .

إن الإيمان ليس كلمة تقال ، انما هو حقيقة ذات تكاليف ، وأمانة ذات أعباء ، وجهاد يحتاج إلى صبر ، وجهد يحتاج إلى احتمال ، فلا يكفي أن يقول الناس آمنا دون أن يتعرضوا

---

(١) المصدر السابق ٣٣٤٦/٥ .

(٢) سورة العنكبوت الآيتان (٢-٣) .

(٣) سورة الذرايات الآية (١٣) .

(٤) سورة النساء الآية (١٠١) .

(٥) سورة الحجرات الآية (٣) .

(٦) انظر لسان العرب ٦/ ٤١٥٠ .

(٧) سورة العنكبوت الآيات (١-٣) .

للفتنة فيثبتوا ، عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم ، خالصة قلوبهم ، كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به ، فالإيمان أمانة الله في الأرض ، لا يحملها إلا من هم أهل لها ، وفيهم قدرة على حملها وفي قلوبهم تجرد وإخلاص لها .

أما عن انواع الفتنة التي يتعرض لها المؤمن فهي كثيرة يصعب حصرها نذكر منها على سبيل المثال :

١- تعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله ، ثم لا يجد النصير الذي يسانده ويدافع عنه ولايملك النصرة لنفسه ، وهذه هي الصورة الماثلة في الذهن للفتنة حين تذكر لكنها ليس أعنف صور الفتنة ، بل ربما كانت هناك فتن أدهى منها وأمر .

٢- منها مثلاً فتنة الأهل ، والأحبة الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه ، وهو لا يملك عنهم دفعاً ، وقد يهتفون به ليسالم أو يستسلم ليرفع عنهم الأذى والهلاك .

٣- وهناك فتنة إقبال الدنيا على أهل الباطل ، ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين تهتف لهم الدنيا ، بينما المؤمن لا يشعر بقيمة الحق الذي معه إلا القليلين من أمثاله ، فإذا طال الأمر وابطأ نصر الله كانت الفتنة أشد وأقسى ، وكان الإبتلاء أشد وأعنف فلا يثبت إلا من أخلص وجهه لله .(٢)

ومن هنا ومن خلال تتبع آيات القرآن الكريم ، والاحاديث النبوية الشريفة ودراسة أحوال الناس في مراحلهم المختلفة نستطيع أن ندرك أن الإبتلاء سنّة لله في خلقه ... ولذا قال تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ...﴾(١)

---

(١) بتصرف من تفسير في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٢٠ .

(٢) سورة الإنسان الآية (٢) .

الابتلاء في حياة النبي ﷺ

إن المطالع لسيرة سيدنا محمد ﷺ ، يجد أنه ولد يتيماً لم ير أباه ، وفقد أمه صغيراً ونشأ فقيراً يرعى الغنم ، ولما أرسله الله عزّ وجلّ وقف الطواغيت في وجهه يصدّون عن دين الله ، وفي العام العاشر للبعثة توفي عمّه أبو طالب ، الذي كان يقف بجانبه يحميه ويدافع عنه ، وتوفيت كذلك زوجته خديجة التي آمنت به حين كفر النّاس به وصدّقته حين كذّبه الناس وواسته بمالها حين حرمه الناس ، فحزن لذلك النبي ﷺ حزناً شديداً ، وسمّى ذلك العام بعام الحزن ، لقد مات أولاده الذكور جميعاً في حياته فصبر واحتسب ، أما عن صنوف الابتلاءات الأخرى فهي كثيرة هي الآخرى نذكر منها :

١- الاستهزاء والسخرية :

قال تعالى :﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ .[١] قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : «يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ يعنونه بالعيب والنقص على سبيل التنقص والإزدراء »[٢]

ومما جاء في كتب السيرة :«ومر رسول الله ﷺ فيما بلغني بالوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وبأبي جهل وابن هشام فهمزوه واستهزؤا به فغاظه ذلك فأنزل الله تعالى عليه من أمرهم[٣] ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [٤]

وروى الإمام البخاري رحمه الله بسنده المتصل عن جندب بن سفيان[٥] رضي الله عنه قال : اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً[٦] ، فجاءت امرأة فقالت : «يامحمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً » فأنزل الله عز وجل :﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ .[٧]

---

(١) سورة الفرقان الآية (٤١) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/٣١٩

(٣) السيرة النبوية/ ابن هشام ٢/٤٦ - دار الريان للتراث - الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م .

(٤) سورة الأنعام الآية (١٠) .

(٥) هو جندب بن عبد الله بن سفيان الإمام أبو عبد الله البجلي صاحب النبي ﷺ نزل الكوفة وله عدة أحاديث عاش إلى حدود سنة سبعين ، انظر سير أعلام النبلاء ٣/١٧٤-١٧٥ .

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري /العسقلاني ٩/ ٣ كتاب فضائل القرآن باب كيف نزل الوحي حديث ٤٩٨٣ / ط. دار الفكر .

(٧) سورة الضحى الآيات (١-٣) .

قال ابن حجر[1] في الفتح : «والمرأة هي أم جميل بنت حرب امرأة أبي لهب» .[2]

وهناك أمثلة كثيرة على هذا اللون من ألوان الابتلاء ، أمّاعن قصدهم في سخريتهم من النبّي ﷺ فهو التحقير وتهوين الشأن في عيون الناس ، حتى لا يكون لكلامه تأثير في النّفوس ، ووقع في القلوب ، ذلك لأن الشخص الذي يهزأ به ، ويسخر منه في عرف الجاهلية ضعيف العقل ، قليل الإدراك ، لايسمع إليه ، ولا يكترث لكلامه ، وبالتالي فهو غير جدير بالاتباع الأمر الذي يفتّ في عضده ويحاربه نفسياً فيضعف حماسه لفكرته ودعوته ، فيتراجع عما يدعو الناس إليه .[3]

٢ - الاتهام بالكذب :

وهو من صنوف الإبتلاء الذي يمارسه أعداء الله عز وجل ضد الرسل وأتباعهم ، ولقد صرّح القرآن الكريم في آياته التي توضح ظلم الطواغيت ، واتباعهم هذا الاسلوب القبيح .

فقال تعالى : ﴿... وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ .[4]

وقال تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا...﴾ .[5]

وقال تعالى : ﴿...إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ...﴾ .[6]

---

(١) هو أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ولد سنة ٧٧٣هـ ، إرتحل إلى بلاد الحجاز والشام واليمن ومكة ، أكثر جداً من المسموع ، بلغ من العلم مبلغاً عظيماً ، حتى صار إطلاق لفظ الحافظ عليه كلمة إجماع ، ورحل الطلبة إليه من الأقطار ، من أهم مصنفاته فتح الباري في شرح صحيح البخاري توفي رحمه الله سنة ٨٥٢هـ . انظر البدر الطالع ١/٨٧-٩٠ والضوء اللامع ٢/٣٦-٤٠ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري /العسقلاني ٩/ ٣ كتاب فضائل القرآن باب كيف نزل الوحي حديث ٤٩٨٣ / ط. دار الفكر .

(٣) بتصرف من الابتلاء والمحن في الدعوات /د. محمد عبد القادر أبو فارس .

(٤) سورة ص الآية (٤) .

(٥) سورة الشورى الآية (٢٤)

(٦) سورة الفرقان الآية (٤)

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية : (يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن «إن هذا إلا إفك إفتراه أي كذب افتراه يعنون النبي ﷺ)[1].

والهدف من هذا هو الافتراء والاختلاق والتشنيع عليهم لتشويه صورتهم وإثارة الشكوك حولهم ، وحتى يفقد الناس ثقتهم بهم .

٣- الاتهام بالجنون :

وهو من الأساليب التي يتبعها الطواغيت ضد أولياء الله ليشككوا في قدراتهم العقلية ولقد سجل القرآن الكريم هذا الاسلوب في أكثر من آية ، فقال تعالى :

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ .[2]

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ .[3]

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ .[4]

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية الكريمة : «يقول : كيف لهم بالتذكر وقد أرسلنا إليهم رسولاً بيّن الرسالة والنذاره ، ومع هذا تولوا عنه وماوافقوه بل كذّبوه وقالوا : معلّم مجنون)[5].

٤- الاتهام بالسفاهة والضلالة والافساد :

إنه من المنطق المعكوس والفكر المنكوس أن يسفّه العاقل ، ويعقّل السفيه ويضلل المهتدى ويهتدى المضل ، فهذا أبو جهل عمرو بن هشام يتعلق بأستار الكعبة ويقول : «اللهم من كان

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٣٠٩.

وللباحث اعتراض على عبارة الامام ابن كثير - رحمه الله - في قوله : «الجهلة من الكفار» حيث اعتبر أن بعض الكفار جهلة ، بايراده حرف الجر من ، وهو حرف تبعيضي مما يفهم منه أن البعض الآخر من الكفار ليسوا جهلة ، وهذا غير صحيح ، فكل من لم يؤمن بالله تعالى فهو جاهل مهما بلغ من العلم الدنيوني ، فقد وصفهم الله تعالى بأنهم دواب فقال تعالى : ﴿إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ سورة الانفال الآية (٥٥) ، وعليه كان الأولى أن يقول : «الجهلة الكفّار» .

(٢) سورة المؤمنون الآية (٧٠) .

(٣) سورة الحجر الآية (٦) .

(٤) سورة الدخان الآية (١٤) .

(٥) تفسير القرآن العظيم ٤/١٤٠ .

أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لم يعرف فأحنه الغداة» فأبو جهل ومن معه من الطواغيت يرون أن محمداً ﷺ ضال مبتدع قاطع للأرحام ، ويطلبون من الله تعالى إهلاكه وإفناءه ، هو ومن معه من قاطعي الأرحام ، أما أبو جهل وسائر طواغيت قريش فهم هداة مهديّون يصلون الأرحام ويصلّون بالليل والناس نيام ، وليس هذا هو منطق أبو جهل فحسب ، بل منطق من سبقه من الطواغيت ، ألم يقل فرعون كما صرّح القرآن الكريم : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ .(١)

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية الكريمة : (يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغيّر رسومهم وعاداتهم ، وهذا كما يقول المثل : صار فرعون مذكّراً يعني واعظاً يشفق على الناس من موسى عليه السلام) (٢).

٥- الاتهام بالسحر :

وهو من جملة ما وصف به النبي ﷺ من قبل المشركين حيث زعموا أن ماجاء به من معجزات إنّما هي محض سحر ، وخداع ، وضلال ، وتمويه على الناس لا حقيقة له ، وهذا ماحكاه القرآن الكريم عنهم في آيات كثيرة .

قال تعالى :﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ .(٣)

وقال تعالى : ﴿...وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ .(٤)

وقال تعالى : ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ .(٥)

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله تعالى – في تفسير هذه الآية الكريمة : «يخبر تعالى نبيه محمداً ﷺ بما يتناجي به رؤساء كفار قريش حين جاءوا يستمعون قراءته ﷺ سراً من قومهم بما قالوا من أنّه رجلٌ مسحورٌ » (٦)

---

(١) سورة غافر الآية (٢٦) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/٧٦-٧٧ .

(٣) سورة يونس الآية (٢) .

(٤) سورة ص الآية (٤) .

(٥) سورة الاسراء الآية (٤٧) .

(٦) تفسير القرآن العظيم ٣/٤٤ .

٦- النفي والتشريد :

فإن المتأمل لهجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة ، وهجرتهم إلى المدينة ليجد أن ذلك كان نتيجة التضييق على الرسول ﷺ وعلى من آمن معه ، مما جعلهم يضطرون إلى الخروج من ديارهم كما قال تعالى :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ...﴾ .(١)

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية الكريمة : «أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق يعنى محمداً وأصحابه ، أي ماكان لهم إلى قومهم إساءة ، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحّدوا الله وعبدوه لا شريك له » ، (٢) ولهذا لما خرج رسول الله ﷺ دمعت عيناه وخاطب مكة قائلاً : «والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولو أني أخرجت منك ما خرجت » (٣) .

٧- التصفية الجسديّة :

فلقد حاول المشركون قتل رسول الله ﷺ ليلة الهجرة ، قرروا قتله واتفقوا أن يقوم بذلك فتية من قريش ، يضربون رسول الله ﷺ ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ويرضى أهله بالدية ، وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ .(٤)

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية الكريمة : «قال أبو جهل -لعنه الله - والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد لا أرى غيره قالوا : وماهو ؟ قال تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهداً ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرّق دمه في القبائل كلّها » (٥)

---

(١) سورة الحج الآيتان (٣٩ ، ٤٠) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢٥٥/٣ .

(٣) سنن الترمذي ٧٢٢/٥ -٧٢٣ كتاب المناقب ، باب في فضل مكة حديث رقم ٣٩٢٥ ، ٣٩٢٦ ط . دار سحنون - تونس .

(٤) سورة الأنفال الآية (٣٠) .

(٥) تفسير القرآن العظيم ٣٠٢/٢ .

سادساً : كونهم من البشر :

من تمام الحكمة الرّبانيّة أن يبعث الله إلى البشر رسولاً منهم فيه جميع غرائز البشر ، ليكون في دعوته وأفعاله وأخلاقه حجّة عليهم ، وليضرب بنفسه المثل على استطاعة البشر تطبيق أوامر الله تعالى ، وإجتناب نواهيه .

وإذا تعجب أهل الكفر من كون المرسل إليهم بشراً ، فتعجبهم هو الذي يستدعى العجب ذلك لأنه لو كان من الملائكة ، فلابد أن يأتي على صورة بشريّة حتى يستطيعوا مشاهدته وحتى تتلاءم صورته الجسديّة مع مستوى حواسهم ثم إذا عرفوا أنّه ليس بشراً بتركه للطعام والشراب ، وبقيّة الغرائز البشّرية كان هذا مبرراً لهم في مخالفته باعتباره أنّه لا يحمل مثل غرائزهم .

سابعاً : كونهم من الذكور :

اختار الله عز وجل رسله كلّهم من الرجال ، ولم يخترهم سبحانه من النساء وفي ذلك حكمة بالغة ، ذلك أن صنف الرجال أجدر بحمل الرسالة من صنف النساء لأمور تقتضيها ظروف الدعوة في صفوف الرجال .

ولأن الرسول ﷺ هو الآمر والناهي ، والحاكم والقاضي في أمته وهو القوّام عليهم في أمورهم كلّها .

ولو أنه كان أنثى لم يتم ذلك بوجه كامل ، ولا ستنكف الأقوام عن الإتباع والطاعة .

قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ . (١)

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك أومنهم من أنكر ذلك ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فنزلت وقال : ﴿فاسألوا أهل الذكر ...﴾ يعني أهل الكتب الماضية أبشراً كانت الرسل أم ملائكة ؟! فإن كانوا ملائكة أنكرتم ، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمداً ﷺ رسولاً .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : «والمراد بالذكر هنا ليس هو القرآن ، لأن المخالف لا يرجع في اثباته بعد إنكاره إليه ». (٢)

---

(١) سورة النحل الآية (٤٣) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٧٠ .

ثانياً : رسالاتهم :

متى يجب الإيمان بالرسل ؟

إنّه متى ثبت لدينا بالدليل القاطع أن أحداً من الناس رسول من عند الله وجب الإيمان به فليس كل إنسان يدّعى النّبوية أو الرسالة نسلّم له دعواه فيها ، أما الإستدلال على صدق الرسول في دعواه انما يكون بواحد من أربعة أمور .[1]

الأول : جوهر الرسالة التي يحملها :

إن الدعوة التي تشتمل على أصول العبادات ، ونظم المعاملات ، ومناهج الأخلاق ، ومبادئ السياسة ، وموافقتها لصالح الناس وسعادتهم في شتى مطالب حياتهم ، وجزئياتها ، موافقة للحق بلا مرية ، فلا تهافت في نصوصها ، ولاضعف في أصول شريعتها ولا فروعها ، إنما تكون دعوة من الله ، وصاحب هذه الرسالة هو رسول من عند الله لأنه مهما بلغت العبقرية بإنسان فإنه لا يخلو من شئ من الضعف أو النقص أو الجهل .

الثاني : الاستدلال بشخصية الرسول ﷺ وأخلاقه وسلوكه على صدقه :

عند دراسة أي شخصية من الشخصيات ، فإذا وجدناها شخصية غير عادية من حيث كونها مصانة بالعصمة الربانّية من جميع جوانبها ، ومتصفة بصفات الكمال الإنساني في خلقه وسلوكه ، وعصمته عن الخطأ فإنما تكون هذه الشخصية هي شخصية رسول من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، في حين أن أي شخصية غير شخصية الرسول مهما كان صاحبها عبقرياً ، وفذاً ، وفيلسوفاً ، فلابد أن يظهر لمعاصريه سقوطه الفاضح في ناحية من نواحي خلقه أو سلوكه في جانب من جوانب عبقريته .

الثالث : الاستدلال بأخبار وصفات الرسل السابقين وانطباقها عليه تماماً :

من المعلوم أن جميع الأَنبياء والمرسلين إنّما أُرسلوا من قبل مرسل واحد ذلكم هو الله رب العالمين ، وقد أرسلهم بعقيدة واحدة هي دعوة العباد إلى عبادة رب العباد وإن كانت شرائعهم مختلفة ، ويعتقد الباحث أن هذا هو الإسلام بعينه الذي جاء به محمدٌ ﷺ أو بمعنى آخر أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا مسلمين .

---

(١) انظر العقيدة الإسلامية وأسسها ص ٣٢١ .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(١) أي لم أطلب منكم على نصحي شيئاً ، وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل والإسلام دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم ، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم (٢)

وهذه طائفة من الآيات الكريمات نستدل بها على ما سبق .

قال تعالى على لسان نوح - عليه السلام - :﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ .(٣)

وقال تعالى على لسان إبراهيم الخليل - عليه السلام - :﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ .(٤)

وقال تعالى على يوسف - عليه السلام - :﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ...(٥)

وقال تعالى على لسان موسى - عليه السلام - : ﴿... يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ .(٦)

وقال تعالى على لسان بلقيس :﴿... رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.(٧)

وقال تعالى :﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾.(٨)

وقال تعالى : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ .(٩)

(١) سورة يونس الآية (٧٢) .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٢/٤٢٥-٤٢٦ .

(٣) سورة يونس الآية (٧٢) .

(٤) سورة البقرة الأيتان (١٣١-١٣٢) .

(٥) سورة يوسف الآية (١٠١) .

(٦) سورة يونس الآية (٨٤) .

(٧) سورة النمل الآية (٤٤) .

(٨) سورة المائدة الآية (٤٤) .

(٩) سورة المائدة الآية (١١١) .

وقال تعالى على لسان خاتم الرسل وسيّد البشر ﷺ : ﴿...إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ .[1]

أما من السنّة المطهرة فقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «نحن معاشر الأنبياء أولاد علاّت[2] ديننا واحد وأمهاتنا شتّى» .[3]

والمعنى : أن شرائعهم وإن اختلفت في الفروع ، ونسخ بعضها بعضاً حتى انتهى الجميع إلى ما شرّع الله تعالى لمحمد ﷺ وعليهم أجمعين، إلا أن كل نبي بعثه الله فإنّما دينه الإسلام ... فأولاد العلاّت أن يكون الأب واحداً ، والأمّهات متفرّقات[4] ، فالاب بمنزلة الدّين وهو التوحيد والأمهات بمنزلة الشرائع في اختلاف أحكامها .[5]

هذا ، ومن تمام رسالة كل رسول أن يؤمن بمن سبقه من رسل الله وأن يدعو قومه إلى الإيمان به وبكل رسول يأتي من بعده ، فقد بشر موسى عليه السلام بعيسى عليه السلام ، وبشر عيسى بمحمد ﷺ . قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ،[6] في حين لم يبشر محمد ﷺ بأحد من بعده باعتبار أن رسالته هي خاتمة الرسالات ، ولذلك كل من زعم أو يزعم أو سيزعم أنه رسول من بعد محمد ﷺ فهو كذاب قولاً واحداً .

الرابع : الاستدلال بالمعجزة التي يجريها الله على يديه وسيأتي بحثها .

---

(١) سورة الأنعام الآيتان (١٦٢-١٦٣) .

(٢) مأخوذ من شرب العلل بعد النهل .

(٣) فتح الباري ٤٧٧/٦ كتاب الأنبياء باب ٤٨ ، حديث رقم ٣٤٤٣ ط السعودية وصحيح مسلم ١٨٣٧/٤ كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام حديث رقم ١٤٣، ١٤٤ (ط) دار الفكر ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م .

(٤) وأما إخوة الأخياف فعكس هذا أن تكون أمهم واحدة من آباء شتى ، وأخوة الأعيان هم الأشقاء من أب واحد وأم واحدة والله سبحانه وتعالى أعلم ، انظر البداية والنهاية ١٥٤/٢ .

(٥) البداية والنهاية ١٥٤/٢ ، و انظر كتاب النبوّات / شيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٢٧ دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

(٦) سورة الصف الآية (٦) .

ثالثاً : معجزاتهم :

يجب على كل مسلم أن يعتقد أن الله تعالى قد أيّد أنبياءه بالمؤيدات التى لم تعهدها العقول من قبل ليثبتوا بها للناس صدقهم فيما يدعون إليه ، وأنهم مرسلون من عند الله وهذه المؤيدات يطلق عليها لفظ معجزات ، وسميت بذلك لأنها أفعال يعجز البشر عن فعل مثلها ومفردها معجزة ، وقد عرفها العلماء فقالوا :

«هي الأمر الخارق للعادة يجريه الله على يد نبي مرسل ، يقيم به الدليل على صدق نبوته» (١)

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون معجزة كل رسول مماهو شائع بين قومه المرسل إليهم ليكون ذلك أبلغ في تأييده ، وأقوى في الإلزام كمعجزة عيسى عليه السلام بإحياء الموتى لما كان عليه اليهود من إنكار الروح .

وكمعجزة موسى عليه السلام وهي العصا التي أصبحت حيّة ، وبلعت عصيّ السحرة وحبالهم لما برع فيه المصريون من السحر آنذاك ، وإنّما جاءت معجزات الأنبياء قبل محمد ﷺ على هذا النحو لأن العقول البشرية لم تكن ناضجة بالمعنى المطلوب حتى تقتنع بالحجة والبرهان العقلي ، حتى إذا بلغت البشرية سن الرشد وبدأ نضوجها العقلي يكتمل شاءت إرادة الله تعالى أن يأتى بالرسالة العامة على يد رسوله محمد ﷺ ، فأيّده بالمعجزة العقليّة الخالدة ألا وهي القرآن الكريم المعجز باسلوبه وبلاغته ، والذي تحدّى به محمد ﷺ العرب أن يأتوا بمثله فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فقال جلّ ثناؤه :

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ . (٢)

ثم لمّا علم عجزهم عن الإتيان بمثله ، تحدّاهم أن يأتوا بعشر سور من مثله قال تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ...﴾ . (٣)

---

(١) هناك أمور خارقة للعادة يعطيها الله للأنبياء قبل النبوة وتسمى ارهاصاً ، كالغمامة التي ظللت محمداً ﷺ قبل النبوة وهو في طريقه إلى التجارة مع عمه أبي طالب ، وهناك أمورأخرى خارقة للعادة يجريها الله على أيدي بعض الصالحين ، ولا تقترن بدعوى النبوة ، ويطلق عليها اسم الكرامة ، كما حدث للسيدة مريم أم عيسى عليهما السلام ، عندما كانت تأتيها في مصلاّها فاكهة الصيف شتاءً ، وفاكهة الشتاء صيفاً ، وكانت تهز النخلة بعد ولادتها لعيسى فيسقط عليها رطباً جنياً ولم يكن عليها تمر من قبل .

(٢) سورة الإسراء الآية (٨٨) .

(٣) سورة هود الآية (١٣) .

ثم كما أعجزهم ذلك للمرة الثانية تحدّاهم أن يأتوا بسورة من مثله ،فقال جل ثناؤه :

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ...﴾.[1] فعجزوا للمرة الثالثة وهم الذين اشتهروا بالفصاحة والبراعة في فنون القول .

قال الامام ابن كثير – رحمه الله – :«لو اجتمعت الإنس والجنّ كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله الله على رسوله لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه ولو تعاونوا وتساعدوا وتضافروا فإن هذا أمر لا يستطاع ، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ، ولا مثال له ، ولا عديل له» .[2]

ويلاحظ الباحث : أن الله سبحانه في مختلف مراحل التحدي بالقرآن ، انما تحدّاهم بأن يأتوا بالمثل إن بكل القرآن أو بعشر سور منه أوبسورة ولم يتحدّهم بالقرآن ،فإذا عجزوا عن الاتيان بالمثل فكيف يكون حالهم لو تحدّوا بالقرآن نفسه ؟! إنهم سيكونون أعجز وأعجز واعجز فسبحانك ربي سبحانك .

انواع المعجزات

معجزات الأنبياء أنواع :

منها معجزة كونيّة كانفجار الماء من الحجر حين ضربه موسى بعصاه ، لمّا استسقاه قومه وكانشقاق البحر لموسى وانحسار الماء عنه لما فرّ بدينه والذين معه من فرعون .

ومنها أخبار غيبية كإنباء عيسى عليه السلام قومه بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم .

ومنها ماهو مخالف لقوانين الطبيعة ، كالنار التي أراد بها الكافرون إحراق إبراهيم عليه السلام ، فكانت برداً وسلاماً .[3]

(١) سورة البقرة الآية (٢٣) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦٢/٢ .

(٣) انظر مع الأنبياء في القرآن الكريم /عفيف عبد الفتاح طبّارة ص ٢١-٢٣ ، ط(٢) دار العلم للملايين .

رابعاً : المفاضلة بين الأنبياء :

قال تعالى : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ...﴾ .[1] وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ..﴾ .[2]

قال الامام ابن كثير - رحمه الله - : «يخبر الله أنه فضل بعض الرسل على بعض ، كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي ﷺ الأنبياء في السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عزّ وجلّ » .[3]

«ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء ، وأن أولوا العزم منهم ، أفضلهم ، وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن ، في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ...﴾ .[4]

وقوله تعالى :﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...﴾ .[5]

ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم ثم بعده إبراهيم ، ثم موسى ثم عيسى - عليهم السلام- على المشهور» .[6]

فإن قيل فما الجمع بين ما تقدم وبين قوله تعالى :﴿...لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ...﴾[7] والحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إستب رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال اليهودي في قسم يقسمه لا والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودي وقال : أي خبيث ، وعلى محمد ﷺ ؟ فجاء اليهودي إلى النبي ﷺ فاشتكى على المسلم ، فقال رسول الله ﷺ «لا تفضلوني على الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٣) .

(٢) سورة الإسراء الآية (٥٥) .

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/٣٠٤ .

(٤) سورة الأحزاب الآية (٧) .

(٥) سورة الشورى الآية (١٣) .

(٦) تفسير القرآن العظيم ٣/٤٦ .

(٧) سورة البقرة الآية (٢٨٥) .

القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور ، فلا تفضلوني على الأنبياء » .[1]

فالجواب من وجوه :

١- عدم التفريق الوارد في الآية الكريمة ﴿...لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ...﴾ معناه التصديق بجميع الأنبياء والرسل، فلا يفرق الناس بينهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، بل الجميع عندهم صادقون بارّون راشدون مهديون إلى سبيل الخير ، فمن كفر برسول فإنه يكفر بجميع الأنبياء والمرسلين[2] .

٢- أما في الحديث فإن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل ، وفي هذا نظر .

٣- إن هذا قاله من باب الهضم والتواضع .

٤- إن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذا الحال التي تحاكموا فيها عند التشاجر والتخاصم .

٥- ليس مقام التفضيل إليكم ، وإنما هو إلى الله عزّ وجلّ ، وعليكم الانقياد ، والتسليم له والإيمان به .[3]

---

(١) بنحوه في فتح الباري ٦/ ٤٥٠ كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى "وإن يونس من المرسلين" حديث رقم ٣٤١٤ وبنحوه في صحيح مسلم ٤/١٨٤٣ كتاب الفضائل باب من فضائل موسى - عليه السلام - حديث رقم ١٥٥ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/٣٤٢ .

(٣) المصدر السابق ١/٣٠٤ .

المطلب الرابع
رأيه في الكرامات

سبق وأن تحدثنا في معجزات الأنبياء عن المعجزة ، والإرهاص ، والكرامة ، وقلنا : أن المعجزة هي أمر خارق للعادة يجريه الله على يد نبي مرسل ليقيم به الدليل على صدق نبوته .

ولكن السؤال ، هل تقع هذه الخوارق على أيدي غير الأنبياء ؟

هذا مايقرره الإمام ابن كثير - رحمه الله -، وقد استند في ذلك على قوله تعالى: ﴿... كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .[1]

وقال : «فيه دلالة على كرامات الأولياء» .[2]

وقد ذكرنا أن مريم أمّ عيسى عليهما السلام كانت تأتيها في مصلاّها فاكهة الصيف شتاءً وفاكهة الشتاء صيفاً، وكانت تهز النخلة بعد ولادتها لعيسى فيسقط عليها رطباً جنيّاً ، ولم يكن عليها تمر من قبل .

وعن جابر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ أقام أيّاماً لم يطعم طعاماً ، حتى شق ذلك عليه ، فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً فأتى فاطمة فقال : «يابنيّه هل عندك شئ آكله فإنّي جائع ؟ قالت : لا والله - بأبي أنت وأمي - فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم ، فأخذته منها فوضعته في جفنة لها وقالت : والله لأوثرنّ بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي ، وكانوا جمعياً محتاجين إلى شبعة طعام ، فبعثت حسناً أو حسيناً إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها ، فقالت بأبي أنت وأمي قد أتى الله بشئ فخبأته لك ، قال : «هلمي يابنيّة » قالت : فأتيته بالجفنة فكشفت عنها فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً ، فلما نظرت إليها بهت وعرفت أنها بركة من الله ، فحمدت الله وصليت على نبيه وقدمته إلى رسول الله ﷺ فلمّا رآه حمد الله ، وقال :«من أين لك هذا يابنيّه » ؟ قالت : يأبت :«هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فحمد الله وقال : «الحمد لله الذي جعلك يابنيّة شبيهة بسيدة نساء بنى إسرائيل فإنها كانت إذا رزقها الله شيئاً وسئلت عنه

---

(١) سورة آل عمران الآية (٣٧) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٦٠ .

قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب فبعث رسول الله ﷺ إلى علي ثم أكل رسول الله ﷺ وأكل علي ، وفاطمة، وحسن، وحسين ، وجميع أزواج النبي ﷺ وأهل بيته حتى شبعوا جميعاً قالت : وبقيت الجفنة كما هي ، قالت : فأوسعت ببقيتها على جميع الجيران ، وجعل الله فيها بركة وخيراً كثيراً » . (١)

والملاحظ كماتقدم الحديث أن الإمام ابن كثير ساق ماتقدم للتدليل على أن الله تعالى يجرى الكرامات على أيدي الصالحين من عباده .

بيد أن الباحث يود التنبيه على أنه كثر في زماننا هذا الدجالون والمشعوذون حيث يقومون بأعمال هي من قبيل السحر الذي هو تخييل وتمويه وإرادة لمالا أصل له ، فهذا الأمر لا وجه للمقارنة بينه وبين الكرامة ، وللتفريق بين هذين الأمرين هو النظر في حال صاحب الكرامة وصاحب السحر ، فإن صاحب الكرامة يكون مشهوراً بالورع والتقوى والإخلاص وكل مايقربه من ربه عز وجل بخلاف صاحب السحر الذي يكون بعيداً كل البعد عن الله عز وجل .

---

(١) المصدر السابق . تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٦٠

المبحث الخامس
الكونيات في دراسة ابن كثير
وفيه مطلبان

المطلب الأول : الملائكة وما يتعلق بهم .

المطلب الثاني : الجانّ ومايتعلق بهم .

المطلب الأوّل
الملائكة وما يتعلق بهم

قال ابن حجر في معنى الملائكة : «جمع ملك بفتح اللام ، فقيل مخفف من مالك وقيل : مشتق من الألوكة ، وهي الرسالة ، وهذا قول سيبويه والجمهور وأصله لاك .

وقيل : أصله «الملك» بفتح الميم وسكون اللام ، وهو الأخذ بقوة ، وأصل وزنه (مفعل) فتركت الهمزة لكثرة الاستعمال ، وظهرت في الجمع وقال جمهور أهل الكلام من المسلمين : الملائكة أجسام لطيفة أعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة ومسكنها السموات» [(١)] .

من هم الملائكة ؟ ومما خلقوا ؟

الملائكة عالم لطيف غيبي غير محسوس ، ليس لهم وجود جسماني يدرك بالحواس وهم من العوالم غير المنظورة ، والتي لايعلم حقيقتها إلاّ اللّه تعالى [(٢)] و الملائكة خلقهم اللّه تعالى من نور ، عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي اللّه عنها ، أن رسول اللّه ﷺ قال : خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم . [(٣)]

صفات الملائكة : [(٤)]

١- المداومة على العبادة والتسبيح :

فهم مداومون على عباداتهم وتسبيحهم وأذكارهم وأعمالهم التي أمرهم اللّه عزّ وجلّ بها لهم منازل عند ربهم كما قال تعالى : ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [(٥)] .

---

(١) فتح الباري ٣٠٦/٦ ط . دار الفكر

(٢) العقائد الإسلامية ص ١١١ .

(٣) صحيح مسلم ٢٢٩٤/٤ كتاب الزهد في الرقائق باب في أحاديث متفرقة - حديث رقم (٦٠) . ومسند الإمام أحمد ١٥٣/٦ .

(٤) انظر بداية الخلق للإمام الحافظ ابن كثير - دراسة وتحقيق إبراهيم محمد الجمل ص ١١٤ط(١) ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، دار الكتاب العربي - بيروت .

٥) سورة الصافات الآيتان (١٦٤، ١٦٥) .

وعن جابر بن سمرة[1] - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا تصفّون كما تصف الملائكة عند ربها »؟ قالوا وكيف يصفون عند ربهم يارسول الله ؟ قال : «يكملون الصف الأول ويتراصّون في الصف» [2] .

وعن حذيفة - رضي الله عنه -قال : قال رسول الله ﷺ «فضّلنا على الناس بثلاث جعلت لنا الأرض مسجداً ، وتربتها لنا طهوراً وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة» [3] .

وكذلك يأتون يوم القيامة بين يدي الرب جل جلاله صفوفاً كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [4] .

٢- القوة في الخلق وحسن المنظر :

فقد ورد في صفة خزنة جهنم أنهم غلاظ شداد ، قال تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [5] .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية الكريمة : «أي طباعهم غليظة قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين» [6] .

وورد في صفة جبريل عليه السلام أمر عظيم ، قال تعالى : ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [7] قالوا كان من شدة قوته أنه رفع مدائن قوم لوط ، وكن سبعاً بما فيها من الأمم ، وكانوا قريباً من أربعمائة ألف ، ومامعهم من الدوابّ والحيوانات ، ومالتلك المدن من الأراضي والعمارات وغير ذلك ، رفع ذلك كلّه على طرف جناحه ، حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ، وصياح ديكتهم ، ثم قلبها ، فجعل عاليها سافلها ، فهو شديد القوى .

---

(١) هو جابر بن سمرة بن جنادة بن جندب ، له صحبة مشهورة ، ورواية أحاديث ، شهد فتح المدائن مات سنة ست وسبعين . انظر سير أعلام النبلاء ٣/١٨٦ .

(٢) صحيح مسلم ١/٣٢٢ كتاب الصلاة باب الأمر بالسكون في الصلاة حديث رقم ١١٩. ومسند الإمام أحمد ٥/١٠١.

(٣) بنحوه أخرج مسلم صحيح مسلم ١/٣٧١ كتاب المساجد بدون باب - حديث رقم ٤ .

(٤) سورة النبأ الآية (٣٨) .

(٥) سورة التحريم الآية (٦) .

(٦) تفسير القرآن العظيم ٤/٣٩١ .

(٧) سورة النجم الآية (٥) .

ويلاحظ الباحث أن كل هذا الذي فعله استخدم فيه طرف جناحه ، وهو الذي له ستمائة جناح فقد أخرج البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ «رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح » ،[١] وهذه هي صفتة التي خلقه اللّه عليها .

فكيف لو استخدم جناحه كله ، أو لو استخدم جناحين من أجحنته ثم كيف لم استخدمها كلها ؟؟ ، سبحانك ربي سبحانك . وبالإضافة إلى ذلك فهو ﴿ ذُو مِرَّةٍ... ﴾[٢] أي ذو خلق حسن وبهاء كما قال تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[٣] أي جبريل عليه السلام رسول من اللّه كريم ، أي حسن المنظر ، ذي قوة ، أي له قوة وبأس شديد عند ذي العرش مكين أي له منزلة ومكانة رفيعه عند اللّه تعالى ، مطاع في الملأ الأعلى أمين أي ذي أمانة عظيمة ، ولهذا هو السفير بين اللّه وبين أنبيائه عليهم السلام ، الذي ينزل عليهم بالوحي ، فيه الأخبار الصادقة والشرائع العادلة .

ومن صفات اسرافيل عليه السلام ، وهو أحد حملة العرش ، وهو الذي ينفخ في الصور بإذن ربه نفخات ثلاث أولاهن نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة البعث .

قال تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾[٦] .

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه- قال : قال رسول اللّه ﷺ : «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ، وانتظر أن يؤذن له » قالوا : كيف نقول يارسول اللّه ؟ قال «قولوا حسبنا اللّه ونعم الوكيل على اللّه توكلنا »[٧] .

---

(١) فتح الباري ٨/ ٦١٠ كتاب التفسير باب فأوحى إلى عبده ما أوحى حديث ٤٨٥٧ ، وصحيح مسلم ١٥٨/١ كتاب الإيمان باب في ذكر سدرة المنتهى - حديث رقم ٢٨١ .

(٢) سورة النجم الآية (٦) .

(٣) سورة التكوير الآية (١٩) .

(٤) سورة يس الآية (٥١) .

(٥) سورة القمر الآية (٧) .

(٦) سورة المعارج الآية (٤٣) .

(٧) بنحوه في سنن الترمذي ٣٧٢/٥ كتاب تفسير القرآن باب ٣٩ (سورة الزمر) حديث رقم ٣٢٤٣ ومسند الإمام أحمد ٣٢٦/١ .

وأما ميكائيل فهو الموكّل بالقطر والنّبات ، وهو ذو مكانة من ربه عزّ وجلّ ، وهو من أشهر الملائكة المقربين .

روى أنس بن مالك رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال لجبريل : « مالي لم أر ميكائيل ضاحكاً قط » فقال : «ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار» [1] .

وأما ملك الموت فلم يصرح القرآن الكريم ولا الأحاديث الصحاح باسمه .

قال تعالى : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [2] .

قال الإمام ابن كثير - رحمه اللّه - في تفسيره لهذه الآية الكريمة .

(الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص من الملائكة ، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور ، قال قتادة وغير واحد وله أعوان وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت .

قال مجاهد : سويت له الأرض مثل الطست يتناول منهاما يشاء .

وقد روى الحارث بن الخزرج الأنصاري عن أبيه أن رسول اللّه ﷺ نظر إلى ملك الموت ، عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له ﷺ : «ياملك الموت أرفق بصاحبي فإنه مؤمن» فقال ملك الموت :«يامحمد طب نفساً وقرعيناً ، فإني بكل مؤمن رفيق ، وأعلم أن ما في الأرض بيت مدر ولا شعر في بر ولا بحر إلا وأنا اتصفحهم في كل يوم خمس مرات ، حتى أنّي أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، واللّه يامحمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون اللّه هو الآمر بقبضها » [3] .

قال جعفر : بلغني أنه انما يتصفحهم عند مواقيت الصلاة ، فإذا حضرهم عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة ، دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ، ولقنّه الملك لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه في تلك الحال العظيمة) [4] .

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣/٢٢٤ ، وكنز العمال ٦/١٤٠ حديث رقم ١٥١٧٠ .

(٢) سورة السجدة الآية (١١) .

(٣) كنز العمال ١٥/٧٠٤ حديث رقم ٤٢٨١٠ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/٤٥٧ - ٤٥٨ .

٣- الطاعة التامة لله، والخضوع لجبروته، والقيام بأوامره.

قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [(١)] .

وقال تعالى: ﴿... لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [(٢)] .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية الأولى: «أي مثابرين على طاعته وامتثال أوامره و ترك زواجره» [(٣)] .

وقال في الثانية: « أي مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه لا يتأخرون عنه طرفه عين» [(٤)] .

٤- حضورهم مجالس الذكر:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطريق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم، وهو أعلم بهم، ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال فيقول: كيف لو رأوني؟ قال يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً، قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يقولون يسألونك الجنة، قال يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون لا والله يارب ما رأوها، قال: فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون من النار، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يارب ما رأوها قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة، قال: فيقول: فإني أشهدكم أني قد غفرت لهم، قال يقول ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقي جليسهم» [(٥)] .

---

(١) سورة النحل الآية (٥٠).

(٢) سورة التحريم الآية (٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/٥٧٢.

(٤) المصدر السابق ٤/٣٩١.

(٥) فتح الباري ١١/٢٠٨ كتاب الدعوات باب فضل ذكر الله عز وجل - حديث رقم ٦٤٠٨ وبنحوه أخرجه مسلم، صحيح مسلم كتاب الذكر، باب فضل مجالس الذكر حديث رقم ٢٥.

هاروت وماروت

قال تعالى : ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١) .

مر معنا قبل قليل أن من صفات الملائكة أنهم دائمون في عباداتهم وتسبيحهم ، وأذكارهم وأعمالهم التي أمرهم الله عزّ وجلّ بها ، وأن من صفاتهم كذلك الطاعة التامة لله والخضوع لجبروته ، وأنهم يطوفون في الطرق يلتمسون مجالس الذكر ليجالسوا أصحابها .

وبين أيدينا الآن قصة تتنافى تماماً مع ما سبق وأن عرفنا من صفات الملائكة ، هذه القصة هي قصة هاروت وماروت .

وفي قصتهما وردت روايات كثيرة متشابهة في مضمونها إلى حد كبير ، منها ما روي عن مجاهد قال : كنت نازلاً على عبد الله بن عمر في سفر فلما كان ذات ليلة قال لغلامه : انظر طلعت الحمراء لا مرحباً بها ولا أهلاً ولا حيّاها الله هي صاحبة الملكين ، قالت الملائكة كيف تدع عصاة بني آدم وهم يسفكون الدم الحرام ، وينتهكون محارمك، ويفسدون في الأرض ؟ قال إني قد ابتليتهم ، قال فلعل إن ابتليتكم بمثل الذي ابتليتهم به فعلتم كالذي يفعلون ، قال : لا قال فاختاروا من خياركم اثنين ، فاختاروا هاروت وماروت ، فقال لهما : إني مهبطكما إلى الأرض ، ومعاهد إليكما ألا تشركا بي شيئا ولا تزنيا ، ولا تخونا ، فأهبطهما إلى الأرض والقى عليهما الشبق ، وأهبطت لهما الزهرة(٢) في أحسن صورة امرأة ، فتعرضت لهما فأراداها عن نفسها فقالت : إني على دين لا يصلح لأحد أن يأتيني إلا من كان على مثله قالا : وما دينك ؟ قالت : المجوسية ، قالا : أنشرك ؟؟ هذا شئ لا نقربه فمكثت عنهما ما شاء الله ثم تعرضت لهما ، فأراداها عن نفسها فقالت : ما شئتما غير أن لي زوجاً وأنا أكره أن يطلع على هذا مني فأفتضح ، وإن أقررتما لي بديني وشرطتما أن تصعدا بي إلى السماء فلما انتهيا بها إلى السماء اختطفت منهما ، وقطعت أجنحتهما فوقعا خائفين يبكيان ، وفي

(١) سورة البقرة الآية (١٠٢) .

(٢) اسمها بالنبطيّة «بيدخت» وبالفارسية «ناهيل» وبالعربية «الزهرة» القرطبي ٢/ ٥١ .

الأرض نبي يدعو بين الجمعتين فإذا كان يوم الجمعة قالا : لو أتينا فلاناً فسألناه يطلب لنا التوبة ، فأتياه ، فقال رحمكما الله كيف تطلب أهل الأرض لأهل السماء ؟ قالا : إنا ابتلينا قال ائتياني يوم الجمعة فأتياه فقال : ما أجبت فيكما بشئ ، إئتياني في الجمعة الثانية فأتياه فقال : اختارا فقد خيرتما،إن أحببتما معافاة الدنيا وعذاب الآخرة ، وإن أحببتما فعذاب الدنيا وأنتما يوم القيامة على حكم الله ، قال أحدهما : الدنيا لم يمض منها إلا القليل ، وقال الآخر : ويحك إنّي قد أطعتك في الأول فأطعني الآن ، إن عذاباً يفنى ليس كعذاب يبقى ، قال : اننا يوم القيامة على حكم الله فأخاف أن يعذبنا ، قال : إني لأرجو إن علم الله أنّا قد اخترنا عذاب الدنيا مخافة عذاب الآخرة ، لا يجمعهما الله علينا ، قال : فاختارا عذاب الدنيا ، فجعلا في بكرات من حديد في قليب مملوءة من نار أعاليهما أسافلهما»(١) .

ويرى الباحث أن هذه القصة بادية عليها آثار الوضع من عدة وجوه :

الأول: انظر القول المنسوب إلى الملائكة والموجّه منهما إلى الله تعالى « كيف تدع عصاة بني آدم وهم يسفكون الدم الحرام، وينتهكون محارمك ، ويفسدون في الأرض» .

فهل مثل هذا الاسلوب يوجّه من المخلوق إلى الخالق ؟ وأداة السؤال كيف فهل للمخلوق أن يسأل الخالق عن فعله والله تعالى يقول : ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(٢) .

الثاني: انظر إلى القول المنسوب لله رب العالمين «فلعل إن ابتليتكم بمثل الذي ابتليتهم به فعلتم كالذي يفعلون » ثم انظر من بعده إلى القول المنسوب للملائكة : «قالوا : لا » فهل يرد المخلوق قول الخالق جلّ وعلا ؟ إنه قول فيه ردّ وتكذيب ، فهو كفر قولاً واحداً وهل من الملائكة من هو كافر بالله تعالى ؟ ياللتناقض العجيب !! .

الثالث: إن المرأة التي تعرضت لهما هي «الزهرة» في الأصل،وهي جزئية من جزئيات هذا الكون ، فمن قال : إن دينها المجوسية ؟! والكون كله يسبح بحمد ربه .

الرابع: إنهما أنزلا إلى الأرض للغرض الذي ذكرته القصة ، ولما شرطت عليهما المرأة الصعود إلى السماء ليأتيانها هناك وافقا ، فهل السماء مكان لهذا ؟! وكانت الملائكة قد اعترضت من قبل على تصرفات بني آدم على سطح الأرض !! .

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور / جلال الدين السيوطي ص ٩٥ وما بعدها ط (١) ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م - دار الفكر .

(٢) سورة الأنبياء الآية (٢٣) .

الخامس: مهما يكن من أمر فإنهما لمّا صعدا إلى السماء ذكرت القصة أن المرأة قد اختطفت منهما ، مما يوحي بأنهما لم يرتكبا الفاحشة ، إنّما همّا بها ، فهل كل ذلك العذاب الوارد في القصة لمجرد الهّم فقط ؟ ومعلوم أنّ من هم بسيئة ولم يفعلها كتبت له حسنة ، إن هذا لشئ عجاب ، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : «قالت الملائكة : ربّ ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة (وهو أبصر به) فقال : ارقبوه ، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وان تركها فاكتبوها له حسنة ، إنّما تركها من جرّاي»[1] .

السادس: القصة من أساسها موقوفة على ابن عمر رضي الّله عنه ولم تصل إلى رسول الّله ﷺ ، فأنى لابن عمر مثل هذه الاخبار .

وبناءً على ما تقدم فإن القصة برمتها لا تزيد عن كونها هراء وتخريف ، ولا تساوي في تقدير الباحث المداد الذي كتبت به فضلاً عن أن تحتويها كتب التفاسير والّله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ .

ما : عطف على السحر فهي مفعولة ، وهذا على القول بأن الّله تعالى : أنزل السحر على الملكين فتنة للناس ليكفر به من اتبعه ، ويؤمن به من تركه ، أو على قول مجاهد وغيره إن الّله تعالى أنزل على الملكين الشئ الذي يفرق به بين المرء وزوجه دون السحر ، أو على القول : إنه أنزل السحر عليهما ليعلم على جهة التحذير منه النهي عنه .

وقرأ ابن عباس والحسن والضحاك وابن أبزى[2] (على الملِكين) بكسر اللام ، وقال ابن أبزى : هما داوود وسليمان ، وهذه القراءة شاذة .

وقال الحسن : هما علجان[3] كانا ببابل[4] ملكين ، فما ، على هذا القول ،غير نافية وقرأها كذلك أبو الأسود الدؤلي وقال :هما هاروت وماروت ، فهذا كقول الحسن .

---

(١) صحيح مسلم ١١٨/١ كتاب الإيمان باب إذا همّ العبد بحسنة ... حديث رقم ٢٠٥ ط دار سحنون – تونس ، ومسند الإمام أحمد ٣٦١/١ .

(٢) هو عبد الرحمن ابن أبزى الكوفي مولى خزاعة ، روى عن عمر بن الخطاب . انظر سير أعلام النبلاء ٢٠١/٣ .

(٣) العلج : الرجل القوي الضخم .

(٤) بابل : القطر من الأرض ، واختلف أين هي ، فقال قوم : هي في العراق وما والاه ، وقال قوم : هي من نصّيبين إلى رأس العين ، وقال آخرون : هي بالمغرب ، وهذا ضعيف ، انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز / لابن عطية ٣٦٧/١ ، تحقيق أحمد صادق الملاح .

وروى قتادة : أن الملائكة سخروا من أحكام بني آدم ، فتحاكمت إليهما إمرأة فحابيا لها ثم ذهبا يصعدان فحيل بينهما وبين ذلك ، وخيّرا بين عذاب الدنيا ، وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا .

وعن ابن عمر قال : ذكرت الملائكة أعمال بني آدم ، وما يأتون من الذنوب ، فقيل لهم : اختاروا ملكين فاختاروا هاروت وماروت ، قال : فقال لهما : إني أرسل رسلي إلى الناس وليس بيني وبينكما رسول ، إنزلا ولا تشركا بي شيئاً ، ولا تزنيا ، ولا تسرقا ، قال عبد اللّه بن عمر : فما استكملا يومهما الذي انزلا فيه حتى عملا ما حرّم اللّه عليهما .

روي عن ابن عباس (أن المرأة التي فتن بها الملكان مسخت ، فهذه هي الكوكب الحمراء «يعنى الزهرة» ، قال المحقق : هذه من روايات بني إسرائيل التي دست في التفاسير ونسبت إلى بعض الصحابة رضوان عليهم ترويجاً لها ، لم يصح رفع شئ منها إلى النبي ﷺ) [(١)] .

وقد أورد صاحب التفسير المنير (أن الملكين أنزلا لتعليم السحر امتحاناً من اللّه للناس هل يتعلمونه أو لا كما امتحن قوم طالوت بالشرب من النهر ، وقيل انماانزلا لتعليمه للتمييز بينه وبين المعجزة لئلا يغتر به الناس لأن السحرة كثروا في ذلك الزمن ، واستنبطوا أبواباً غريبة من السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الكذابين واظهار أمرهم على الناس ببابل) [(٢)] .

وروح المعاني أورد القصة نفسها تقريباً ثم قال معلقاً «إلى غير ذلك من الآثار التي بلغت طرقها نيفاً وعشرين ، فقد انكره جماعة منهم القاضي عياض [(٣)] ، وذكر أن ما ذكره أهل الأخبار ونقله المفسرون في قصة هاروت وماروت لم يرد فيه شئ - لا سقيم ولا صحيح - عن رسول اللّه ﷺ وليس هو شئ يؤخذ بالقياس [(٤)]

---

(١) تفسير القران للإمام عبد الرزاق بن همّام الصنعاني ٥٣/١ تحقيق د. مصطفى مسلّم محمد الطبعة الأولى ١٤١٠هـ مكتبة الرشيد / الرياض .

(٢) مراح لبيد - تفسير النووي المسمى التفسير المنير المسفر عن وجوه محاسن التأويل ٢٦/١ دار الفكر ، وانظر حاشية الجمل /للشيخ سليمان الجمل ٨٨/١ دار إحياء التراث وروح البيان إسماعيل حقّي البروسي ١٩١/١ ط. دار الفكر وتفسير القرآن الجليل ٧٥/١ وفتح القدير للشوكاني ١٢٢/١ ط دار الفكر ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م .

(٣) هو عياض بن موسى بن عمرو ... ، ولد سنة ست وسبعين ، إستبحر في العلوم ، وجمع وألف وسارت بتصانيفه الركبان ، واشتهر إسمه في الآفاق توفي سنة أربع وخمسمائة ودفن بمراكش انظر سير أعلام النبلاء ٢١٢/٢ - ٢١٩ .

(٤) روح المعاني ٣٤٠/١ .

وذكر الإمام الرازي بعد أن ذكر الرواية في ذلك ، «أنّ هذه الرواية فاسدة مردودة وغير مقبولة ونص على أن من اعتقد في هاروت وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما مع الزهرة فهو كافر بالله تعالى ، فإن الملائكة معصومون لا يعصون الله ما أمرهم » (١).

وفي روح المعاني ، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قدمت عليّ امرأة من أهل دومة الجندل تبتغى رسول الله ﷺ بعد موته تسأله عن شئ دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به ، قالت : كان لي زوج غاب عنّي ، فدخلت عليّ عجوز فشكوت إليها فقالت : إن فعلت ما آمرك أجعله يأتيك ، فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين فركبت أحدهما وركبت الآخر، حتى وقعنا ببابل فإذا أنا برجلين معلقين بأرجهلما ، فقالوا : ما جاء بك ؟ فقلت : أتعلم السحر ، فقالا : انما نحن فتنة فلا تكفري وارجعي ، فأبيت وقلت : لا ، قالا : فاذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه إلى أن قالت : فبلت فيه ، فرأيت فارساً مقنعاً بحديد خرج مني حتى ذهب إلى السماء ، غاب عنّي حتى ما أراه ، فجئتهما وذكرت لهما ، فقالا : صدقت ، ذلك إيمانك خرج منك ، إذهبي فلن تريدي شئياً إلا كان .

الخبر بطوله - فهو ونظائره مما ذكره المفسرون من القصص في هذا الباب مما لا يعول عليه ذووا الألباب ، والإقدام على تكذيب هذه المرأة الدوجندية أولى من اتهام العقل في قبول هذه الحكاية التي لم يصح فيها شئ عن رسول رب البرية ﷺ ، وياليت كتب الإسلام لم تشتمل على هذه الخرافات التي لا يصدقها العاقل ولو كانت أضغاث أحلام (٢) .

ولقد ساق الإمام ابن كثير - رحمه الله - جملة من الراويات في تفسير الآية ثم قال : «وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدّي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية والربيع ابن انس ، ومقاتل وغيرهم ، وقصّها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين ، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني اسرائيل ، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها ، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال» (٣) .

---

(١) التفسير الكبير / للإمام فخر الدين الرازي ١٩٧/٣ ط (١) ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م - دار الكتب العلمية .

(٢) انظر روح المعاني ١/ ٣٤٠ .

(٣) تفسير القرآن العظيم /١/١٤١ .

خلاصة القول وأفضله فيما يرى الباحث ، ماجاء في تفسير القاسمي حيث قال :

«إعلم أن للعلماء في هذه الآية وجوهاً كثيرة وأقوالاً عديدة ، فمنهم من ذهب فيها مذهب الاخباريين نقله الغثّ والسمين ،ومنهم من وقف على ظاهرها ، ومنهم من ادعى فيها التقديم والتأخير ، ورد آخرها على أولها ، بما جعلها أشبه بالألغاز والمعّميات التي يتنزه عنها بيان أبلغ كلام ، والذي ذهب إليه المحققون أن هاروت وماروت كانا رجلين متظاهرين بالصلاح والتقوى في بابل ، وكانا يعلّمان الناس السحر وبلغ حسن ظنّ الناس بهما أن ظنّوا أنهما ملكان من السماء ، وما يعلمانه للناس هو بوحي من الله وبلغ مكر هذين الرجلين ومحافظتها على اعتقاد الناس فيهما أنهما صارا يقولان لكل من أراد أن يتعلم منهما «انما نحن فتنة فلا تكفر» أي إنّما نحن أولوا فتنة نبلوك ونختبرك أتشكر أم تكفر وننصح لك ألا تكفر ، يقولان ذلك ليوهما الناس أن علومهما إلهية وصناعتهما روحانية وأنهما لا يقصدان إلا الخير كما يفعل دجاجلة هذا الزمان ،قائلين لمن يعلّمونهم الكتابة للمحبة والبغض على زعمهم : نوصيك ألا تكتب لجلب امرأة متزوجه إلى غير زوجها إلى غير ذلك من الأوهام والإفتراءات ، ولليهود في ذلك خرافات كثيرة ، حتى أنهم يعتقدون أن السحر أنزل عليهم من الله وفي ذم السحر ومن يتعلمه أو يعلّمه قال تعالى : ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَآأُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ ، فـ(ما) هنا نافية على أصح الأقوال ، ولفظ الملكين وارد حسب العرف الجاري بين الناس في ذلك الوقت وقوله تعالى : ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَايُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِه﴾ من قبيل التمثيل ، وإظهار الأمر في أقبح صوره ، أي بلغ من أمر ما يتعلّمونه من دروب الحيل وطرق الإفساد أن يتمكنوا من التفريق بين أعظم مجتمع كالمرء وزوجه .

والخلاصة : أن معنى الآية من أولها لآخرها هكذا : أن اليهود كذّبوا القرآن ونبذوه وراء ظهورهم ، واعتاضوا عنه بالأقاصيص والخرافات التي يسمعونها من خبثائهم عن سليمان وملكه ، وزعموا أنّه كفر وهو لم يكفر ، ولكن الشياطين هم الذين كفروا وصاروا يعلمون الناس السحر ، ويدّعون أنه أنزل على هاروت ماروت ، الذين سمّوهما ملكين ولم ينزل عليهما شئ وإنما كانا رجلين يدّعيان الصلاح فأنت ترى من هنا أن المقام للذّم ، فلا يصح أن يرد فيه هاروت وماروت ، والذي يدل على صحة ما قلناه فيهما أن القرآن الكريم أنكر نزول أي ملك إلى الأرض ليعلم الناس شيئاً من عند الله غير الوحي للأنبياء ، ونصّ نصّاً صريحاً أن الله لم

يرسل إلا الإنس لتعليم بني نوعهم فقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [1] . وقال منكراً على من طلب انزال الملك ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [2] .

وللقصّاص في هاروت وماروت مزاعم كثيرة فقد زعموا أنهما كانا ملكين من الملائكة وأنهما لمّا نظرا إلى ما يصنع أهل الأرض من المعاصي ، أنكرا ذلك وأكبراه ، ودعوا على أهل الأرض ، فأوحى الله إليهما أني لو ابتليتكما بما ابتليت به بني آدم من الشهوات لعصيتماني ، فقالا : يارب ،لو ابتليتنا لم نفعل ، فجربنا ، فأهبطهما إلى الأرض وابتلاهما اللّه بشهوات بني آدم ، فمكثا في بلدة فيها فاجرة تسمى الزهرة ، فدعواها إلى الفاحشة ، وواقعها بعد أن شربا الخمر، وقتلا النفس ، وسجدا للصنم ، وعلماها الاسم الأعظم الذي كانا به يعرجان إلى السماء ، فتكلمت المرأة بذلك الاسم وعرجت إلى السماء فمسخها اللّه تعالى وصيرها هذا الكوكب المسمّى بالزهرة ، ثم إن اللّه تعالى عرّف هاروت وماروت قبح ما وقعا فيه ، ثم خيرهما بين عذاب الآخرة آجلاً ، وبين عذاب الدنيا عاجلاً فاختارا عذاب الدنيا فجعلهما ببابل منكوسين في بئر إلى يوم القيامة ، وهما يعلمان السحر ويدعوان إليه ، ولا يراهما أحد إلا من ذهب إلى ذلك الموضع لتعلّم السحر خاصة وهذه القصة من إختلاق اليهود وتقولاتهم ، ولم يقل بها القرآن قط وانما ذكرها التلمود ، وجاراه جهلة القصاص من المسلمين فأخذوها منه » [3]

قال الرازي في تفسيره : إن القصة التي ذكروها باطلة من وجوه :

الأول: أنهم ذكروا في القصة أن اللّه تعالى قال لهما (لهاروت وماروت) لو ابتليتكما بما ابتليت به بني آدم لعصيتماني ، فقالا : لو فعلت ذلك بنا ما عصيناك وهذا منهم تكذيب لله تعالى ، وتجهيل له ، وذلك من صريح الكفر .

الثاني: أنهما خيّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وذلك فاسد بل كان الأولى أن يخيّرا بين التوبة وبين العذاب،واللّه تعالى خيّر بينهما من أشرك به طول عمره وبالغ في إيذاء انبيائه .

---

(١) سورة النحل الآية (٤٣) .

(٢) سورة الأنعام الآية (٨) .

(٣) تفسير القاسمي المسمّى محاسن التأويل /محمد جمال الدين القاسمي ص ٢/٢٠٧-٢١٤ ط ١٣٩٨هـ -١٩٧٨م .

الثالث: إن من أعجب الأمور قولهم : أنهما يعلمان السحر ، في حال كونهما معذّبين ويدعوان إليه ، وهما يعاقبان .

الرابع: أن السحر لو كان نازلاً عليهما لكان منزله هو اللّه ، وذلك غير جائز لأن السحر كفر وعبث ولا يليق باللّه تعالى إنزال ذلك .

الخامس: قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ يدل على أن تعليم السحر كفر ، فلو ثبت في الملائكة أنهم يعلمون السحر للزمهم الكفر وذلك باطل .

السادس: كما لا يجوز في الانبياء أن يبعثوا لتعليم السحر ، فكذلك في الملائكة من باب أولى .

السابع: إن السحر لا يضاف إلا إلى الكفرة ، والفسقه والشياطين المردة ، وكيف يضاف إلى اللّه تعالى ما ينهى عنه ، ويتوعد عليه بالعقاب ؟ وهل السحر إلا الباطل المموه ، وقد جرت عادة اللّه تعالى بإبطاله كما جاء في قصة موسى عليه السلام ﴿...مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾[1] .

واعلم أن السحر في عرف الشرع مختص بكل أمر يخفى سببه ، ويتخيل على غير حقيقته ويجرى مجرى التمويه والخداع ، ومتى اطلق ولم يقيد أفاد ذم فاعله ، قال تعالى : ﴿... سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ...﴾[2] يعني موّهوا عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصّيهم تسعى وقد يستعمل مقيداً فيما يمدح ويحمد ، فعن ابن عمر- رضي الله عنهما - قال : قال رسول اللّه ﷺ : «إن من البيان لسحراً»[3] لأن صاحبه يوضح المشكل ، ويكشف حقيقته بحسن بيانه وبليغ عبارته ، وبالجملة فإن السحر المطلق انما هو تخييل صارف للأبصار ، أو تمتمة مزخرفة عائقة للأسماع ، فلا يغيّر حقائق الأشياء ولا ينقل الصور [4] .

قال القرطبي في قوله تعالى : ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ «ما : نفي ، والواو عطف على قوله تعالى : ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ وذلك أن اليهود قالوا : إن اللّه أنزل جبريل وميكائيل بالسحر فنفى اللّه ذلك ، وفي الكلام تقديم وتاخير ، التقدير : وما كفر سليمان ، وما انزل

---

(١) سورة يونس الأية (٨١) .

(٢) سورة الأعراف الآية (١١٦) .

(٣) فتح الباري ٢٠١/٩ ، كتاب النكاح باب الخطبة ، حديث رقم ٥١٤٦ ، وصحيح مسلم ٥٩٤/٢ كتاب الجمعة ، باب في تخفيف الصلاة والخطبة حديث رقم ٤٧ .

(٤) انظر التفسير الكبير ١٩٧/٣ .

على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، فهاروت وماروت بدل من الشياطين في قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ .

وهذا أولى ماحملت عليه الآية من التأويل ، وأصح ما قيل فيها ، ولا يلتفت إلى سواه ..

فإن قال قائل : كيف يكون اثنان بدلاً من جمع ، والبدل إنّما يكون على حدّ المبدل منه ؟ فالجواب من عدة وجوه نذكر منها :

- إن الاثنين قد يطلق عليهما اسم الجمع ، كما قال تعالى : ﴿ ... فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ...﴾[1] ولا يحجبها عن الثلث إلى السدس ، إلا إثنان من الإخوة فصاعداً .

أما تأويلات الآية الآخرى فقال عنها : هذا كله ضعيف ، وبعيد عن ابن عمر وغيره ، لا يصح منه شئ فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه وسفراؤه إلى رسله »[2] .

وبناءً على ما تقدم ومن خلال تدافع الأدلة يترجح بل ويثبت لدى الباحث أن هاروت وماروت ليسا من ملائكة الله الذين ﴿... لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ...﴾[3] والذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ ... بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ .[4]

وليكونا بعد ذلك ما يكونا ، ليكونا ملكين ، أو علجين ، أو أي شئ من هذا أو ذاك ، المهم أنهما ليسا من ملائكة الله الذين أمرنا بالإيمان بهم بعد الإيمان بالله تعالى .

منكر ونكير

ومن الملائكة الذين استفاض في الأحاديث ذكرهما في سؤال القبر منكر ونكير ، وهما ملكا القبر الموكّلان بسؤال الميت في قبره عن ربّه ، ودينه ، ونبيه، ويمتحنان البر والفاجر ، ويأتيان كل منها بما يليق بمقامه .

وإنّما سمّيا بهذا الإسم لإنكار النّفس لهما ، فليس في خلقتهما أنس للناظرين إليهما .

كما سمّيا الفتانين لذلك - ولأن في سؤالهم الميت انتهاراً له إلا إذا كان مؤمناً حقاً[5] .

---

(١) سورة النساء الآية (١١) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٥٠ .

(٣) سورة التحريم الآية (٦) .

(٤) سورة الأنبياء الآيتان (٢٦-٢٧) .

(٥) انظر حديث الإسلام /محمد مصطفى أبي العلا ٩٦/١ ط(١) ١٣٧٧هـ -١٩٥٨م . مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، وانظر بداية الخلق ص ١٢٣ .

أقسام الملائكة [1]

حملة العرش : وهم الذين يحملون عرش الرحمن ، وعددهم ثمانية

قال تعالى : ﴿... وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [2] .

٢- الكروبيون :

وهم الذين حول العرش ، وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش ، وهم الملائكة المقربون .

قال تعالى ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ...﴾ [3] .

٣- جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت ، ومنكر ونكير ، وقد تقدم الحديث عنهم .

٤- ومنهم سكان السموات السبع يعمرونها عبادة دائبة ليلاً ونهاراً ، صباحاً ومساءً .

قال تعالى : ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [4] .

٥- ومنهم الراكع دائماً والقائم دائماً ، والساجد دائماً .

٦- ومنهم الموكلون بالجنان ، وإعداد الكرامة لأهلها ، وتهيئة الضيافة لساكنيها من ملابس ومصاغ ومساكن ومآكل ومشارب ، وغير ذلك مما لا عين رأيت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وخازن الجنّة ملك يقال له رضوان .

٧- ومنهم الموكلون بالنار وهم الزبانية ، ومقدّموهم التسعة عشر وخازنها مالك ، وهو مقدم على جميع الخزنة .قال تعالى : ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [5] .

٨- ومنهم الموكلون بحفظ بني آدم .

قال تعالى : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [6] .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية الكريمة : (أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه ، حرس بالليل وحرس بالنهار ، يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فإثنان عن

(١) بداية الخلق ص ١٢٧ - ١٣٤ .

(٢) سورة الحاقة الآية (١٧) .

(٣) سورة النساء الآية (١٧٢) .

(٤) سورة الأنبياء الآية (٢٠) .

(٥) سورة الزخرف الآية (٧٧) .

(٦) سورة الرعد الآية (١١) .

اليمين والشمال يكتبون الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورائه وآخر من قدّامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار ، وأربعة آخرين بالليل بدلاً ، حافظان وكاتبان كما جاء في الصحيح عن أبي هريرة -رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلّون وتركناهم وهم يصلّون »[1]

قال مجاهد : ما من عبد إلاّ له ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما منها شيئ يأتيه يريده إلاّ قال له الملك : وراءك ، إلا شيئا اذن الله فيه فيصيبه»[2] .

٩- ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[3] .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله -(يعني وإن عليكم لملائكة حفظة كراماً فلا تقابلوهم بالقبائح فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم)[4] .

فصل في أيهما أفضل الملائكة أم البشر ؟

إختلف الناس في هذه المسألة ، وكل أورد من الأدلة ما يؤيد رأيه وخلاصة الأمر حسب مايرى الباحث :

إن الإنسان لما له من شهوة وزينة تحسن إليه الفجور بخلاف الملائكة ، فليس عندهم ما يحسّن إليهم ذلك ، فإن العبد الصالح بقدرته على جمع شهوته ، والتزام نهج ربه يعلو بذلك فوق مرتبة الملائكة ، ولكن ينحطّ إلى أسفل سافلين ، وتنزل مرتبته إلى أقل من مرتبة الأنعام إذا أطلق لشهواته العنان ، قال تعالى : ﴿... أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ...﴾[5] .

---

(١) فتح الباري ٣٠٦/٦ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة حديث ٣٢٢٣ ط. دار المعرفة ، وصحيح مسلم ٤٣٩/١ كتاب المساجد باب فضل صلاتي الصبح والعصر حديث رقم ٢١٠ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٠٣/٢ .

(٣) سورة الانفطار الآيات (١٠-١٢) .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤٨٢/٤ .

(٥) سورة الأعراف الآية (١٧٩) .

أو بمعنى آخر نستطيع القول : أن الله جلّت قدرته خلق الملائكة بعقل دون شهوة ، وخلق الإنسان بعقل وشهوة ، وخلق الأنعام بشهوة دون عقل ، فاذا غلب عقل الإنسان شهوته كان أفضل من الملائكة وإذا غلبت شهوته عقله كان أضل من الأنعام .

بيد أن ماتقدم من الكلام هو في المفاضلة بين الملائكة والبشر من غير الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، أما الرسل فهم أفضل من الملائكة وعليه أهل السنة والجماعة .

الإيمان بالملائكة

إذا كان هذا هو شأن الملائكة ، كان من الواجب الإيمان بوجودهم ، ومحاولة الاتصال بهم عن طريق تزكية النفس ، وتطهير القلب ، وعبادة الله عبادة خاشعة ، وفي الاتصال بالملائكة سمو للروح ، وتحقيق للحكمة العليا التي خلق الإنسان من أجلها ، وهي عبادة الله تعالى ، وخلافته سبحانه في أرضه .

ولهذا كان الإيمان بالملائكة من البر ، ومن دلائل الصدق والتقوى وهذا هو نهج الأنبياء والمؤمنين قال تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ... ﴾[(١)] .

إن هذا العالم الغيبي لا يدرك بالحس ولا بالعقل وكل ما يجب الاهتمام به هو أن نؤمن بهم ونرعى حق صحبتهم ، ونوثق صلتنا بهم كما أرشدنا رسول الله ﷺ[(٢)] .

فعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم والتعرّى فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط ، وحين يفضي الرجل إلى أهله فاستحيوهم وأكرموهم»[(٣)] .

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٨٥) .

(٢) انظر العقائد الإسلامية ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٣) سنن الترمذي ٥/١١٢ كتاب الأدب باب ماجاء في الاستتار عند الجماع حديث رقم ٢٨٠٠ .

المطلب الثاني
الجـــن ومايتعلّق بهـم

تعريف الجنّ

لغة : الجَنّ بفتح الجيم خفاء وستر الشئ عن الحواس يقال : أجنّه أي ستره ، وخبأه ، وغطّاه عن الحواس ، وسمي الجنين جنيناً لخفائه داخل بطن أمّه والجنان الثوب لستره الجسم .

يقال : عليّ جنان يواريني [(١)]

شرعاً : نوع من الأرواح العاقلة المريدة المكلفة على نحو ما عليه الإنسان ، ولكنهم مجردون عن المادة البشرية ، مستترون عن الحواس ، لا يرون على طبيعتهم ، ولا على صورتهم الحقيقية ولهم مقدرة على التشكل [(٢)] .

فالجنّ عالم قائم بنفسه ، سمّوا بذلك لإجتنانهم واستتارهم عن الأبصار ، وقد تعرض القرآن الكريم للحديث عنهم في نحو أربعين آية من عشر سور تقريباً ، كما خصص الله سبحانه سورة كاملة ذكر فيها قصة نفر منهم استمعوا للقرآن الكريم من تلاوة الرسول ﷺ فآمنوا ثم ولوا إلى قومهم منذرين ، تلك هي سورة الجنّ [(٣)] .

خلق الجانّ وقصة الشّيطان .

تعرضنا قبل قليل لتعريف الجن ، ونعرض الآن لتعريف الشيطان .

فالشيطان في اللغة واحد الشياطين على التكثير ، والنون أصلية ، لأنه مشتق من شطن إذا بعد عن الخير ، وشطنت داري إذا بعدت ، قال الشاعر :

نأت بسعاد عنك نوى وشطون *** فبانت والفؤاد بها رهين

وبئر شطون :أي بعيدة القعر ، سمي بذلك لبعده عن الصلاح والخير . [(٤)]

وفي الإصطلاح : الشيطنة :مرتبة كليّة عامة لمظاهر الإسم المضل . [(٥)]

---

(١) محيط المحيط / بطرس البستاني ص ١٣٠ ط ١٩٨٧م مكتبة لبنان - بيروت .

(٢) العقائد الاسلامية / ص ١٣٣ .

(٣) حديث الإسلام ص ١٠١ .

(٤) مصائب الانسان من مكائد الشيطان / الإمام تقي الدين المقدسي ص ٨ ، ٩ ط (١) ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٥) التعريفات ص ١٦٩ .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - «قال كثير من علماء التفسير خلقت الجن قبل آدم - عليه السلام - ، وكان قبلهم في الأرض الحنّ والبنّ ، فسلّط الله الجنّ عليهم فقتلوهم وأجلوهم عنها وسكنوها بعدهم .

وعن ابن عباس : أن الجنّ لما أفسدوا في الأرض ، وسفكوا الدماء ، بعث الله تعالى إليهم إبليس ومعه جند من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم عن الأرض إلى جزائر البحور .

ولما أراد الله عز وجل خلق آدم ليكون خليفة في الأرض هو وذريته من بعده وصور جثته منها ، جعل ابليس وهو رئيس الجان ، وكان أكثرهم عبادة ، وكان اسمه «عزازيل» يطيف به فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك ، وقال : أما لئن سلطت عليك لأهلكنّك ولئن سلطت علي لأعصينّك ، فلما أن نفخ الله تعالى في آدم من روحه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، دخل ابليس منه حسد عظيم وامتنع من السجود له وقال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، فخالف الأمر واعترض على الربّ عزّ وجلّ وأخطأ في قوله وابتعد من رحمة ربه عزّ وجلّ وأنزل من مرتبته التي كان قد نالها بعبادته . وكان قد تشبه بالملائكة ولم يكن من جنسهم لأنه مخلوق من نار وهم من نور فخانه طبعه في أحوج ماكان إليه» (١) .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (٣) .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - :«.. وذلك أنّه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب ، وصوره بشراً سوياً ، ونفخ فيه من روحه ، أمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الله تعالى وجلاله ، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . وقول ابليس عليه اللعنة : (أنا خير منه) من العذر الذي هو أكبر من الذنب ، كأنه امتنع عن الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول ، يعني لعنه الله : وأنا خير منه فيكف تأمرني بالسجود له ؟

---

(١) البداية والنهاية ١/٥٥ - ٥٦ .

(٢) سورة الكهف الآية (٥٠) .

(٣) سورة الأعراف الآية (١٢) .

ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار ، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين ، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ، ولم ينظر إلى التشريف العظيم ، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص ، وهو قوله تعالى ﴿..فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[1] فشذّ من بين الملائكة لترك السجود ، فلهذا أبلس من الرحمة ، فأخطأ قبّحه الله في قياسه. ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً ، فإن الطين من شأنه الرزانة ، والحلم والأناه والتثبت. والطّين محلّ النبات ، والنمو ، والزيادة،والإصلاح ، والنار من شأنها الاحراق،والطيش،والسرعة ولهذا خان ابليس عنصره ، ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة»[2].

ويتساءل الباحث : إذا كان هذا هو شأن الطين ، وهذا هو شأن النار ، فكيف تفضل النار الطين ؟، كيف يفضل الطيش الرزانة ؟وكيف يفضل الاحراق الانبات ؟ ، وكيف تفضل السرعة الحلم والأناة والتثبت ؟

إن الطين بلا شك أفضل من النار لا سيما وأنه يتصف بصفات تقبلها الشرائع السماوية والأعراف والعادات ، أما النار فتتصف بصفات منفرة لا تتوافق في غالب الأحيان مع الفطرة الإنسانية ، إذن فإن تبرير ابليس عليه اللّعنة ليس في محلّه ، وإذن فيثبت أن المانع له من السجود هو الحسد أولاً والتكبر ثانياً ، ولا مبرر له غيرهما . وإذا كان التكبر مرفوضاً في شرع الله بين عباد الله وهم مخلوقون لله ، فكيف إذا كان التكبر من المخلوق على الخالق جل شأنه؟ .

وابليس - لعنه الله - حي إلى الآن ، منظر إلى يوم القيامة بنص القرآن الكريم قال تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[3] .

وعن جابر بن عبد الله[4]- رضي الله عنه -عن النبي ﷺ قال :«إن الشيطان يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربهم عنده منزلة ، أعظمهم عنده فتنة يجئ أحدهم

(١) سورة الحجر الآية (٢٩) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/٢٠٣ .

(٣) سورة الحجر الآيات (٣٦ - ٣٨) .

(٤) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام ، صاحب رسول الله ﷺ ومن آل بيعة الرضوان ، كان مفتي المدينة في زمانه ، شهد الخندق وبيعة الشجرة ، شاخ وذهب بصره وقد قارب التسعين توفي سنة ٩٧هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٣/١٨٩ .

فيقول : مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول : كذا وكذا فيقول ابليس : لا والله ما صنعت شيئاً ويجئ أحدهم فيقول : ماتركته حتى فرّقت بينه وبين أهله ، قال : فيقرّبه ويدنيه ويقول : نعم أنت » [1].

ولهذا يشكر إبليس سعي من كان سبباً في ذلك ، فالذي ذمّه الله يمدحه ، والذي يغضب الله يرضيه ، عليه لعنة الله .

حقيقة الجنّ وصفاتهم [2].

الجنّ عالم غيبي كعالم الملائكة لا نعرف من حقيقتهم إلا ماجاءنا عن طريق الخبر الصادق عن رسول الله ﷺ ، ولقد ورد في النصوص الشرعية مابين شيئاً من حقيقة تكوينهم وطائفة من صفاتهم ومن ذلك مايلي :

١/ أنهم صنف من غير الملائكة مخلوقون من مارج من نار ، والجان هو أبو الجنّ كما ذكر المفسرون قال تعالى ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [3].

٢/ أنهم مخلوقون قبل الإنسان ،قال تعالى :﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [4].

٣/ أنهم يتناسلون ولهم ذرية .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [5].

٤/ أنهم يروننا من حيث لا نراهم .

قال تعالى : ﴿... إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ...﴾ [6] .

---

(١) بنحوه في صحيح مسلم ٤/٢١٦٧ كتاب صفات المنافقين باب تحريش الشيطان ، حديث رقم ٦٧ ، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية ١/٥٩ .

(٢) العقيدة الاسلامية وأسسها ص ٢٨١ .

(٣) سورة الرحمن الآية (١٥) .

(٤) سورة الحجر الآية (٢٧) والسموم :الريح الحارة القاتلة وسميت بذلك لأنها تنفذ في مسام البدن .

(٥) سورة الكهف الآية (٥٠) .

(٦) سورة الأعراف الآية (٢٧) .

٥/ أنهم مكلفون بالإيمان كما الانسان .

قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [١] .

٦/ أنهم قسمان : منهم المؤمنون ومنهم الكافرون .

قال تعالى : ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [٢] .

٧/ أنهم يحشرون يوم القيامة ويحاسبون على أعمالهم فيثابون أو يعاقبون .

قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [٣] .

٨/ أنهم كانوا قبل بعثة محمد ﷺ يسترقون السمع من أفواه الملائكة من السماء وينقلونها إلى قرنائهم من الإنس في الأرض ، فلما بعث محمد ﷺ انتهى ذلك .

قال تعالى : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [٤] .

٩/ أنهم يأكلون أكلاً لا نعرف كيفيّته ولا ماهيّته ،وأن الله تعالى قد جعل زادهم في العظام ، وروث البهائم والفحم .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :«لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام فإنها زاد إخوانكم من الجنّ» [٥] .

وعنه قال : لما قدم وفد الجنّ على النبي ﷺ قالوا يارسول الله : إنه أمتك أن يستنجوا بعظم أو روثه أو حممة (الفحم) فإن الله جعل لنا فيها رزقاً ، فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك [٦] .

---

(١) سورة الذاريات الآية (٥٦) .

(٢) سورة الجن الآيتان (١٤ ، ١٥) .

(٣) سورة الأنعام الآية (١٢٨) .

(٤) سورة الجن الآيتان (٨ ، ٩) .

(٥) بنحوه في مسند أحمد ٢٤٧/٢ ، ٢٥٠ ، ٤٣٨/٥ .

(٦) سنن أبي داوود ٣٦/١ كتاب الطهارة باب ماينهى عنه أن يتسنجى به حديث رقم ٣٩ .

١٠/ أن لهم قدرة على التشكل بالأشكال الجسمية التي يمكن أن ترى ، ومما ورد في ذلك مارواه مالك في الموطأ عن أبي السائب[١] : وهو يتضمن قصة فتى من الأنصار حديث عهد بعرس رأى امرأته واقفة بين الناس ، فهيأ الرمح ليطعنها بسبب الغيرة .

فقالت له : ادخل بيتك لترى، فدخل بيته فإذا هو بحيّة على فراشه ، فوكز الرمح فيها فاضطربت الحية في رأس الرمح ، فخر الفتى صريعاً ، فما ندري أيهما كان أسرع موتاً الفتى أم الحية ، قال الراوي : فسألنا رسول الله ﷺ فقال «إن بالمدينة جناً قد أسلموا فمن بدا لكم فآذنوه ثلاثة أيام فإن عاد فاقتلوه فإنه شيطان»[٢] .

فصل في هل للشياطين سلطان على الانس في عقائدهم وإرادتهم وأعمالهم ؟

لا سبيل ولا سلطان للشياطين على بني الإنسان فيما يتعلق بعقائدهم ، وتوجيه إرادتهم للأعمال السيئة ،لأن الله عز وجل حجزهم عن ذلك .

قال تعالى :﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ .[٣]

أما عمل الشيطان في نفس الإنسان فينحصر في الوسوسة الخفية ، وهذه تخنس وتتخاذل أمام حزم المؤمن ، وإرادته القوية الملتجئة إلى الله تعالى بالاستعاذة[٤] . والذكر والمراقبة أما

---

(١) هو قاضي القضاة عتبة بن عبيد الله بن موسى الهمذاني ، عني بفهم القرآن ، وكتب الحديث والفقه ، وولي القضاء في أذربيجان ، وهمذان ، وبغداد ، عاش ستاً وثمانين سنة ، مات في ربيع الآخر سنة إحدى وخمسين وثلاث مائة . انظر سير أعلام النبلاء ١٦/٤٧ .

(٢) صحيح مسلم ٤/١٧٥٦ كتاب السلام ، باب قتل الحيّات - حديث رقم ١٣٩ ، وسنن أبي داود ٥/٤١٥ كتاب الأدب، باب في قتل الحيّات حديث رقم ٥٢٥٩ ط(١) دار الكتب العلمية - بيروت ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

(٣) سورة الحجر الآية (٤٢) .

(٤) الإستعاذة في كلام العرب : الإستجارة والتحيز إلى الشئ على معنى الامتناع به من المكروه . يقال : عذت بفلان واستعذت به ، أي لجأت إليه ، وهو عياذي أي ملجأي ، فالعوذ الالتجاء إلى الغير والتعلق به ، فالعياذ لرفع الشر ،واللياذ لطلب الخير ... قال المتنبي :

يامن ألوذ به فيما أؤمّله *** ومن أعوذ به فيما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره *** ولا يهيضون عظماً أنت جابره

ونفس الإستعاذة تقع من نفس مالم يكن بعد ، وتارة من موجود له شر مستقبل ، فالأول كقوله : «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والثاني كقوله : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» .

وقوله : «نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا» يحتمل هذا وهذا ، لكن الأظهر أنه من المعدوم . تعوذ من شر نفسه الذي لم يقع ، وسيئات عمله ، أي عقوبات عمله وهذا تعوذ من نوع الشر . انظر : مصائب الانسان ص ٨ - ٩ .

إخوان الشياطين فيستجيبون لوسوستهم ، وينساقون معهم ، فيتسلط الشياطين عليهم فيمدونهم في الغي [(١)].

قال تعالى : ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [(٢)]

هل للجن تأثير على أجسام الأنس ؟

قال الشيخ أبوبكر الجزائري :«إن أذى الجنّ للانس ثابت لا ينكر ، حيث ثبت ذلك بالدليل السمعي ، والدليل الحسي ، والعقل لا يحيله ، بل يجيزه ويقره ، ولولا المعقبات من الملائكة التي أناط الله بها حفظ الانسان لما نجا من الجنّ والشيطان أحد ، وذلك لعدم رؤية الانسان لهم ولقدرتهم على التحول بسرعة ، ولكون أجسامهم من اللطافة بحيث لا نشعر بها ولا نحس ومن هنا كان مما لاشك فيه أن بعض الجنّ يؤذي بعض الناس ، إما لكون الإنسان قد تعرض لهم بالأذى ، فآذاهم بصب ماء حار عليهم ، أو ببوله عليهم ، أو بنزوله بعض منازلهم وهو لا يشعر فينتقمون منه فيؤذونه» [(٣)].

وأكثرما يكون الإيذاء بصرع الجنّ الانسان ، والصرع عبارة عن اختلال يصيب الانسان في عقله بحبث لا يعي ما يقوله فلا يستطيع أن يربط بين ماقاله وما سيقوله ،ويصاب صاحبه بفقدان الذاكرة نتيجة اختلال في أعصاب المخ ويصاحب هذا الاختلال العقلي اختلال في حركات المصروع فيتخبط في حركاته وتصرفاته ،فلا يستطيع أن يتحكم في سيره ، وقد يفقد القدرة على تقدير الخطوات المتزنة لقدميه ، أو حساب المسافة الصحيحة لها [(٤)].

---

(١) انظر العقيدة الاسلامية ص ٢٩١ والعقائد الاسلامية ص ١٥١ - ١٥٥

(٢) سورة الأعراف الآيتان (٢٠٠ - ٢٠٢).

(٣) عقيدة المؤمن/ابوبكر الجزائري ص ٢٢٨ - المكتب الثقافي . وانظر أحكام الجان / محمد بن عبد الله الشبلي تحقيق د. السيد الجميلي ص ١٤٢ . دار ابن زيدون . وانظر كذلك كتاب الجن لابن تيمية ص ٢٩ .

(٤) انظر وقاية الانسان من الجن والشيطان / وحيد عبد السلام بالي ص ٥٥ ط (٢) ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م . مكتبة الصحابة .

أنواع الصرع :

الصرع صرعان :

أولهما : عضوي ، وهو الذي يثبته الأطباء ويذكرون علاجه .

والثاني: ناتج عن دخول الجنّي في جسد الانسان فيصرعه .وهذا النوع ينكره بعض الناس ويثبته آخرون .

ويرى الباحث أن الحق مع المثبتين والأدلة على ذلك :

أولاً :من القرآن الكريم

قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ...﴾ .(١)

قال الإمام القرطبي : «في هذه الآية دليل على فساد رأي من أنكر الصرع من جهة الجنّ وزعم أنّه من فعل الطبائع وأن الشيطان لا يسلك في الانسان ،ولا يكون منه مس» (٢) .

وقال الإمام الطبري - رحمه الله - : «أي لا يقومون في الآخرة من قبورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس يعني من الجنون» (٣) .

وقال الإمام ابن كثير - رحمه الله -: «أي لا يقومون إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له ، وذلك أن يقوم قياماً منكراً» (٤) .

ثانياً من السنة المطهرة :

عن صفية رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال :«إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» (٥) .

استدل بعض العلماء بهذا الحديث على استطاعة الشيطان النفاذ في باطن الانسان وبه استدلوا على إمكان وقوع الصرع .

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٧٥) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣/٣٥٥ .

(٣) جامع البيان ٣/١٠١ .

(٤) تفسيرالقرآن العظيم ١/٣٢٦ .

(٥) فتح الباري ١٣/١٥٩ كتاب الأحكام باب الشهادة تكون عند الحاكم حديث رقم ٧١٧١ .

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال :«خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع حتى إذا كنا بحرّة واقم ، عرضت امرأة بدوية بابن لها ، فجاءت إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يارسول الله ، هذا ابني ، قد غلبني عليه الشيطان فقال :«أدنيه مني» فأدنته قال :«افتحي فمه» ففتحته ، فبصق فيه رسول الله ﷺ ثم قال :«إخسأ عدو الله وأنارسول الله ، قالها ثلاث مرات ثم قال : «شأنك بابنك ليس عليه ، فلن يعود إليه شئ مما كان يصيبه» [1].

وعن ابي سعيد الخدري -رضي الله عنه - قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كبر ثم يقول :«سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك» ثم يقول :«لا إله إلا الله» ثلاثاً ثم يقول :«الله أكبر كبيرا» ثلاثاً ، «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» ، ثم يقرأ[2] .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله فهمزه الموتة وهو الخنق الذي هو الصرع . [3]

ثالثاً : الأدلة العقلية

جاء في كتاب ردود على أباطيل :«إذا كان الجنّ أجساماً لطيفة لم يمتنع عقلاً ولا نقلاً سلوكهم في أبدان بني آدم ، فإن اللطيف يسلك في الكثيف كالهواء مثلاً فإنه يدخل في أبداننا ، وكالنار تسلك في الجمر ،وكالكهرباء تسلك في الأسلاك ، بل وكالماء في الأتربة والرمال والثياب مع أنه ليس في اللطافة كالهواء والكهرباء .

وقد وقف أهل الحق موقف التسليم للنصوص المخبرة بدخول الجنّ أجساد الإنس وقد بلغت من الكثرة مبلغاً لا يصح الإنصراف عنه إلى إنكار المنكرين وهذيانهم فإن الوحي الصادق قد أنبأنا هذا ، وإن الإذعان له يقتضيه دونما تأويل سخيف يخرج بالنصوص عن صراطها إلى تعريجات لا يسلم معها إسلام ولا ينعقد بها اعتقاد صحيح ، ... ووقائع سلوك الجنّ في أجساد الانس كثيرة مشاهدة لا تكاد تحصى لكثرتها ، فمنكر ذلك مصطدم بالواقع المشاهد وإنه لينادي ببطلان قوله» [4].

---

(١) سنن الدارمي / الإمام أبي محمد عبد الله الدارمي ١/ ١٠ ط. دار الكتب العلمية .

(٢) سنن أبي داوود ١/ ٤٩٠ كتاب الصلاة ، باب من رأى الإستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك حديث رقم ٧٧٥ ، وسنن ابن ماجة ٢/ ١٢٥٥ كتاب الأدب باب فضل العمل حديث رقم ٣٨٢١ .

(٣) البداية والنهاية ١/ ٦١ .

(٤) ردود على أباطيل / للشيخ محمد الحامد ٢/ ١٣٥ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

«وجود الجنّ ثابت بالقرآن والسنة ، واتفاق سلف الأمة . وكذلك دخول الجنّ في بدن الانسان ثابت باتفاق أئمة أهل السنة ، وهو أمر مشهود محسوس لمن تدبره ، يدخل في المصروع ويتكلّم بكلام لا يعرفه ، بل ولا يدري به ، بل يضرب ضرباً لو ضربه جمل لمات ، ولا يحس به المصروع ، وقوله تعالى :﴿... إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ...﴾[1] ... وقوله ﷺ «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[2] . وغير ذلك يصدقه[3] .

وجاء في الطب النبوي :

«الصرع صرعان : صرع من الأرواح الخبيثة الأرضية ،وصرع من الأخلاط الرديئة»[4] .

علاج الصرع

سبق وأن ذكرنا أنموذجاً لعلاج النبي ﷺ للصرع ، وفعل ذلك عبد الله بن مسعود وأقره النبي ﷺ ، وفعل ذلك أيضاً الإمام أحمد ، وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمهم الله ، فقد حدث على عهد الإمام أحمد أن جارية صرعت ، فأخرج لصاحب له نعلي خشب بشراك من خوص للوضؤ ثم قال له : تمضي إلى دار أمير المؤمنين ، وتجلس عند رأس هذه الجارية وتقول له : -يعني الجنّي - قال لك أحمد : أي أحب إليك تخرج من هذه الجارية أو تصفع بهذا النعل سبعين ، فمضى إليه وقال له مثل الذي قاله الامام أحمد . فقال له المارد على لسان الجارية : السمع والطاعة لو أمرنا أحمد ألا نقيم بالعراق ما أقمنا . إنه أطاع الله ، ومن أطاع الله أطاعه كل شئ وخرج من الجارية وهدأت ورزقت أولاداً[5] .

وفي العصر الحديث فعل مثل ذلك الإمام الشهيد حسن البنا ، بعد أن قدرله أن يطلع على إحدى قصص الإمام أحمد في هذا الشأن .

وخلاصة القصّة أن رجلاً جاء إلى الإمام أحمد بن حنبل يشكو له أن له أخاً تنتابه حالة يفقد فيها وعيه ، يمزق فيها ملابسه ، ويهاجم من حوله ، ويريد أن يفتك بأقرب الناس إليه ، وإنه

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٧٥) .

(٢) سبق تخريجه انظر ص (١٨٧) .

(٣) مختصر الفتاوى المصرية ص ٥٨٤ .

(٤) الطب النبوي لابن القيم ص ٥١ دار الندوة الجديدة - بيروت .

(٥) آكام المرجان في أحكام الجان / عمر بن عبد الله الشبلي ص ١١٤ - ١١٥ ، دار المعرفة - بيروت .

عرض على الأطباء فأعجزهم .فطلب منه الامام أحمد أن يأتيه بأخيه وهو على حالته تلك ففعل ، فقرأ عليه الإمام أحمد القرآن حتى سمع الجميع صوتاً منبعثاً من جسم الرجل المريض يستغيث بالإمام ، ويقول له حسبك سأفعل ماتريد ، فقال له الإمام : دع هذا الرجل واخرج من أصبع قدمه ففعل ، وإذا بالمريض يستيقظ كأنما حلّ من عقال .

وحدث أن زار الإمام الشهيد حسن البنا إخوانه في السويس ، فلما وصل استقبله كافة الإخوان بحفاوة إلا واحداً كان يقف وحده بعيداً ، فترك الإمام الإخوان وانتحى بذاك الأخ جانباً وسأله عما يحزنه فذكر له أن امرأته أصابها مرض ينتابها بين الحين والحين تفقد فيه رشدها وتتحول إلى وحش كاسر ، ففعل معها الإمام الشهيد مافعله الإمام أحمد بمريضه فشفى الله المرأة على يديه ببركة القرآن الكريم ، وكأنها لم تكن أصيبت من قبل [١].

إذن فالعلاج ينبغي أن يكون علاجاً شرعياً برقية من كتاب الله عزّ وجلّ أو دعاء دعا به رسول الله ﷺ ، وماسوى ذلك فباطل .

ثم إن المعالج ينبغي أن يكون معروفاً بالتقوى والصلاح .

جاء في الجواب الكافي :«ولقد مر بي وقت بمكة سقمت فيه ، وفقدت الطبيب والدواء فكنت أعالج نفسي بالفاتحة وأقرؤها على شربة من ماء زمزم مراراً ثم أشربه، فوجدت بذلك البرء التام ، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع فأنتفع بها غاية الإنتفاع» [٢]

وفي زاد المعاد :«الفاتحة هي أم القرآن ، والسبع المثاني ، والشفاء التام ، والدواء النافع والرقية التّامّة ، ومفتاح الغنى والفلاح ، وحافظة القوة ، ورافعة الهم والغم ، والخوف والحزن لمن عرف مقدارها وأعطاها حقها ، وأحسن تنزيلها على دائه ، وعرف وجه الاستشفاء والتداوي بها» [٣].

وينبه الباحث : على أنه يوجد في هذا الزمان بعض الدجالين الذين يزعمون زوراً وبهتاناً أن لهم اتصالاً بالجن بقصد التلاعب بعقول السذج من النساء والرجال .

---

(١) انظر الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ / محمود عبد الحليم ١٨٨/١- ١٨٩ دار الدعوة .

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي / ابن قيم الجوزية ، تحقيق د. محمد جميل غازي ص ١٤٨ مطبعة المدني – القاهرة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م ، وانظر زاد المعاد في هدي خير العباد للمؤلف نفسه ١٢٢/٣ المكتبة المصرية القاهرة .

(٣) زاد المعاد ١٧٧/٣ .

يوجد اتصال على رأي ربـ
يرجع إلى الفتاوى مجلد ٣٦.

ويرى الباحث أنه لا يوجد اتصال شرعي مطلقاً بين عالمي الانس والجنّ إلا من باب تسلط الكافرين من الجنّ أو الجهلة من المسلمين منهم على بني الإنسان ، ولو أنّ هناك اتصالاً لما أغفلته مصادر الشريعة الموثوقة ، بل إن القرآن الكريم ذكر أن أهل الجاهلية الذين كانوا يعوذون برجال من الجنّ لم ينفعوهم بل زادوهم غياً وضلالاً .

قال تعالى :﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (١) .

وقد أنكرت السنة المطهرة الاتصال بالعرّافين . فعن حفصة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :« من أتى عرافاً فسأله عن شئ لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » . (٢)

وبناءً على ماتقدم ، فإن أي اتصال بين إنسي وجنّي إنما هو اتصال غير شرعي ،وهي طريقة السحرة والكهنة ، بل هذ شرك ، لأنها استعانة بغير الله .

والأدهى من ذلك أن الشياطين لا يخدمون الساحر حتى يكفر إما بقول أو فعل . وكلّما كان الساحر أكفر كانت له الشياطين أطوع وأقرب ، وكل مانراه في هذا الزمان من تمائم على شكل مثلثات أو غيرها ومكتوبة بالخط الأحمر كلها من قبيل الطلاسم وهي شرك وكفر صريح تكتب بحروف غير مفهومة ، وقد يستخدمون فيها شيئاً من القرآن حتى يظن الجهّال من النّاس أنهم يستخدمون القرآن .

هل يلقى الجنّ للانس علوماً وأخباراً ؟

يمكن أن يلقى الجنّ إلى قرنائهم من الكهان شيئاً من ذلك ، إلا أن معيار الصدق والكذب فيما يلقونه راجع إلى مواضيع تلك العلوم التي يلقونها .

فإن كانت من العلوم التي تتعلق بالأمور المشهورة ، أو الإخبار عن الوقائع الماضية فإنها أخبار تحتمل الصدق أو الكذب ، وذلك أن في الجنّ كذابين حيث أن منهم عصاة وكافرين .

ومن جهة ثانية ، فإنه لا يصح الثقة بشئ من أخبارهم لانعدام مقاييس تحديد الصادقين والكاذبين فيهم بالنسبة إلينا .

وإن كانت من المغيبات فهي :

إما أن تكون من المغيبات التي استأثر الله تعالى بعلمها ، وهذه لا يمكن لانس ولا جن معرفة شئ منها ، ولا يكون التحدث بها إلا كذباً وافتراءً على الله .

---

(١) سورة الجن الآية (٦) .

(٢) صحيح مسلم ١٧٥١/٤ كتاب السلام باب تحريم إتيان الكهان - حديث رقم ١٢٥ .

وإما أن تكون من المغيبات التي قضي أمرها في السماء ، وأصبحت معلومة لذوي الاختصاص من الملائكة ، كما أصبحت معدة لتبليغها للملائكة الموظفين بتنفيذ أمر الله فيها .

وهذه قالت فيها السيدة عائشة رضي الله عنها : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«إن الملائكة تنزل في العنان [1] فتذكر الأمر قضى في السماء ، فتسترق الشياطين السمع فتوحيه إلى الكهان ، فيكذبون معها مائة كذبة من عند انفسهم . [2]

وهذا هو استراق الشياطين السمع من الملائكة بعد نزولها إلى جو الأرض وليس هو استراقها السمع من السماء ، كما كان دأبهم قبل بعثة محمد ﷺ والذي منعوا منه بالشهب [3].

(١) السحاب .

(٢) فتح الباري ٦/٣٠٤ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة حديث ٣٢١٠ ط. دار المعرفة .

(٣) انظر العقيدة الإسلامية وأسسها ص ٢٩٠ .

المبحث السادس
في علاقة العبد بربّه
وفيه أربعة مطالب

المطلب الأوّل : متى يكون العبد محباً لله على الحقيقة ؟.

المطلب الثّاني : رأي ابن كثير في التقرب إلى الله بالأولياء والصالحين .

المطلب الثّالث : رأيه في الإستغاثة والتوسل بالموتى .

المطلب الرّابع : رأيه في زيارة قبور الأنبياء والصالحين .

المطلب الأول
متى يكون العبد محباً لله على الحقيقة ؟

نص كتاب الله الكريم ، ونصت السنّة المطهرة ، على أنّ الحب لله تعالى هو الغاية القصوى التي يسعى الإنسان لتحقيقها .

ودليل محبّة العبد لربه ثابت في غيرما آية فهو ثابت في قوله تعالى :﴿... يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾(١) وهو ثابت في قوله تعالى :﴿... وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ...﴾(٢) وهو ثابت في قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.(٣)

ولكن المحبّة هنا ليست كلمة تقال أو إدعاءً يدّعى إنها لو كانت كلمة تقال ، فما أسهل قولها ، ولو كانت إدعاءً يدّعى فما أسهل الإدّعاء إن حبّ العبد لربه عزّ وجلّ منزلة سامية ترتفع بصاحبها إلى أعلى درجات السمّو ، وهذه المنزلة تستدعى أن يؤثر محبوبه ، وأن يضحى في سبيله بكل رغبة من رغباته ، وأن يتحمل في سبيل رضاه كلّ ضنك وكلّ عناءٍ ، وأن يصبر على كل بلاء ، ومن هنا فإنّ هذا الحب له مقوماته فإن وجدت كان المحب صادقاً في حبه ، وإن فقدت فما أكثر الكذّابين في هذا الزمان !

وأهم هذه المقومات هو اتباع ماأنزل الله عزّ وجلّ على رسله صلوات الله وسلامه عليهم قال تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.(٤)

قال الإمام ابن كثير -رحمه الله- : «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبّة الله وليس هو على الطريقة المحمديّة ، فإنّه كاذب في دعواه في نفس الأمر ، حتى يتبع الشرع المحمّدي في جميع أقواله وأفعاله ، كما ثبت في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها عن رسول

---

(١) سورة المائدة الآية (٥٤) .

(٢) سورة البقرة الآية (١٦٥) .

(٣) سورة التوبة الآية (٢٤) .

(٤) سورة آل عمران الآيتان (٣١-٣٢) .

الله ﷺ أنّه قال : «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ» [1] ولهذا قال :﴿إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي يحصل لكم فوق ماطلبتم من محبّتكم إيّاه وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول ، كما قال بعض الحكماء : ليس الشأن أن تُحِب انما الشأن أن تُحَب وقال الحسن البصري : زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال :﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت : قال رسول الله ﷺ هل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله» . [2]

وبناءً عليه فإن أول خطوة يخطوها الإنسان تجاه حبّه لله هو اتباع ماجاء به رسول الله ﷺ عن الله تعالى .

وبداهة فإن محبة ماجاء به إنسان يستدعى محبة هذا الإنسان ، إذن فمحبة الله لا تتم إلا بحب الرسول ﷺ ففي الحديث عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الساعة فأجابه عليه السلام بقوله : «وما أعددت لها»؟ قال : لا شئ سوى أني أحب الله ورسوله فقال ﷺ :«أنت مع من أحببت» . [3]

وأخرج البخاري بسنده أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :«يارسول الله لأنت أحب إليّ من كل شئ إلا من نفسي» فقال النبي ﷺ :«لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحبّ إليك من نفسك» فقال عمر ، فإنّه الآن ، والله لأنت أحبّ إليّ من نفسي ، فقال رسول الله ﷺ الآن ياعمر» . [4]

وإذا رجعنا إلى ماجاء به النبي ﷺ فإننا نجد أن الإمام ابن كثير - رحمه الله - «يقرر أن من خالف طريقة محمد ﷺ فهو كافر والله لا يحب من اتصف بذلك ، وإن ادعى وزعم في نفسه أنّه محب لله ، ويتقرّب إليه حتى يتابع الرسول النبي الأمّي ﷺ خاتم الرسل» . [5]

---

(١) فتح الباري ٣١٧/١٣ ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب إذا اجتهد العامل - بدون رقم .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣٥٨/١ .

(٣) بنحوه في فتح الباري ٥٥٧/١٠ كتاب الأدب باب علاقة الحب في الله ط. دار المعرفة .

(٤) فتح الباري ٥٢٣/١١ كتاب الأيمان والنذور باب كيف كانت يمين النبي ﷺ حديث رقم ٦٦٣٢ ومسند الإمام أحمد ٢٩٣/٥ .

(٥) تفسير القرآن العظيم ٣٥٨/١ .

بقيت مسألة تأتي مرتبتها بعد محبة اللّه تعالى ومحبة رسوله ﷺ ، تلكم هي محبة المؤمنين بعضهم بعضاً ، فإن من تمثل محبّة اللّه عزّ وجلّ ومحبّة رسوله ﷺ فإنه ينبغي عليه أن يحب من هم مثله ممن حققوا محبة اللّه تعالى ومحبة رسوله ﷺ ، ذلك أن الأمة التي لا يسودها الإخاء والمحبّة والتعاون هي أمة مهدّمة الأركان ، منهارة البنيان ،ولذلك قال اللّه تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ .(1)

وباعتبار أن هذه المسألة – حب العبد لله تعالى – يطول بحثها وليس هنا مجال ذلك ، لذلك فإني مضطر لانهاء الحديث عنها وأختم بالحديث الذي راوه انس رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» .(2)

---

(1) سورة الصف الآية (٤) .

(2) فتح الباري ٥٦/١ كتاب الإيمان ، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه حديث رقم ١٣ ومسند الإمام أحمد ١٧٦/٣ ، ٢٧٢ .

المطلب الثاني
رأي ابن كثير في التقرب إلى الله تعالى بالأولياء والصّالحين

قال تعالى :﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ .(١)

وقال تعالى :﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ .(٢)

قال الإمام ابن كثير - رحمه الّله - (روى أن اعرابياً قال : يارسول الّله أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الّله تعالى «وإذا سألك عبادي ...»)(٣)

وعن أبي موسي الأشعري - رضي الله عنه -قال : كنّا مع رسول الّله ﷺ في غزوة فجعلنا لا نصعد شرفاً ، ولا نعلوا شرفاً ، ولا نهبط وادياً ، إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير قال : فدنا منا فقال : «ياأيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سمعياً بصيراً ، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ياعبد الّله بن قيس ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنّة ؟ لا حول ولا قوة إلاّ بالّله » .(٤)

وعن أبي هريرة -رضي الّله عنه- أنه سمع رسول الّله ﷺ يقول : «قال الّله تعالى : أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه» .(٥)

قال الإمام ابن كثير :(وهذا كقوله تعالى :﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ وقوله لموسى وهارون عليهما السلام :﴿...إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ .(٦)

---

(١) سورة البقرة الآية (١٨٦) .

(٢) سورة غافر الآية (٦٠) .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢١٩/١ .

(٤) بنحوه أخرج البخاري - انظر فتح الباري ٣٧٢/١٣ ، كتاب التوحيد باب وكان الله سمعياً بصيراً - حديث رقم ٧٣٨٦ ، وصحيح مسلم ٢٠٧٦/٤ كتاب الذكر باب إستحباب خفض الصوت بالذكر حديث رقم ٤٤ .

(٥) فتح الباري ٤٩٩/١٣ ، كتاب التوحيد باب قوله تعالى :«لاتحرك به لسانك» حديث رقم ٧٥٢٤ .

(٦) سورة طه الآية (٤٦) .

والمراد من هذا ، أنه تعالى لا يخيّب دعاء داع ، ولا يشغله عنه شئ ، بل هو سميع الدعاء ففيه ترغيب في الدعاء ، وأنه لا يضيع لديه تعالى ، كما قال ﷺ : «إن اللّه تعالى ليستحى أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيها خيراً فيردهما خائبتين» .[1]

وقال ﷺ «القلوب أوعية ، وبعضها أوعى من بعض ، فإذا سألتم اللّه أيها الناس فاسألوه وانتم موقنون بالإجابة ، فإنه لا يستجاب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل»[2]) .[3]

وفي حث اللّه سبحانه العباد على الدعاء في قوله تعالى :﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : (هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة ، كما كان سفيان الثوري . يقول : يامن أحب عباده إليه من سأله فأكثر سؤاله ، ويامن أبغض عباده إليه من لم يسأله وليس أحد كذلك غيرك يارب» وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

اللـه يغـضب إن تركت سـؤاله *** وبنيّ آدم حين يسـأل يغـضب(٤)

ويرى الباحث أنّه من خلال الوقوف على تفسير هذه الآيات الكريمات للامام ابن كثير سواء كان مفسراً أو ناقلاً عن غيره ، لم يتعرض البتّه ولم يذكر لا من قريب أو بعيد ولم يجر قلمه بكتابة كلمة الصالحين أو الأولياء في مسألة الدعاء أو التقرب إلى اللّه تعالى بل قصر المسألة على العلاقة بين العبد وربه بلا واسطة من أحد من العباد ، الأمر الذي يجعلنا نستشف رأي الإمام ابن كثير - رحمه الله - وكأني به يقول - رحمه الله - : أنه لا وساطة بين العبد وربّه لا بشيخ ولا ولي بل العبد نفسه يستطيع التوجّه إلى اللّه عزّ وجلّ في أي وقت من ليل أو نهار وفي أي مكان ، ذلك أن الدعاء هو العبادة كما وردت به الأحاديث الصحيحة ومن قبلها آيات الكتاب الكريم .

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤٣٨/٥ .

(٢) مسند الإمام أحمد ١٧٧/٢ ، مجمع الزاوئد ومنبع الفوائد /الحافظ الهيثمي ١٤٨/١٠ دار الفكر ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢١٩/١ .

(٤) المصدر السابق ٨٥/٤ .

المطلب الثالث
رأيه في الإستغاثة والتوسّل بالموتى

قال تعالى :﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ...﴾ .[1]

قال الإمام ابن كثير -رحمه الله -: الوسيلة : القربة وهي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود ،[2] وقيل : هي ما يتقرب به إلى الغير[3] كل هذا في اللغة .

وفي الشرع قال الإمام ابن كثير - رحمه الله -: هي التقرب إلى الله تعالى بطاعته والعمل بما يرضيه .[4]

الواضح من قول الإمام ابن كثير السابق أنّه لا يرى التقرب إلى الله من قبل العبد إلاّ بالطاعات ، والعمل الصالح ، دونما واسطة من أحد ، بيْد أن هناك صراعاً شديداً بين الإسلاميين حول التوسل إلى الله بالأموات ، سواء كانوا رسلاً أو صالحين ، فمن الناس من اعتبروه شركاً ، ورأى آخرون أنه لا يضر التوسل إلى الله عز وجل برسول الله ﷺ في حياته أو بعد مماته أو بالأنبياء عامة والصالحين أحياءاً وأمواتاً .

وإذا اردنا أن نفصل في هذه المسألة فيرى الباحث أنّها ليست بتلك الأهمية ولو رجعنا فيها إلى السلف الصالح رضوان عليهم لما وجدناها عندهم من صميم العقائد كمسائل التوحيد مثلاً بل إنهم صنفوها ضمن أبواب الجنائز والأذكار وما شابه .

ومن الذين فصلوا في هذه المسألة في العصر الحديث الإمام الشهيد حسن البنا عليه رحمه الله حيث قال : «ولكن الاستعانة بالمقبورين أياً كانوا ونداءهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد كبائر تجب محاربتها ... والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة » .[5]

---

(١) سورة المائدة الآية (٣٥) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/٥٢ -٥٣ .

(٣) التعريفات ص ٣٠٧ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٢/٥٢ .

(٥) انظر مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ، رسالة التعاليم ، الأصلين الرابع عشر والخامس عشر من الأصول العشرين ص ٣٩٢ .

والذي دعا الإمام البنا إلى مثل هذا الموقف هو أن رجلاً أعمى طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو الله ليردّ عليه بصره ، فهذا توسل والأهم من ذلك هو أن النبي ﷺ علّمه دعاءً فيه توسل فقال له : «انطلق فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل :«اللهم إنّي أسألك واتوجّه إليك بنبّيك محمد ﷺ نبي الرحمة ، يامحمّد إنّي أتوجه إلى ربي بك أن يكشف لي عن بصري اللهم شفعه فيّ وشفعني في نفسي » .(١)

وهذا الرأي الآخير هو الذي يميل إليه الباحث خاصة إذا كان المتوسِل يعتقد أن المتوسَل به لا يقدم شيئا ولا يؤخر في مسألة قضاء الحاجات إنما يتم التوسل به لمكانته عند الله تعالى فقط والله تعالى أعلم .

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٣٨/٤ .

المطلب الرابع
رأيه في زيارة قبور الانبياء والصالحين للتيمّن والتقديس

يحتاج إلى تفصيل

علمنا من قبل أن الإمام ابن تيمية - رحمه الله - هو شيخ الإمام ابن كثير والمشهور عن ابن تيمية أنه يمنع زيارة القبور بما فيها قبر النبي ﷺ لدرجة أن كثيراً من العلماء خالفوه في هذه المسألة ، وخالفوه بشدة في رأيه في زيارة قبر النبي ﷺ .

إلاّ أن هذا المشهور عن ابن تيمية لم يصح - ولقد علمنا ذلك من خلال دفاع تلميذه ابن كثير عنه ونفيه لما سبق عن شيخه ، فقال مدافعاً عنه « ... وزيارة القبور من غير شدّ رحل إليها مسألة وشدّ الرحل لمجرد الزيارة مسألة آخرى » .(١)

فكأني به يقول أن ابن تيمية منع فقط الزيارة التي تشد فيها الرحال ، أما زيارة القبور التي ليس فيها شد رحال فقال :

« ولم يتعرض - يعني ابن تيمية- إلى هذه الزيارة في هذا الوجه في الفتيا ، ولا قال إنها معصية ، ولا حكى الإجماع على المنع منها ولا هو جاهل قول الرسول ﷺ «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة» .(٢)

ولعله - ابن تيمية - استند في منع الزيارة التي تشد فيها الرحال إلى حديث «لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى» .(٣)

إذن فالزيارة التي لا شد للرحال إليها والتي يبتغى منها تذكّر الآخرة وليست للتيمّن والتقديس هي مسموحة عند الإمام ابن تيمية ، وما دام أن تلميذه هبّ مدافعاً عمّا نسب إليه إليه ، إذن فهو مؤيد له ، وإذن فالزياة للقبور لأجل تذكر الآخرة فقط والتي لا تشد فيها الرحال هي مسموحة عند الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى .

---

(١) البداية والنهاية ١٤/١٢٤ .

(٢) صحيح مسلم ٢/٦٧١ كتاب الجنائز باب استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر امّه حديث رقم ١٠٥ ، وبنحوه في مسند الإمام أحمد ٢/٤٤١ .

(٣) الحديث صحيح أخرجه البخاري عن أبي هريرة ، فتح الباري ٣/٦٣ كتاب التهجد ، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة حديث رقم ١١٨٩ ، ومسند الإمام أحمد ٣/٧ .

المبحث السّابع

الغيبيّات في دراسة ابن كثير

وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأوّل : الموت وما يتعلق به .

المطلب الثّاني : أشراط الساعة .

المطلب الثّالث : يوم القيامة وما يحدث فيه.

المطلب الأوّل
الموت وما يتعلق به

قال تعالى :﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (١)

فالموت إذن نهاية كل حي ، ذلك أن الحياة برمّتها في هذه الأرض موقوتة بأجل ، ثم تأتي نهايتها حتماً ، حيث يموت كل الناس ، بل كل الخلائق ويبقى الحي الذي لا يموت ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ . (٢)

يموت الصالح والطالح ، ويموت المجاهد والقاعد ، يموت المستعلون بالعقيدة والمستذلّون للعبيد ، ويموت الشجعان الذين يأبون إلا النّعيم ، والجبناء الحريصون على حياة ، ولو نجا إنسان من الموت لنجا منه سيّد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه قال تعالى : ﴿وما جلعنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت...﴾ . (٣)

وبموت الإنسان يتنقل من دار العمل بلا حساب إلى دار الحساب بلاعمل فينتقل الإنسان من الحياة المؤقتة إلى الحياة الخالدة المؤبدة وأول منزل ينزله الإنسان بعد موته هو القبر ، وهو الحياة البرزخية التي يبقى فيها الإنسان إلى حيث قيام السّاعة ، حيث يعرض الناس على ربهم عزّ وجلّ ، والقبر كما هو ثابت إمّا روضّة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار والعياذ بالله .

قال تعالى :﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ . (٤)

قال الإمام ابن كثير -رحمه الله - : «وقد استدلوا بها على عذاب القبر في البرزخ ، فعن عائشة رضي الله عنها أن يهوديّة كانت تخدمها ، فلا تصنع عائشة رضي الله عنها إليها شيئاً من المعروف ، إلا قالت لها اليهوديّة : وقاك الله عذاب القبر ، قالت عائشة رضي الله عنها فدخل رسول الله ﷺ عليّ فقلت يارسول الله : هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة ؟ قال ﷺ «لا من زعم ذلك» ؟ «قالت : هذه اليهوديّة ، لا أصنع لها شيئاً من المعروف إلاّ قالت : وقاك الله

---

(١) سورة الأعراف الآية (٣٤) .

(٢) سورة الرحمن الآية (٢٦ ،٢٧) .

(٣) سورة الأنبياء الآية (٣٤، ٣٥) .

(٤) سورة غافر الآية (٤٦) .

عذاب القبر ، قال ﷺ «كذبت يهود وهم على الله أكذب لاعذاب دون يوم القيامة » ثم مكث بعد ذلك ماشاء الله أن يمكث ، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بثوبه محمرّةً عيناه وهو ينادي بأعلى صوته «القبر كقطع الليل المظلم ، أيها الناس لو تعلمون ما أعلم بكيتم كثيراً وضحتكم قليلاً ، أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر ، فإن عذاب القبر حق» .(١)

أما الموكلين بعذاب القبر فقد ذكرنا - عند حديثنا في المبحث الخامس عن الملائكة أنهماملكان يقال للأول منكر وللآخر نكير .

قال البراء بن عازب (٢) : خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولم يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به الأرض ، فرفع رأسه فقال :«استعيذوا بالله من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثاً ثم قال : «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنّة وحنوط (٣) من حنوط الجنّة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيئ ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه ، فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض قال : فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلاّ قالوا : ماهذا الروح الطيب ؟ فيقولون فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمّونه بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له ، فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة ، فيقول الله عزّ وجلّ : اكتبوا كتاب عبدي في عليّين وأعيدوه إلى الأرض ، فإني منهاخلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى ، قال فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان : من ربك ؟ فيقول ربي الله ، فيقولان له وما

---

(١) أورده الحافظ بن كثير في التفسير ٨١/٤ ، وقال : اسناده صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٢) هو البراء بن عازب بن الحارث بن عدي ... بن مالك الأنصاري الأوسي ، يكنّى أبا عمارة ، غزا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة غزوة ، شهد مع علي الجمل ، وصفّين ، وقتال الخوارج ، ونزل الكوفة وابتنى بها داراً ومات في إمارة مصعب بن الزبير . انظر الاصابة ١٤٧/١ .

(٣) طيب يخلط للميت خاصة ، وكل ما طيّب به الميت من مسك وغيره .

دينك ؟ فيقول : ديني الاسلام ، فيقولان له : ماهذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله ﷺ ، فيقولان له : وماعلمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادي مناد في السماء أن صدق عبدي فافرشوه من الجنّة ، وألبسوه من الجنّة ، وافتحوا له باباً إلى الجنّة قال : فيأتيه من رَوحها[1] وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره ، قال : ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول : أبشر بالذي يسرك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيئ بالخير؟ فيقول:أنا عملك الصالح ، فيقول : ربّ أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي .

قال : وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة سود الوجوه معهم المسوح [2] فيجلسون منه مدّ البصر ثم يجيئ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، قال : فتفرّق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود [3] من الصوف المبلول ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلاّ قالوا ماهذا الروح الخبيث؟ فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمّى بها في الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﴿... لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ...﴾[4] فيقول الله عزّ وجلّ : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحاً ، ثم قرأ : ﴿... وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[5] فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك؟ فيقول ها.ها. لا أدري ، فيقولان له : ما دينك؟ فيقول : ها.ها. لا أدري ، فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول ها.ها. لا أدري فينادي مناد من السماء أن كذب فافرشوا له من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرّها وسمومها ، ويضيق عليه قبره ، حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح

---

(١) الرَوْح : بفتح الراء وسكون الواو : الرحمة .

(٢) المسوح : جمع مسح : الثوب الخشن .

(٣) السفود : الحديدة التي يشوى بها اللحم .

(٤) سورة الأعراف الآية (٤٠) .

(٥) سورة الحج الآية (٣١) .

الثياب منتن الريح فيقول : أبشر بالـــذي يســـوءك ، هـذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول من أنت فوجهك الوجه يجيئ بالشر ؟ فيقول أنا عملك الخبيث ، فيقول : رب لا تقم الساعة » .[1]

قال شارح العقيدة الطحاوية : «وذهب إلى موجب هذا الحديث جميع أهل السنّة والحديث وله شواهد من الصحيح » ،[2] فذكر البخاري -رحمه الله- بسنده عن أنس أن رسول الله ﷺ قال :«إن العبد إذا وضع في قبره وتولّى عنه أصحابه ، إنّه ليسمع قرع نعالهم ، فيأتيه ملكان فيقعدانه ، فيقولان له : ماكنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً ..وأما الكافر - أو المنافق - فيقول : لا أدري ،كنت أقول مايقول الناس فيقال : لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحةً يسمعها من يليه إلا الثقلين .»[3]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ النبّي ﷺ مرّ بقبرين فقال : «أما إنهما ليعذبان ومايعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة فدعا بجريدة رطبة ، فشقها نصفين وقال : لعلّه يخفف عنهما مالم ييبسا ».[4]

ويعتقد الباحث بناءً على ماتقدم من الأحاديث والتي بلغت حدّ الشهرة فإن سؤال القبر وعذابه ونعيمه يجب الإيمان به ، ذلك أن الله تعالى يرد على الميت روحه وسمعه وبصره ثم يسألانه (منكر ونكير) عن دينه وربه ونبيه ، فإما أن ينعم أو يعذب .

قال شارح الطحاوية :«واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر ، أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً أو نسف في الهواء ، أو صلب أو غرق في البحر ، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢٨٨/٤ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩٨ .

(٣) فتح الباري ٢٠٥/٣ كتاب الجنائز باب الميت يسمع خفق النعال - حديث رقم ١٣٣٨ ، وصحيح مسلم ٢٢٠٠/٤ كتاب الجنّة وصفة نعيمها باب عرض مقعد الميت من الجنّة أو النار عليه حديث رقم ٧٠ .

(٤) فتح الباري ٢٤٢/٣ كتاب الجنائز باب عذاب القبر من الغيبة والبول - حديث رقم ١٣٧٨ وبنحوه أخرج مسلم ، صحيح مسلم ٢٤٠/١ كتاب الإيمان باب الدليل على نجاسة البول - حديث رقم ١١١ .

وماورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك - فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير ، فلا يحمّل كلامه مالا يحتمله ، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان ، فكم حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب مالايعلمه إلاّ الله ، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام وهو أصل كل خطأ في الفروع والأصول ، ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد والله المستعان» .[1]

هذا ولا يسأل الأنبياء والصالحون والصبيان والشهداء ،[2] ففي الحديث أن رجلاً قال : يارسول الله مابال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلاّ الشهيد ؟ فقال : «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنةً » .[3]

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٠٠ .

(٢) الدين الخالص ١/ ٩٠ .

(٣) كنز العمال ٤/ ٣٠٣ حديث رقم ١٠٦١٠ .

ومعنى يفتنون : أي يمتحنون بالسؤال في القبر ، وكفى ببارقة السيوف : أي السيوف البارقة والمعنى أن ثباتهم في الصف وبذلهم أرواحهم لله تعالى دليل إيمانهم فلا حاجة لسؤالهم .

المطلب الثّاني
أشـراط السـاعـــة

أما عن وقت قيام الساعة ، فلاعلم لبشر به ولا ملك ، وإنّما علمها عند ربّ السموات وربّ الأرض ، استأثر بها سبحانه وتعالى ، وهي من مكنونات علمه جلّ وعلا .

قال تعالى :﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ .[1]

إلا أن فضول الإنسان يدفعه إلى السؤال عن كل شئ ، فلقد جاء أقوام إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن الساعة ، فجاء الجواب من رب العالمين : ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ .[2]

ويتساءل الناس عن حكمة إخفاء وقت قيام الساعة ، ولا شك أن لإخفائها حكمة عند رب العزّة عزّ وجلّ ، لعل منها ما يدفع الإنسان إلى ترقبها والنظر إلى إصلاح نفسه ، وتهيئتها لذلك اليوم الموعود المرتقب وهو يوم مجهول .

يقول الشهيد سيد قطب :

«والمجهول عنصر أساسي في حياة البشر ، وفي تكوينهم النفسي ، فلابد من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه ، ولو كان كل شئ مكشوفاً لهم - وهم بهذه الفطرة - لوقف نشاطهم وأسنت حياتهم ، فوراء المجهول يجرون ، فيحذرون ويأملون ويجربون ويتعلمون ، ويكشفون المخبوء من طاقاتهم ، وطاقات الكون من حولهم ، ويرون آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق ويبدعون في الأرض بما شاء الله لهم أن يبدعوا ، وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد يحفظهم من الشرور ، فهم لا يدرون متى تأتي الساعة ، فهم من موعدها على حذر دائم وعلى استعداد دائم ، ذلك لمن صحت فطرته واستقام ، فأما من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل ويسقط ، ومصيره إلى الردى»[٤] .

---

(١) سورة لقمان الآية (٣٤) .

(٢) سورة الأحزاب الآية (٦٣) .

(٣) في ظلال القرآن ٤/٢٣٣١ .

وفي أحاديث رسول الّله ﷺ صور شتّى لعلامات يلمسها المرء في حياته ، وتعامله مع المجتمع الذي يعيش فيه ، فمن ذلك :

ما رواه أنس رضي الّله عنه قال : قال رسول الّله ﷺ «من أشراط الساعة الفحش والتفحش وقطيعة الرحم ، وتخوين الأمين ، وائتمان الخائن »[(١)].

ومن ذلك ماروه عبد الّله بن مسعود قال : قال رسول الّله ﷺ «إن من أشراط الساعة أن يمرّ الرجل في المسجد فلا يصلّي فيه ركعتين ولا ّ يسلم الرجل إلا على من يعرف» [(٢)].

وفي هذا المطلب سأتناول بما ييسر الّله بعضاً من أشراط الساعة الصغرى والكبرى إسهاماً في بيان أهمّية هذا الجانب من جوانب العقيدة الإسلامية .

أولاً : أشراط الساعة الصغرى :

١- *بعثة النبي* ﷺ .

عن جابر- رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :«بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار إلى أصبعيه السبّابة والوسطى وقرن بينهما » [(٣)].

قال أبوبكر الجزائري : «إن الّله تعالى ، مازال يبعث بالأنبياء ، ويرسل بالرسل لهداية الناس وإصلاحهم ، وإعدادهم للكمال الذي خلقوا له في الدنيا والآخرة حتى ختم الرسالات برسالة نبيه محمد ﷺ وأتم الشرائع بشريعته ، وجعله خاتم الأنبياء ، وأخبر أنّه لا نبي بعده فدلّ ذلك على أن الوقت الباقي من عمر هذه الدنيا قصير ، وأن الرسالة الأخيرة تتمها إصلاحاً وهداية ، فلا يحتاج معها البشر إلى وحي جديد وإلى رسالة ناسخة ، أو مجددة للشرائع والأحكام ، كما كانت الحال قبل هذه الرسالة الاسلامية ، ولهذا كانت بعثة محمد ﷺ علامة من علامات قرب الساعة وانتهاء هذه الدنيا » [(٤)].

---

(١) صحيح الجامع الصغير/السيوطي ٢١٣/٥ - تحقيق الألباني ، ط(١) ١٩٦٩ المكتب الإسلامي بيروت .

(٢) المصدر السابق .

(٣) صحيح مسلم ٥٩٢/٢ كتاب الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة حديث رقم ٤٣ .

(٤) عقيدة المؤمن ص ٣٣٦ -٣٣٧ .

٢- ولادة الأمة ربّتها وتطاول رعاء الشاء في البنيان وإسناد الأمر إلى غير أهله .

في الحديث المشهور الذي راوه البخاري بسنده عن أبي هريرة -رضي اللّه عنه- حينما جاء جبريل عليه السلام يسأل رسول اللّه ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان في صورة رجل ، سأله أيضاً عن الساعة فقال :

« ... فأخبرني عن الساعة ، فقال : «ماالمسئول عنها بأعلم من السائل » قال فأخبرني عن أمارتها ، قال :«أن تلد الأمة ربّتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان» .(١)

قال في جامع العلوم والحكم معلقاً على هذا الحديث : « ... ومضمون ماذكر من أشراط الساعة في هذا الحديث يرجع إلى أن الأمور توسد إلى غير أهلها كما قال النبي ﷺ لمن سأله عن الساعة : «إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» .(٢)

فإذا صار الحفاة العراة رعاء الشاء - وهم أهل الجهل والجفاء - رؤوس الناس وأصحاب الثروة والأموال حتى يتطاولون في البنيان ، فإنه يفسد بذلك نظام الدين والدنيا » .(٣)

أما ولادة الأمة ربّتها ، فقد قال الأكثرون من العلماء : هو اخبار عن كثرة السراري وأولادهن فإن ولدها من سيدها ، بمنزلة سيدها ، لأن مال الإنسان صائر إلى ولده ، وقد يتصرف فيه في الحال تصرف المالكين ، إما بتصريح أبيه له بالإذن ، وإمابما يعلمه بقرينة الحال أو عرف الإستعمال ، وقيل معناه : إنّ الإماء يلدن الملوك فتكون أمّه من جملة رعيته وهو سيدها وسيّد غيرها من رعيّته (٤).

---

(١) سبق تخريجه انظر ص (١٣٦) .

(٢) الحديث بتمامه عن أبي هريرة - رضي الله عنه- قال : بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم جاء أعرابي فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث ، فقال بعض القوم ، سمع ما قال فكره ماقال ، وقال بعضهم : بل لم يسمع حتى إذا قضى حديثه قال : «أين أراه السائل عن الساعة »؟ قال : أنا يارسول الله ، قال :«فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» ،قال : وكيف إضاعتها ؟ قال : «إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» . فتح الباري ١٤٢/١ كتاب العلم ، باب من سؤل علماً ، حديث رقم ٥٩ .

(٣) جامع العلوم والحكم /ابن رجب الحنبلي ص ٤٩ ط. دار الجيل بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

(٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٥٨/١-١٥٩ - دار الفكر .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله -

«فقوله عليه الصلاة والسلام أن تلد الأمة ربتها ، يعني أن الإماء تكون في آخر الزمان هن المشار إليهن بالحشمة ، فتكون الأمة تحت الرجل الكبير دون غيرها من الحراير ، ولهذا قرن ذلك بقوله «وأن ترى الحفاة العراة العالة يتطاولون في البنيان» يعني بذلك أنهم يكونون رؤوس الناس ، قد كثرت أموالهم ، وامتدت وجاهتهم ، ليس لهم دأب ولا همّة إلاّ التطاول في البناء»[(١)]

أما عن إسناد الأمر إلى غير أهله ففي الحديث إشارة إلى من ترزأ الأمة فيهم حينما يؤول الأمر إليهم ، فحينما يتسلط حاكم متبع لهواه مشتغل بنفسه يحمل الناس على مايحب وان كان مخالفاً للحق ، ويولي غير الأكفاء في مناصب الأخيار ، ويستبعد المخلص الناصح عن مكان الصدارة ، فإنّه بلا ريب داخل فيماعناه الحديث الشريف بأنه ممن أضاع الأمانة وأسند إليه أمر ليس بكفء له وليس من أهله .[(٢)]

وفي تقدير الباحث أن هذه الأمارة حادثة في زمانناهذا نلمسها صباح مساء فجميع الحكام في هذا الزمان - إلا من رحم الله - متبعون لأهوائهم ، مشتغلون بأنفسهم عن أمور رعاياهم يحملون الناس على ما يحبون ، يولّون غير الأكفاء ويستبعدون الأكفاء ، وإن خالفهم مخالف فمصيره محتوم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

٣- خروج الدجّالين الكذابين :

أورد الإمام ابن كثير - رحمه الله - في الفتن والملاحم حديث رسول الله ﷺ «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجّالون كذابون قريب من ثلاثين كلهّم يزعم أنّه رسول الله » .[(٣)]

فمن أشراط الساعة ، ظهور دجّالين كذابين يدّعون النبوة، ويزعمون أنهم أوحيت إليهم شرائع جديدة بعد شريعة الإسلام ، ويحفظ التاريخ أسماء هؤلاء من أمثال مسيلمة الكذاب ، والأسود العنسي وسجاح بنت الحارث ... وغيرهم بل ولازلنا نسمع بين حين وآخر عن ظهور متنبئ جديد يدّعي النبوة حتى يومنا هذا .

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم /الحافظ ابن كثير ، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز ٢٣١/١ ، دار التراث الإسلامي بالأزهر .

(٢) مشاهد القيامة في الحديث النبوي د.أحمد العلي ص ٥٤ ط(١) دار الوفاء ١٤١١هـ -١٩٩١م

(٣) فتح الباري ١٨/١٣ كتاب الفتن باب ٢٥ حديث ٧١٢١ ، وصحيح مسلم ٢٢٤٠/٤ حديث ٨٤ ، ط- دار الفكر .

٤- نزع البركة من الوقت ، وشيوع الكبائر ، والقتل ، وظهور الجهل ، ورفع العلم :

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان ، فتكون السنة كالشهر والجمعة كاليوم ، ويكون اليوم كالساعة ، وتكون الساعة كاحتراق السعفة » .(١)

قال الامام إبن كثير :« كناية عن نزع البركة من الوقت ، حتي يبقى الانتفاع به،وثمرة العمل فيه أقل مما يحصل في الأيام العادية التي لم تنزع بركتها » .(٢)

وعن أنس -رضي الله عنه- قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنّ من أشراط الساعة أن يقل العلم ، ويكثر الجهل ، والزنا ، وتشرب الخمر ، ويقل الرجال ، وتكثر النساء ، حتى يكون لخمسين امرأة الأيّم الواحد » .(٣)

ويرى الباحث إنّ هذا يحدث بسبب الحروب الطاحنة يذهب الرجال وتبقى النساء ولا يقتصر الأمر على مقاتلة المسلمين للكفار ، وإنما هو قتل المسلمين للمسلمين كما هو حادث اليوم في أفغانستان ، والجزائر، ومصر .

ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :«إن بين يدي الساعة الهرج» «قالوا : وما الهرج ؟ قال :«القتل انه ليس بقتلكم المشركين ، ولكن قتل بعضكم بعضاً حتى يقتل الرجل جاره ويقتل أخاه ، ويقتل عمّه » قالوا : ومعنا عقولنا يومئذ ؟ ، قال : «إنّه لتنزع عقول أهل ذلك الزمان ويخلق له هباءً من الناس يحسب أكثرهم أنهم على شئ ، وليسوا على شئ »(٤)

وروى أبو هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال : «والذي نفسي بيده ليأتين على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شئ قَتَل ، ولا يدري المقتول في أي شئ قُتِل» .(٥)

---

(١) سنن الترمذي ٥٦٧/٤ كتاب الزهد باب ماجاء في تقارب الزمان حديث رقم ٢٣٣٢ ، ط دار إحياء التراث العربي ، مسند الإمام أحمد ٥٣٧/٢ ، ٥٣٨ .

(٢) النهاية في الفتن والملاحم ٢٣٤/١ .

(٣) بنحوه أخرج مسلم انظر صحيح مسلم ٢٠٥٦/٤ كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه حديث رقم (٩) .

(٤) مسند الإمام أحمد ٤٩٢/٢ دار صادر .

(٥) صحيح مسلم ٢٢٣١/٤ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل .. حديث رقم ٥٦ .

٥- تداعي الأمم على الأمة الإسلامية :

عن ثوبان[(١)] -رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال :«يوشك أن تداعى عليكم الأمم كماتداعى الأكلة على قصعتها » ، قالوا : أومن قلة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال :«بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن» قالوا : وما الوهن يارسول الله ؟ قال :«حب الدنيا وكراهية الموت» .[(٢)]

ويرى الباحث أن هذه علامة واضحة تكررت عبر التاريخ مرات ومرات اجتاح التتار فيها ديار الإسلام ، وقد بينت ذلك في الصفحات الأولى من هذا البحث وهاجمت الصليبية الحاقدة أرض المسلمين ، وأوعزت الصهيونية إلى دعّيها كمال اتاتورك باسقاط الخلافة الإسلامية ففعل وكان هذا في عام ١٩٢٤م ، وما فعلته روسيا في أفغانستان وماتفعله في الشيشان وماتعرض له المسلمون في البوسنة والهرسك ،وما يفعله اليهود بالمسلمين في فلسطين إلا علامة من هذه العلامات حيث تكاثفت جهود الكفار على إختلاف أجناسهم ومللهم على الاطاحة بنظام الإسلام ، ونقض أركانه ودك بنيانه .

ولا تزال هذه العلامة قائمة ، فما نشهده في حاضرنا من محاولات الأعداء الخسيسة والمستمرة لتفريق صفوفنا ، وإيقاع العداوة بين أبناء أمتنا الأمر الذي يشعر بواقعية ومصداقية هذا الحديث .

وبناءً عليه فإن الأمة الإسلامية جماعات وأفراداً مطالبة بالتحول إلى الوحدة ، والتآلف ورص الصفوف ، وإحياء شعيرة الجهاد حتى تتقوى النفوس ، وتعيد قوة الإسلام ورهبته في صدور الأعداء حينما يرون حرص المسلمين على افتداء دينهم بأرواحهم ، وحتى يكون المسلمون مهيأين لاستقبال العلامة المقابلة لهذه العلامة ألا وهي :

---

(١) مولى رسول الله ﷺ ، سبي من أرض الحجز فاشتراه النبي ﷺ وأعتقه ، فلزم النبي ﷺ وحفظ عنه كثيراً من العلم ، وطال عمره ، واشتهر ذكره ، مات بحمص سنة ٥٤هـ . انظرسير أعلام النبلاء ٣/١٥-١٨.

(٢) سنن أبي داود ٤/١١١ ، كتاب الملاحم باب في تداعي الأمم على الإسلام حديث ٤٢٩٧ .

٦- ظهور المسلمين على اليهود:

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال :«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر و الشجر : يامسلم ياعبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله» [١]

وهذا اخبار عن ظهور المسلمين على اليهود ، وهو قريب بإذن الله وإن كنا نراه بعيداً فإن تسلط اليهود على أرض المسلمين في فلسطين ، وما يمارسونه من إجرام بين أهلها وتدنيسهم للمقدسات ، وعلى رأسها المسجد الأقصى ، والمسجد الابراهيمي ، ومحاولاتهم المتكررة لحرقها ونسفها ، وتدميرها ، كل هذا يشعر بدنوّ أجل اليهود على أرض فلسطين ، التي ستكون بإذن الله مقبرة لهم وليس وطناً قومياً كما يزعمون .. وانه ليوم تشفى فيه صدور قوم مؤمنين .

ثانياً : أشراط الساعة الكبرى

حين تبدأ أشراط الساعة الكبرى بالظهور ، فإن ذلك إيذان بقرب قيام القيامة ، حيث أن هذه الآيات يتلو بعضها بعضاً ، وهذه الأشراط قد ثبتت بطريقة التواتر ، فمنها ماورد في القرآن ومنها ماحملته إلينا السنّة المتواترة ، ممايجعلها قطعيّة الثبوت ، ومن ثم فالإيمان بها يكون واجباً .

أخرج مسلم بسنده عن حذيفة بن أسيد الغفاري [٢] -رضي الله عنه- قال : «اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر ، فقال : «ما تذاكرون ؟» قالوا : نذكر الساعة ، قال : إنّها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، فذكر الدخان ، والدجّال ، والدابّة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى ابن مريم ﷺ ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم » . [٣]

وهذه الآيات وردت فيها أقوال مختلفة في ترتيب ظهورها حسب تعدد الروايات ، واختط العلماء لأنفسهم سبلاً في ترتيبها مابين مقدّم آية ، ومؤخر أخرى ، اجتهاداً من كل واحد منهم وسنتناول فيما يلي أهم وأشهر هذه الآيات حسب ماذكره العلماء .

(١) فتح الباري ١٠٣/٦، كتاب الجهاد ، باب قتل اليهود حديث ٢٩٢٦ . وصحيح مسلم ٢٢٣٩/٤ - كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب اقتراب الفتن حديث رقم ٨٢ .

(٢) هو حذيفة بن أسيد ... بن غفار الغفاري ، مشهور بكنيته (أبو شريحة) شهد الحديبية ، وذكر فيمن بايع تحت الشجرة ثم نزل الكوفة ، مات سنة اثنتين وأربعين . انظر الإصابة ٣٣٢/١ .

(٣) صحيح مسلم ٢٢٢٥/٤ -٢٢٢٦ ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة حديث رقم ٣٩ .

١ - طلوع الشمس من مغربها :

من آيات القيامة الكبرى طلوع الشمس من مغربها ، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه -أن رسول الله ﷺ قال : «لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعين ، فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً »(١)

وأورد الإمام ابن كثير - رحمه الله - ماثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر -رضي الله عنه- قال : قال : رسول الله ﷺ : «أتدري أين تذهب هذه الشمس إذا غربت؟ قلت لا ، قال «أنها تنتهي فتسجد تحت العرش ثم تستأذن فيوشك أن يقال لها : ارجعي من حيث جئت وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً».(٢)

قال في الدين الخالص : «يكون ذلك في يوم أو في ثلاثة ثم تطلع من المشرق كعادتها وإذا طلعت من المغرب غربت في المشرق ، وحينئذ يغلق باب التوبة إلى يوم القيامة ، لقوله تعالى :﴿... يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا...﴾ .(٣)

والمعنى : أنّه لا ينفع الإيمان نفساً كافرة لم تكن آمنت من قبل ، ولا ينفع نفساً مؤمنة توبتها من المعاصي ، وعليه فإغلاق باب التوبة عام في الكافر والمؤمن والعاصي».(٤)

٢ - الدخان :

قال تعالى :﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٥)

قال الامام ابن كثير - رحمه الله - « وقد نقل البخاري عن ابن مسعود أنّه فسر ذلك بما كان لقريش من شدة الجوع بسبب القحط الذي دعا عليهم به رسول الله ﷺ ، فكان أحدهم يرى كأن فيما بينه وبين السماء دخاناً من شدة الجوع ، وهذا تفسير غريب جداً ، ولم ينقل

---

(١) فتح الباري ٣٥٢/١١ كتاب الرقائق باب ٤٠ حديث ٦٥٠٦ ، وصحيح مسلم ١٣٧/١ كتاب الإيمان - باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان حديث ٢٤٨ .

(٢) صحيح مسلم ١٣٨/١ كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان حديث رقم ٢٥٠ ط. دار الفكر .

(٣) سورة الأنعام الآية (١٥٨) .

(٤) الدين الخالص ٩٤/١ .

(٥) سورة الدخان الآيتان (١٠،١١) .

مثله عن أحد من الصحابة غيره ، وقد حاول بعض العلماء المتأخرين ردّ ذلك ومعارضته بما ثبت في حديث أبي شريحة حذيفة بن أسيد » .[1]

قال النووي[2] : هذا حديث يؤيد قول من قال :« إن الدخان دخان يأخذ بأنفاس الكفار ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام ، وأنّه لم يأت بعد، وإنما يكون قريباً من قيام الساعة »[3]

٣- خروج الدّابة :

قال الإمام ابن كثير - رحمه الّله - :« هذه الدّابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الّله ، وتبديلهم الدين الحق فتكلم الناس على ذلك ».[4]

قال تعالى :﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ .[5]

ويعتقد الباحث أن هذه الدابّة ليست مما ألف الناس من أشكال الدواب ، فهي دابّة تتكلم وبخروجها يتوقف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعدم فائدة ذلك ، والّله تعالى أعلم .

٤- ظهور الدجّال :

خبر خروج الدجّال من الأخبار المتواترة التي وردت في السنة المطهرة وفتنته أعظم فتنة في تاريخ البشر ، فعن هشام بن عامر الأنصاري[6] رضي الّله عنه قال : سمعت رسول الّله ﷺ يقول :« مابين خلق آدم إلى أن تقوم الساعة فتنة أكبر من الدجّال » ،[7] ولقد جاء تحذير الأمم السابقة من الدجال على ألسنة انبيائها ، كما أن نبينا محمداً ﷺ حذرنا من فتنته .

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم ٢٢٣/١ - ٢٢٤ .

(٢) هو الامام محيى الدين أبو زكريا يحيى بن شرف - النووي صاحب التصانيف النافعة ، منها شرح صحيح مسلم ، رياض الصالحين ، الأذكار ، توفي رحمه الله سنة ٦٧٦ هـ . انظر تذكرة الحفاظ / للذهبي ١٤٧٠/٤-١٤٧٤ ترجمة رقم ١١٦٢ - دار إحياء التراث - بيروت .

(٣) مسلم بشرح النووي ٢٧/١٨ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣٧٤/٣ .

(٥) سورة النمل الآية (٨٢) .

(٦) هو هشام بن عامر بن أميّة ... الانصاري الخزرجي كان - يسمى في الجاهلية شهاباً فغير رسول الله ﷺ اسمه فسماه هشاماً ، سكن البصرة ومات بها ، انظر الاصابة ٦/٤ والاستيعاب في معرفة الأصحاب ١٥٤١/٤ .

(٦) مسند الإمام أحمد ٢١/٤ .

ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما - قال : قام رسول الله ﷺ خطيباً في الناس ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجّال فقال : «إنّي لأنذركموه ومامن نبي إلاّ وقد أنذر قومه ، ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه ، إنّه أعور وإنّ الله ليس بأعور» ،[1] وسمي دجالاً : لأنهّ يغطي الحق بباطله ، يقال : دجل البعير بالقطران إذا غطاه[2] وسمي مسيحاً : «لأن عينه الواحدة ممسوحة ، والمسيح الذي أحد شقي وجهه ممسوح لا عين له ولا حاجب فهو فعيل بمعنى مفعول ، بخلاف المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فإنّه فعيل بمعنى فاعل ، سمي به لأنه كان يمسح المريض فيبرأ بإذن الله والدجال الكذّاب »،[3] وإذا أطلّ زمان الدجّال فإن بلاءً ينزل بالنّاس ، فمما راوه الإمام أحمد في مسنده عن أسماء بنت زيد الأنصارية [4] رضي الله عنها قالت : كنا مع النبي ﷺ في بيته فقال : «إذا كان قبل خروج الدجّال بثلاث سنين حبست السماء ثلث قطرها ، وحبست الأرض ثلث نباتها ، فإذا كانت السنة الثانية حبست السماء ثلثي قطرها ، وحبست الأرض ثلثي نباتها فإذا كانت السنة الثالثة حبست السماء قطرها كله ، وحبست الأرض نباتها كلّه فلا يبقى ذو خف ولا ظلف إلاّ هلك ، فيقول الدجّال للرجل من أهل البادية أرأيت إن بعثت إبلك ضخاماً ضروعها عظاماً أسنمتها ، أتعلم أني ربك ؟ فيقول نعم فتتمثل له الشياطين على صورة إبله فيتبعه ويقول للرجل : أرأيت إن بعثت أباك وابنك ومن تعرف من أهلك ، أتعلم أني ربك ؟ فيقول : نعم فتتمثل له الشياطين على صورهم فيتبعه » ، ثم خرج رسول الله ﷺ وبكي أهل البيت ثم رجع رسول الله ﷺ ونحن نبكي فقال : «مايبكيكم» ؟ فقلت : يارسول الله : ما ذكرت من الدجّال فو الله إن أمة أهلي لتعجن عجينها فما تبلغ حتى تكاد تفتن من الجوع فكيف نصنع يومئذ ؟ فقال رسول الله ﷺ : «يكفي المؤمنين عن الطعام والشراب يومئذ التكبير ، والتسبيح ، والتحميد ، ثم قال : لا تبكوا فإن يخرج الدجال وأنا فيكم فأنا حجية وإن يخرج فالله خليفتي على كل مسلم » .[5]

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٩٠ كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال حديث رقم ٧١٢٧ .

(٢) المصدر السابق ١٣/ ٩١ .

(٣) جامع الأصول في أحاديث الرسول/ابن الاثير الجزري ٤/ ٢٠٤ ط. دار الفكر ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

(٤) هي أسماء بنت يزيد بن السكن - الانصارية الأوسية ، بنت عم معاذ بن جبل ، كانت تكنى أم سلمة شهدت اليرموك وقتلت يومئذ من الروم تسعة بعمود فسطاطها وعاشت بعد ذلك دهراً انظر الاصابة ٨/ ١٣ .

(٥) مسند الإمام أحمد ٦/ ٤٥٢ ، وذكره ابن كثير في النهاية في الفتن والملاحم ١/ ١٥٠ .

صفات الدّجال :

حذّر الرسول الكريم ﷺ المؤمنين من الدجّال ، وبيّن أوصافه وشرح في أحاديث كثيرة ماسوف يأتي به الدجّال لينشر باطله ، فلم يترك رسول الله ﷺ ما يقرب صورة الدجّال إلى أذهان الناس إلا وعرضها حتى لا يبقى لأحد شك إن رآه .

إنّ مما يتمتع به الدجّال من إمكانات مذهلة ، تحيّر العقول فيزلّ معه ويتبعه خلق كثير تنطلي عليهم حيله وأوهامه .

ومن هذه الفتن التي تجرف الناس مايلي :

١- سرعة انتقاله في الأرض :

من الأمور المقررة في الحديث أنّه يطأ كل أرض عدا مكة والمدينة ففي حديث أنس في الصحيحين قول رسول الله ﷺ :«ليس من بلد إلاسيطؤه الدجّال إلا مكة والمدينة» .[(١)]

٢- استعانته بالشياطين :

مر معنا في حديث أسماء كيف يستعين الدجّال بالشياطين فتتمثل بإبل الرجل وابنه وأبيه

٣- أمره السماء فتمطر والأرض فتنبت :

يسخر الله للدجّال ما يستعين به على شدة البلوى وامتحان الناس .

ففي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان[(٢)] -رضي الله عنه- ، أن النبي ﷺ قال : «...فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ، ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم ، أطول ماكانت دراً ، وأسبغه ضروعاً ، وأمدّه خواصر ، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردّون عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شئ من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل» .[(٣)]

---

(١) فتح الباري ٩٥/٤ كتاب فضائل المدينة ، باب لا يدخل الدجال المدينة حديث رقم ١٨٨١ وصحيح الامام مسلم ٢٢٦٥/٤ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال وصفته حديث رقم ١٢٣ .

(٢) هو النواس بن سمعان ... بن صعصعة العامري الكلابي معدود في الشاميين روى عن النبي ﷺ عدة أحاديث منها الحديث المذكور في الدجال . انظر اسد الغابة في معرفة الصحابة ، لعز الدين بن الأثير٣٦٧/٥ ط. دار الشعب والاصابة ٥٤٦/٣ .

(٣) صحيح مسلم ٢٢٥٢/٤ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال وصفته حديث رقم ١١٠ .

٤- عوره وأنّه مكتوب بين عينيه كافر :

استفاضت الأحاديث في وصف عيني الدجّال ، وماهو مكتوب بينهما ، وقد وصفه رسول اللّه ﷺ وصفاً حدّد معالم جسمه ، وأبرز شخصيته حتى إنه لا يشتبه على إنسان يراه ،فكل من رآه عرفه بوصف النبي ﷺ له .

ففي صحيح البخاري عن عبد اللّه بن عمر - رضي الله عنهما -أن رسول اللّه ﷺ رأي الدّجال في الرؤيا ، وجاء في وصفه له : «رجل جسيم أحمر ، جعد الرأس ، أعور العين كأن عينه عنبة طافية » .[1]

وعن أنس عن النبي ﷺ قال :«مابعث نبي إلاّ أنذر أمّته الأعور الكذاب ، ألا إنّه أعور وإنّ ربكم ليس بأعور ، وإنّ بين عينيه مكتوب كافر» .[2]

وحول موضع فتنته يثور سؤال في الأذهان مفاده ، إذا كان الدجّال على هذه الصورة من الكذب والافتراء على اللّه عز وجل ، فكيف يظهر اللّه على يديه عجائب الآيات وخوارق العادات ؟ .

وقد فطن لذلك ابن حجر عندما قال :«فإن قيل كيف يجوز أن يجري اللّه الآية على يد الكافر ؟»

فالجواب : إنّه على سبيل الفتنة للعباد ، إذ كان عندهم مايدل على أنه مبطل غيرمحق في دعواه ، وهو أنّه أعور مكتوب على جبهته كافر يقرؤه كل مسلم ، فدعواه داحضة مع وسم الكفر ونقص الذات والقدر ، إذ لو كان إلهاء لأزال ذلك عن وجهه ، فهل يقبل عند أصحاب العقول أن يسوى خلق غيره ويعدّله ويحسنّه ولا يدفع النقص عن نفسه ؟! » .[3]

٥- نزول عيسى عليه السلام :

يعد نزول عيسى -عليه السلام - من أكبر العلامات التي تقع بين يدي الساعة ، أثناء وجود الدجّال ، فيقتله ، ويحكم بشريعة الإسلام ، ويحيي من شأنها ماتركه الناس ،ثم يمكث في الأرض ماشاء اللّه له أن يمكث ، ثم يموت ، ويصلي عليه المسلمون ثم يدفن .

ولقد دلّ على نزوله القرآن الكريم ومن بعده السنّة المطهرة .

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٩٠ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجّال حديث رقم ٧١٢٨ .

(٢) المصدر السابق ٩١/١٣ حديث رقم ٧١٣١ .

(٣) المصدر السابق ١٠٣/١٣ .

فمن القرآن قوله عز وجلّ : ﴿وَقَوْلِهِم إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۞ بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۞ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ .(١)

قال الإمام ابن كثير ناقلاً عن الإمام ابن جرير ومؤيداً :« ... المقصود من سياق الآية تقرير بطلان مادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه ، وتسليم من سلّم لهم من النصارى الجهلة فأخبر الله تعالى أن الأمر لم يكن كذلك ، وانّما شبّه لهم فقتلوا الشبه ، وهم لا يتبينون ذلك ثم إنّه رفعه إليه ، وأنّه باق حي ، وأنّه سينزل قبل يوم القيامة كما دلّت عليه الأحاديث المتواترة ، فيقتل مسيح الضلاله ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ... » .(٢)

أما من السنّة المطهرة ، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- (قال : قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية لا يقبلها من كافر (٣) ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا ومافيها » ، ثم يقول أبو هريرة : فاقرأوا إن شئتم :﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ...﴾) (٤)

٦ - خروج يأجوج ومأجوج :

يأجوج ومأجوج قبيلتان من سلالة يافث بن نوح عليه السلام ، يخرجون ليعيشوا في الأرض الفساد ، وينشروا فيها الخراب والدمار ، كما كان هذا حالهم قبل أن يحجزهم السد الذي بناه ذو القرنين ، ولهم أوصاف متعددة ، فمن قائل أنهم قصار القامة جداً ، لهم آذان كبيرة يفترشونها لنومهم ، ومن قائل بأنهم عمالقة ، قال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- : «منهم من طوله شبر ، ومنهم من هو مفرط في الطول ، لهم مخالب في مواضع الأظفار من أيدينا ، وأنياب وأضراس كأضراس السباع ولهم شعر في أجسامهم » .(٥)

(١) سورة النساء الآيات (١٥٧-١٥٩) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/٥٧٧ .

(٣) يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان ، بل لا يقبل إلاّ السيف أو الإسلام .

(٤) صحيح مسلم ١/١٣٥ كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى بن مريم حديث ٢٤٢ ، وسنن الترمذي ٤/٥٠٦ كتاب الفتن باب ماجاء في نزول عيسى عليه السلام حديث رقم ٢٢٣٣ ط. دار إحياء التراث العربي ، ومسند الإمام أحمد ٢/٥٣٧ .

(٥) لوامع الانوار البهية ٢/١١٤ .

وقد أشار القرآن الكريم إلى خروجهم فقال عزّ وجلّ : ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ . وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ .[1]

وفي سورة الكهف أن قوماً لا يكادون يفقهون قولاً اشتكوا إلى ذي القرنين ما يجدون من يأجوج ومأجوج من الأذى .[2]

وعن أم المؤمنين زينب بنت جحش -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوماً فزعاً يقول : لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلّق بأصبعيه الإبهام والتي تليها » قالت زينب ؟ أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال « نعم إذا كثر الخبث » .[3]

(١) سورة الأنبياء الآيتان (٩٦،٩٧) .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٠٠ ، وفي ظلال القرآن ٤/ ٢٢٩٢ .

(٣) فتح الباري ١٣/ ١٠٦ كتاب الفتن باب يأجوج ومأجوج حديث رقم ٧١٣٥ ، وصحيح مسلم ٤/ ٢٢٠٧ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب اقتراب الفتن حديث رقم (١) .

المطلب الثالث
يوم القيامة وما يحدث فيه

لامراء في أن اليوم الآخر ركن من أركان الإيمان ، من أنكره أو شك فيه كان من الكافرين ولقد حذّر اللّه عزّ وجلّ في كثير من آيات الكتاب العزيز من هول ذلك اليوم .

فقال عز من قائل :﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ . وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَاهُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ .(١)

وحديث الإسلام عن اليوم الآخر واضح لا غموض فيه فالمتأمل في آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ يدرك أنّ ثمّة عالماً موّاراً بالحياة والحركة ، والحوار والمساءلة ، ودعاء المنعمين وصراخ الأشقياء المعذّبين ، ثم إنّه في ذلك اليوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات فتنشق السماء وتتناثر النجوم ، وتتصادم الكواكب وتصبح الجبال كثيباً مهيلاً ، وكل شئ عرفه الناس في دنياهم فإنّه يخرّب ويدمّر في يوم القيامة .

قال تعالى :﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيرَ الأَرْضِ وَالسَّموَاتُ وَبَرَزُوا للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾.(٢)

وكل هذا يحدث على إثر النفخة الأولى وهي نفخة الفزع التي ينفخها إسرافيل بأمر ربه عزّ وجلّ ثم يصعق كل من في السموات والأرض إلا من شاء اللّه على إثر النفخة الثانية وهي نفخة الصعق ، قال تعالى :﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ . ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ .(٣)

وهذه هي النفخة الثالثة ، وهي نفخة البعث ، فإذا بدأت فإن الخلائق تبعث منذ أن خلق اللّه الدنيا إلى قيام الساعة إنسها ، وجنّها، وحيوانها ، وطيورها ، وأول من يبعث رسولنا الكريم صلوات اللّه وسلامه عليه .

وفيما يلى نستعرض بعضاً مما يحدث في يوم القيامة .

---

(١) سورة الحج الآيتان (١، ٢) .

(٢) سورة إبراهيم الآية (٤٨) .

(٣) سورة الزمر الآية (٦٨) .

١ - الحشر :

ويكون بعد النفخة الثالثة - وهي نفخة البعث - قال تعالى : ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا﴾ .[(١)]

والحشر هو سوقهم جميعاً إلى الموقف وهو المكان الذي يقفون فيه انتظاراً لفصل القضاء بينهم حفاة عراة غرلاً .[(٢)]

روت السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يحشر الناس يوم القيامة حفاةً عراةً ، غرلاً » قلت : يارسول الله ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال ﷺ : «ياعائشة الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض» .[(٣)]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ، صنف مشاة ، وصنف ركبان ، وصنف على وجوههم قالوا : يارسول الله كيف يمشون على وجوههم ؟ قال : «إن الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم ، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك» .[(٤)]

وفي الحشر يكون الناس في كرب شديد فقد روى المقداد بن الأسود[(٥)] -رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ أنّه قال:«تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق،حتى تكون منهم كمقدار ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلي كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه،ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً ، وأشار ﷺ بيده إلى فيه».[(٦)]

---

(١) سورة مريم الآيتان (٨٥، ٨٦) .

(٢) غير مختتنين .

(٣) بنحوه في فتح الباري ٣٧٧/١١ كتاب الرقاق ، باب الحشر حديث رقم ٦٥٢٥ وبنحوه في صحيح مسلم ٢١٩٤/٤ ، كتاب الجنة ، باب فناء الدنيا حديث رقم ٥٨ .

(٤) بنحوه في فتح الباري كتاب التفسير باب الذين يحشرون على وجوههم - حديث رقم ٤٧٦٠ . وبنحوه في صحيح مسلم ٢١٦١/٤ كتاب صفات المنافقين ، باب يحشر الكافر على وجهه حديث رقم ٥٤ .

(٥) هو المقداد ين عمرو بن ثعلبة ... الكندي البهراني ، صاحب رسول الله ﷺ ، وأحد السابقين الأولين ، شهد بدراً ، وثبت أنه كان يومها فارساً ، له جماعة أحاديث ، توفي سنة ٣٣هـ وقبره بالبقيع : انظر سيرأعلام النبلاء ٣٨٥/١ .

(٦) بنحوه أخرج البخاري - فتح الباري ٣٩٥/٨ كتاب التفسير باب ذرّية من حملنا مع نوح حديث رقم ٤٧١٢ . وبنحوه في مسند الإمام أحمد ١٥٧/٤ ، ٤٣٥/٢ .

وبالرغم مما تقدم فإن أناساً يكونون في ظلّ اللّه عز وجل ، فعن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال :«سبعة يظلهم اللّه بظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة اللّه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في اللّه ، اجتمعا عليه ، وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف اللّه ، ورجل تصدق فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر اللّه خالياً ففاضت عيناه ».[1]

حتى إذا اشتد الكرب بالناس من غير هولاء الأصناف السبعة ، فإنهم يسشتفعون إلى اللّه عزّ وجلّ بالأنبياء والرسل ، فيحيلهم كل واحد على من بعده حتى يأتون نبينا محمداً ﷺ فيكون صاحب ذلك ، فيشفع فيهم ، ويقبل اللّه عزّ وجلّ شفاعته فيهم ،فقد ثبت في الصحيحين من حديث جابر وغيره عن رسول اللّه ﷺ قال : «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلّت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة » .[2]

أما عن مكان الحشر فقد ذكر الامام ابن كثير - رحمه الله -أنه بأرض الشام ، وساق الحديث الذي رواه أحمد بسنده عن حكيم بن معاوية[3] عن رسول اللّه ﷺ أنه قال :« يحشرون هاهنا- وأومأ بيده نحو الشام - مشاة وركباناً ويمرون على وجوهم ، ويعرضون على اللّه وعلى أفواههم الفدام» .[4]

---

(١) فتح الباري ١٤٣/٢ كتاب الأذان باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة حديث ٦٦٠ ط. دار المعرفة ، وبنحوه في صحيح مسلم كتاب الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة حديث ٩١ دار الفكر .

(٢) فتح الباري ٥٣٣/١ ، كتاب الصلاة باب قول النبي ﷺ جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً حديث رقم ٤٣٨ .

(٣) هو حكيم بن معاوية (النميري) مصغراً نسبة إلى نمير بن عامر بن صعصعة . انظر تهذيب التهذيب ٣٨٨/٢ .

(٤) مسند الإمام أحمد ٤٤٦/٤ -٤٤٧ ، ٥،٣/٥ ، و النهاية في الفتن والملاحم ٢٨٧/١ .
والفدام : ما يوضع على الفم ليسدّه .

٢- العرض والحساب :

وهو مما يكون يوم القيامة ، يعرض فيها الناس على ربّهم عزّ وجلّ ، فيطلعون على أعمالهم ويقرأون صحفهم ، وتقام فيها الحجج عليهم ولهم ، ثم يحاكمهم الله عزّ وجلّ محاكمة عادلة فمن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ،وأما الدليل على العرض والحساب فقوله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ .(١)

وقوله تعالى :﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...﴾ .(٢)

وعن أبي ذر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عزّ وجلّ : «ياعبادي انما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إيّاها فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه».(٣)

وعن عدي بن حاتم -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال : «مامنكم من أحد إلاّ سيكلمه الله يوم القيامة ، ليس بينه وبينه ترجمان ثم ينظر أيمن منه فلا يرى إلا ماقدّم ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ماقدّم وينظر أمامه فيرى النار ، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة »(٤)

ويدخل في معنى العرض إبراز الأعمال وإظهارها ، فيعرّف صاحبها بذنوبه فإن كان من أهل النجاة ، وهو الذي يؤتى كتابه بيمينه ،تجاوز الله عن ذنوبه ، ولم يناقشه الحساب ، وأدخله الجنة ولم يعذّبه بالنار ، وأمّا من كثرت معاصيه ، وأوتى كتابه وراء ظهره ، فذلك يناقش الحساب ، ويسأل عن كل صغيرة وكبيرة ، فقد روت السيدة عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال :«ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلّا هلك » فقلت يارسول الله : أليس قد قال الله : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾(٥) فقال : «إنما ذلك العرض ، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذّب»(٦)

---

(١) سورة الحاقة الآية (١٨) .

(٢) سورة الكهف الآية (٤٨) .

(٣) صحيح مسلم ١٩٩٤/٤ كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم حديث رقم ٢٥٧٧ ، ومسند الإمام أحمد ١٦٠/٥ .

(٤) فتح الباري ٢٨١/٣ كتاب الزكاة باب الصدقة قبل الرد ، حديث رقم ١٤١٣ وصحيح مسلم ٧٠٣/٢ كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة حديث رقم ٦٧ .

(٥) سورة الإنشقاق الآيتان (٧،٨) .

(٦) فتح الباري ٤٠٠/١١ كتاب الرقاق باب من نوقش الحساب- حديث رقم ٦٥٣٧ ، وبنحوه في صحيح مسلم ٢٢٠٥/٤ كتاب الجنة وصفة نعيمها باب اثبات الحساب ، حديث رقم ٨٠ .

ثم إن الناس في الحساب متفاوتون ، فمنهم من يحاسب حساباً يسيراً ، يعرض عليه عمله فيطلعه الله على سيآته ، بحيث لا يطلع عليها أحد فيستر عليه ثم يعفو عنه ، ويأمر به إلى الجنّة ، ومنهم من يناقش الحساب ، فيسأل عن كل صغيرة وكبيرة ، فهذا الصنف من الناس يهلك مع الهالكين ، حيث يأمر الله عزّ وجلّ به إلى النار بعد أن ينادي منادٍ بسيئات أعماله فيفتضح بين الخلائق ،[1] ومما يكون في هذا الشأن شهادة أعضاء الإنسان وجوارحه عليه .

قال تعالى :﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .[2]

٣- الحوض :

ويكون أول ما يرده نبينا محمد ﷺ ، ثم ترده بعده أمته ويطرد عنه الكفار ، وطائفة من العصاة وأهل الكبائر وذلك بعد الانتهاء من الموقف بما فيه من أهوال .[3]

قال رسول الله ﷺ : «أنا فرطكم على الحوض ، من ورد شرب ومن شرب لم يظمأ أبداً وليردنّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ، ثم يحال بيني وبينهم ، فيقول ﷺ إنهم أمتي» فيقال: إنك لا تدري ماعملوا بعدك ، فأقول :«سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدي ».[4]

وأما عن صفته فقال في الدين الخالص : «إن لكل نبي حوضاً يرده الطائعون من أمته وإن حوض نبينا محمد ﷺ أكبرها، وأعظمها، طوله مسيرة شهر ، مربع الشكل له ميزابان يصبّان فيه من الكوثر ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، كيزانه أكثر من نجوم السماء من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً ...» .[5]

---

(١) الإيمان د. محمد نعيم ياسين ص ٩٧ .

(٢) سورة فصلت الآيات (١٩-٢٢) .

(٣) الإيمان د. محمد نعيم ياسين ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٤) فتح الباري ٤٦٤/١١ ، كتاب الرقاق باب في الحوض حديث ٦٥٨٣ وصحيح مسلم ١٧٩٣/٤ كتاب الفضائل باب اثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته - حديث رقم ٢٦ .

(٥) الدين الخالص ١١٧/١ .

٤- الميزان :

قال تعالى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ .[١]

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : «أي ونضع الموازين العدل ليوم القيامة ، الأكثر على أنه انما هو ميزان واحد ، وانما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه » .[٢]

وهو ذو كفتين ولسان (كالميزان المعهود) توزن فيه أعمال من يحاسب بقدرة الله تعالى دفعة واحدة تحقيقاً لإظهار تمام العدل ، قال تعالى : ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ .[٣]

قال الإمام ابن كثير- رحمه الله - : «قال العلماء : إذا انقضى الحساب ، كان بعده وزن الأعمال ، لأن الوزن للجزاء ، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة ، فإن المحاسبة لنفس الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها ، فيكون الجزاء بحسبهما » .[٤]

عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله : «إن الله سيُخلّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق، فينشر عليه تسعة وتسعين سجّلا كل سجل مد البصر ، ثم يقول الله له : اتنكر من هذا شيئاً ؟ ظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب : فيقول الملك : ألك عذر أو حسنة ؟ فيبهت الرجل فيقول : لا يارب : فيقول بلى إن لك عندنا حسنة واحدة ، لا ظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله فيقول : أخبروه : فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول: إنك لا تظلم ، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، قال:فتطيش السجلات ، وتثقل البطاقة ، ولا يثقل شئ بسم الله الرحمن الرحيم » .[٥]

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٤٧) .

(٢) تفسيرالقرآن العظيم ١٨٠/٣ .

(٣) سورة الأعراف الآيتان (٨-٩) .

(٤) النهاية في الفتن والملاحم ٢٢/٢ .

(٥) سنن الترمذي ٢٤/٥ كتاب الإيمان ، باب ماجاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله حديث رقم ٢٦٣٩ ، ط. دار إحياء التراث العربي ، ومسند الإمام أحمد ٢١٣/٢ .

قال الإمام ابن كثير- رحمه الله - : «فالميزان حق وليس هو في حق كل أحد بدليل قوله تعالى ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ ،(1) وقد تواترت الأحاديث في السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنّة بغير حساب» .(2)

٥- الصراط :

وهو إنما يكون بعد الحساب والميزان ، حيث ينصرف الناس من الموقف ليمرّوا فوق جسر مضروب على ظهر جهنم ، وهو الصراط ، والمرور على الصراط عام لجميع الناس ، الأنبياء والصديقين ، والمؤمنين ، والكفار ، ومن يحاسب ، ومن لا يحاسب ، فمن استقام على صراط الدنيا وهو دين الله ، استقام على هذا الصراط في الآخرة وقد ورد في بعض الأحاديث الصحيحة أن الناس يمرون على الصراط ، وتكون سهولة مرورهم عليه بقدر أعمالهم في الحياة الدنيا ، فمنهم من يمر كلمح البصر ، ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالريح العاصف وناس كالجواد ، وناس هرولة وناس حبواً ، وناس زحفاً وناس يتساقطون في النار ، وعلى جوانبه كلاليب لا يعلم عددها إلاّ الله تخطف بعض الخلائق .(3)

عن أنس بن مالك -رضي الله عنه - قال قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «الصراط كحدّ الشعرة وحدّ السيف ، وإن الملائكة تحجز المؤمنين والمؤمنات وإن جبريل عليه الصلاة والسلام يحجزني ، وإنّي لأقول : يارب سلّم سلّم فالزّالّون والزّالات يومئذ كثير» (4)

هذا و المرور على الصراط هو الورود المذكور في قوله تعالى:﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا...﴾(5) فلا ينجو منه أحد ، إلا أنّ الورود على النار لا يستلزم دخولها ، فقد روى جابربن عبد الله - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد

---

(١) سورة الرحمن الآية (٤١) .

(٢) النهاية في الفتن والملاحم ٣٦/٢ .

(٣) انظر النهاية في الفتن والملاحم ١٠٦/٢-١٠٧ والدين الخالص ١١٦/١ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٤١٥ ، والإيمان - أركانه ، حقيقته ، نواقضه ص ١٠٢ -١٠٤ .

(٤) بنحوه في صحيح مسلم ١٦٧/١،كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية ، حديث رقم ٣٠٢ .

(٥) سورة مريم الآية (٧١) .

الذين بايعوا تحتها ، فقالت حفصة : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا...﴾ فقال النبي ﷺ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [1] » . [2]

ثم إذا عبر المؤمنون الصراط ، وقفوا على قنطرة بين الجنّة والنّار ، فيقتص من بعضهم لبعض فإذا هذبوا أذن لهم في دخول الجنّة .

روى أبو سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : يخلّص المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنّة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنّة ، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا » . [3]

٦- *الجنة والنار :*

قال الإمام الطحاوي :« والجنّة والنار مخلوقتان ، لا تفنيان أبداً ولا تبيدان فإن اللّه تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق ، وخلق لهما أهلاً ، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه ، ومن شاء منه إلى النار عدلاً منه» ، [4] أما الجنة فهي دار الثواب ، والنعيم المقيم ، فيها الحور العين والولدان ، ولحم الطير ، والفواكه ، والأنهار الجارية من الماء ، واللبن ، والعسل ، والخمر والسرر ، والحرير، والذهب ، ومالاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر جاء بها الكتاب والسنة ، قال تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ . [5]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن أول زمرة يدخلون الجنّة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درّي في السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يتفلون،ولا يمتخطون،أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة

---

(١) سورة مريم الآية (٧٢) .

(٢) صحيح مسلم ١٩٤٢/٤ كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أصحاب الشجرة حديث رقم١٦٣ .

(٣) فتح الباري ٣٩٥/١١ كتاب الرقاق باب القصاص يوم القيامة - حديث رقم ٦٥٣٥ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٢٠ .

(٥) سورة الكهف الآيتان (١٠٧ ، ١٠٨) .

أزواجهم الحور العين على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعاً في السماء »[(١)]

هذا وإنّ للجنة ثمانية أبواب ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله ، دعي من أبواب الجنة ، وللجنة ثمانية أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة ، دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان » فقال أبوبكر : والله يارسول الله ما على أحد من ضرورة دعي ، من أيها دعي ، فهل يدعى منها كلها أحد ، يارسول الله ؟ قال : « نعم وأرجوا أن تكون منهم » .[(٢)]

ثم إن الجنّة درجات ومنازل ، وقد بينت الأحاديث أن ادنى أهل الأرض في الجنّة منزلة من يكون له مثل الدنيا وعشر أمثالها ، فقد روى البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -عن النبي ﷺ قال : « إنّي لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها ، وآخر أهل الجنة دخولاً فيها رجل يخرج من النار حبواً فيقول الله له : إذهب فأدخل الجنّة : فيأتيها فيخيّل إليه أنها ملأى ، فيرجع فيقول : يارب وجدتها ملأى : فيقول : إذهب فادخل الجنّة ، فإنّ لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها » .[(٣)]

أما عن أعلى منزلة في الجنة فهي الوسيلة ولا ينالها إلارسول الله ﷺ عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أنه سمع النبي ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ثم صلّوا عليّ فإنّه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجوا أن أكون أنا هو فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة »[(٤)]

---

(١) بنحوه في فتح الباري ٣١٨/٦ كتاب بدء الخلق باب ماجاء في صفة الجنة حديث ٣٢٤٥ وصحيح مسلم ٢١٧٩/٤ كتاب الجنّة وصفة نعيمها باب أول زمرة تدخل الجنّة حديث رقم ١٥-١٦ والرشح : العرق ، والمجامر : جمع مجمرة بكسر الميم وسكون الجيم وهو ما يوضع فيه النار والبخور والألوة : بفتح الهمزة وضمها وضم اللام وتشديد الواو : العود الذي يتبخر به ، والظاهر أنه يفوح بغير نار ، لأن الجنة لانار فيها .

(٢) بنحوه في فتح الباري ٣٢٨/٦ كتاب بدء الخلق باب صفة ابواب الجنة حديث ٣٢٥٧ ، وأورده ابن كثير في الفتن والملاحم ٢٦٣/٢ .

(٣) بنحوه في فتح الباري ٤٧٤/١٣ كتاب التوحيد باب كلام الرب عز وجل - حديث رقم ٧٥١١ .

(٤) صحيح مسلم ٢٨٨/١ ، كتاب الصلاة ، باب استحباب القول مثل قول المؤذن - حديث رقم ١١ ومسند الإمام أحمد ١٦٨/٢ .

وأمّـا النار - أعـاذنا الله عزّ وجلّ منها - فهي دار العذاب ، فيها الزقوم[١] ، والغسلين[٢] والمهل ،[٣] ومقامع من حديد ، جاء بها الكتاب والسنة .

قال تعالى : ﴿...إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ .[٤]

وقال تعالى : ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ .[٥]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » قالوا : والله إن كانت لكافيه يارسول الله : قال «فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلّهنّ مثل حرّها » .[٦]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا ، لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه » .[٧]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :«أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة ، حتى اسودت فهي سوداء مظلمة » .[٨]

وبعد أن وقفنا على صفة كل من الجنة والنار ، وهما نهاية المطاف من جملة ما يحدث في اليوم الآخر ، نختم بحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالموت

---

(١) الزقوم : شجرة من أخبث الشجر المر بتهامة تنبت في أصل الجحيم طلعها كرؤوس الحيّات ، إذا أكل أهل النار منه يغلي في بطونهم كغلي الحميم . انظر الدين الخالص ١/١٢٤

(٢) الغسلين : صديد أهل النار المصدر السابق .

(٣) المهل : ماء عكر كدردي الزيت الأسود يغلي في البطون كغلي الحميم ، وقيل هو النحاس المذاب المصدر السابق .

(٤) سورة الكهف الآية (٢٩) .

(٥) سورة الحج الآيتان (١٩-٢١) .

(٦) فتح الباري ٦/ ٣٣٠ كتاب بدء الخلق باب صفة النار حديث رقم ٣٢٦٥ .

(٧) مسند الإمام أحمد ١/٣٠١ .

(٨) سنن الترمذي ٤/ ٧١٠ كتاب صفة جهنم ، باب ٨ ، حديث رقم ٢٥٩١ ، وسنن ابن ماجة ٢/١٤٤٥ كتاب الزهد باب صفة النار ، حديث رقم ٤٣٢٠ ط. دار التراث .

يوم القيامة ، فيوقف على الصراط ، ، فيقال: يا أهل الجنّة : فيطلعون خائفين ، وجلين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه ، فيقال هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ربنا ، هذا الموت ثم يقال : يا أهل النار : فيطلعون فرحين مستبشرين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه فيقال : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ربنا هذا الموت ، فيؤمر به فيذبح على الصراط ثم يقال للفريقين كليهما : خلود فيما تجدون ، لا موت أبداً » . (١)

(١) مسند الإمام أحمد ٢ / ٢٦١ ، وأورده ابن كثير في النهاية في الفتن والملاحم وقال : اسناده جيد قوي على شرط الصحيح .

الخاتمة

وبعد هذا العرض لحياة ومنهج الإمام ابن كثير - رحمه الله - في دراسة قضايا العقيدة ينتهي هذا البحث الذي يتكون من فصلين كما رأينا وقد توصل الباحث من خلاله إلى عدة نتائج يجملها فيمايلي :

١- فساد الحياتين السياسية والإجتماعية وعدم تأثير ذلك على الحياة العلمية ويرجع السبب في ذلك إلى تفاني العلماء في سبيل نشر العلم والمحافظة عليه .

٢- إن الإمام ابن كثير - رحمه الله - قد بدأ حياته العلمية منذ وقت مبكر ، وجلس إلى عدد وافر من مشاهير العلماء ، مما كان له أكبر الأثر في سعة إطلاعه وتنوع ثقافته ووفرة إنتاجه .

٣- الإمام ابن كثير سلفي العقيدة برغم من أنه نهج منهج الخلف في كثير من القضايا الأمر الذي يفهم منه أن الخلاف بين السلف والخلف لاينبغي التعويل عليه كثيراً ، ذلك أن خلافهم لا أثر له على سلامة العقيدة .

٤- منهجية الإمام ابن كثير منهجية قائمة على أصول سليمة ، إن في إثبات مسائل العقيدة ، أو حتى إبطاله للعقائد الفاسدة فالمنهجية التي تستند إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة منهجية لا تقف في وجهها الخزعبلات والخرافات ، أما مناهج المتكلمين فإنها حشو من لغو القول الذي قد يبعد بمن يسلكه عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، لذلك أدعو كل الباحثين وطلاب العلم إلى أن ينهجوا المنهجية نفسها التي نجهجها الإمام ابن كثير .

٥- الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي ، ومن هنا ينبغي الحرص على المضي قدماً في سلّم الطاعات ، والحرص على الأسباب التي تعمل على زيادة الإيمان كالصلاة لوقتها ، وبر الوالدين ، والجهاد في سبيل الله ، والعلم ، والتفكر ، والصبر والتوكل والتذكر الدائم للموت .

٦- شهادة أن محمد رسول الله هي المكمل للشهادة التي من يقولها معتقداً بها يعتبر مسلماً وعليه يخرج من الملة كل من طعن في صدق الرسول ﷺ أو أمانته ، أو عفته أو صلاح عقله ويكفر كذلك كل من سبّ الرسول ﷺ أو استهزأ به أو استخف .

٧- عدم الحكم بما أنزل الله - تعالى - قد يكون كفراً ينقل عن الملة وقد يكون معصية وذلك بحسب حال الحاكم ، فإنه إن اعتقد عدم وجوب الحكم بما أنزل الله - تعالى - وأنه فيه مخير فهذا كافر ، وإن أعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله - تعالى - وعلمه ثم عدل عنه مع إعتراف بأنه مستحق للعقوبة فهذا عاص ، وإن جهل حكم الله - تعالى - في مسألةٍ مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطأ فهذا مخطئ وله أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور .

٨- رؤية المؤمنين ربهم في الجنّة نطق بها كتاب ربّنا الحكيم ، واتفق عليها الأنبياء والمرسلون ، وجميع الصحابة والتابعين ، والتابعين له بإحسان ، وعليه فلا داعي للي عنق النصوص رغبة في الإنتصار للأهواء والمذاهب ليس إلا .

٩- الكرامات يجريها الله تعالى على أيدي الصالحين من عباده ، لكن ينبغي التفريق بين الكرامة والسحر ، ذلك أن هذا الزمان قد كثر فيه الدّجالون والمعشوذون ، كل يزعم أنّه وليّ وهو أبعد ما يكون عن الله تعالى .

١٠- لا وساطة بين العبد وربه في مسألة الدعاء ، لا بشيخ ولا وليّ ، بل العبد نفسه يستطيع التوجه إلى الله تعالى في أي وقت من ليل أو نهار ، وأن كل المخلوقين لا يملكون من أمرهم شيئاً سواء كانوا أنبياء أو أولياء ، أما التوسل بهم فإنما يكون فقط لمكانتهم عند الله عزّ وجلّ .

الفهارس

فهرس الآيات

الرقم	السـورة	الآيـة	رقم الصفحة
٣	**آل عمران**		
	﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ .	٦	١٣٠
	﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾	٣١	١٩٤،١١٣،٦٨
	﴿قل أطيعوا الله والرسول﴾ .	٣٢	١٩٤
	﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾ .	٣٧	٩٩
	﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً﴾ .	٣٧	١٦٠
	﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ .	٥٤	١٠٧
	﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبين أرباباً﴾ .	٨٠	٨٢
	﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ .	١٠٣	١٣٥
	﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ .	١٨٥	٥٨
٤	**النساء**		
	﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح﴾ .	٦	١٤٤
	﴿فإن كان له اخوة فلأمه السدس﴾ .	١١	١٧٦
	﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك﴾ .	٦٥	٦٤ ، ١٣
	﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم﴾ .	١٠١	١٤٥
	﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾ .	١٤٢	١٠٧
	﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول﴾ .	١٤٨	١١٣
	﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح﴾ .	١٥٧-١٥٩	٢٢٠
	﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله﴾ .	١٧٢	١٧٧
٥	**المائدة**		
	﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا﴾ .	٨	٤٠
	﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾ .	٣٥	١٩٩
	﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون﴾ .	٤٤	١٥٤

الرقم	السـورة	الآيـة	رقم الصفحة
	﴿ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ .	٨٤	١٥٤
	﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ .	١٠١	
	﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم﴾ .	١٠٨	١٣١
١١	**هود**		
	﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ .	١٣	١٥٦
	﴿لا عاصم اليوم من أمر الله﴾ .	٤٣	١٣٥
	﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك﴾ .	٤٩	١٣٣
	﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل﴾ .	١٢٠	١٣٤
١٢	**يوسف**		
	﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ .	٣٢	١٣٥
	﴿ربي قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾ .	١٠١	١٥٤
١٣	**الرعد**		
	﴿وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً﴾ .	٣	٩٥
	﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾ .	٤	١٠٠
	﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ .	١١	١٧٧
١٤	**إبراهيم**		
	﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾ .	٣٤	٧٩
	﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله﴾ .	٤٨	٢٢٢
١٥	**الحجر**		
	﴿وقالوا ياأيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون﴾	٦	١٤٩
	﴿وإن من شئ إلاعندها خزائنه ومانزله إلا بقدر معلوم﴾ .	٢١	١٢٦
	﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾ .	٢٧	١٨٣
	﴿فقعوا له ساجدين﴾ .	٢٩	١٨٢

الرقم	الســـــــــــورة	الأيـــــة	رقم الصفحة
	﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر﴾ .	٨	١١١ ، ٦١
١٩	**مريم**		
	﴿وإن منكم إلا واردها﴾	٧١	٢٢٨
	﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ .	٧٢	٢٢٩
	﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ونسوق المجرمين ﴾ .	٨٥-٨٦	٢٢٣
٢٠	**طه**		
	﴿الرحمن على العرش استوى﴾ .	٥	١٠٩
	﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾ .	٤٦	١٩٧
٢١	**الأنبياء**		
	﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام﴾ .	٨	١٤٠
	﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ .	٢٠	١٧٧
	﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾	٢٣	١٦٩
	﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي ﴾ .	٢٥	١٣٤،٨٦
	﴿بل عباد مكرمون ﴾ .	٢٦-٢٧	١٧٦
	﴿وجعلنا من الماء كل شئ حي﴾ .	٣٠	٩٥
	﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ .	٣٤	٢٠٣
	﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ .	٣٥	٢٠٣،١٤٤
	﴿ونضع الموازين القسط ﴾ .	٤٧	٢٢٧
	﴿وأيوب إذ نادى ربه إني مسني الضر ﴾ .	٨٣-٨٤	١٤٣
	﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ .	٩٦-٩٧	٢٢١
٢٢	**الحج**		
	﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم ﴾ .	١-٢	٢٢٢
	﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ .	١٩-٢٠	٢٣١

الرقم	السورة	الآية	رقم الصفحة
٦١	**الصف**		
	﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾ .	٤	١١٣-١٩٦
	﴿وإذا قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله﴾ .	٦	١٥٥
	التحريم		
٦٦	﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ .	٦	١٦٤-١٦٧
٦٩	**الحاقة**		
	﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ .	١٧	١٧٧
	﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ .	١٨	٢٢٥
	﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين﴾ .	٤٤-٤٦	١٣٧-١٤١
٧٠	**المعارج**		
	﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعاً﴾ .	٤٣	١٦٥
٧١	**نوح**		
	﴿والله انبتكم من الأرض نباتاً﴾ .	١٧	٩٩
٧٢	**الجن**		
	﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن﴾ .	٦	١٩١
	﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا﴾ .	٨-٩	١٨٤
	﴿وأنا من المسلمون ومنا القاسطون﴾ .	١٤-١٥	١٨٤
٧٤	**المدثر**		
	﴿ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ .	٣١	٧٧
٧٥	**القيامة**		
	﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾	٢٢-٢٣	١١٧
٧٦	**الإنسان**		
	﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه﴾ .	٢	١٤٦

الرقم	السورة	الآية	رقم الصفحة
٧٨	**النبأ**		
	﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون﴾ .	٣٨	١٦٤
٨٠	**عبس**		
	﴿فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً﴾ .	٢٧-٢٨	٩٩
٨١	**التكوير**		
	﴿انه لقول رسول كريم﴾ .	١٩	١٦٥
٨٢	**الإنفطار**		
	﴿وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾ .	١٠-١٢	١٧٨
٨٣	**المطففين**		
	﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ .	١٥	١١٩
	﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ .	٢٦	١١٧
٨٤	**الإنشقاق**		
	﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾	٧-٨	٢٢٥
٨٦	**الطارق**		
	﴿فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق﴾ .	٥-٧	٩٣
	﴿والأرض ذات الصدع﴾	١٢	٩٤
٨٩	**الفجر**		
	﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾ .	٢٢	١١٢
٩٣	**الضحى**		
	﴿والضحى والليل إذا سجى﴾	١-٣	١٤٧
١١٢	**الإخلاص**		
	﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد﴾ .	١-٤	٦٢-٨٥

فهرس الأحاديث

الرقم	الحديث	الراوي	الصفحة
	(ب)		
٤٧	«بعثت أنا والساعة كهاتين» .	جابر	٢٠٩
	(ت)		
٤٨	«تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق» .	المقداد بن الأسود	٢٢٣
٤٩	«تكفل الله عز وجل لمن جاهد في سبيله» .	أبو هريرة	١١١
	(ح)		
٥٠	«الحجر الأسود يمين الله»	أنس	١٢٣
٥١	«الحلال بيّن والحرام بيّن»	النعما بن بشير	١٠٣
	(خ)		
٥٢	«خلقت الملائكة من نور» .	عائشة	١٦٣
	(ر)		
٥٣	«رأى جبريل له ستمائة جناح» .	عبد الله بن مسعود	١٦٥
٥٤	«رجل جسيم أحمر» .	عبد الله بن عمر	٢١٩
٥٥	«الراحمون يرحمهم الرحمن» .	عبد الله بن عمرو	٣٦
	(ز)		
٥٦	«زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة» .	أبو هريرة	٢٠١
	(س)		
٥٧	«سبحانك اللهم وبحمدك» .	أبو سعيد الخدري	١٨٨
٥٨	«سبعة يظلهم الله» .	أبو هريرة	٢٢٤
	(ف)		
٥٩	«فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن» .	عائشة	٦٣
٦٠	«فضلنا على الناس بثلاث» .	حذيفة	١٦٤
٦١	«فيأتي على القوم فيدعوهم» .	النواس بن سمعان	٢١٨

فهرس الأبيات الشعرية

الرقم	البيت		البحر	الصفحة
١	إذا خـان الأمـيـر وكـاتبـاه	وقـاضي الأمـر داهن في القـضـاء	الوافر	١٢٥
٢	فـويـل ثـم ويـل ثـم ويـل	لقاضي الأرض من قاضي السماء	الوافر	١٢٥
٣	الله يغـضب إن تركت سـؤاله	وبنيّ آدم حين يسـأل يغـضب	الكامل	١٩٨
٤	حكمنا فكان العفـو منا سجيّة	فلمـا حكمـتم سـال بالدم أبطح	الطويل	٤١
٥	فـحـسـبكم ذاك التـفـاوت بيننا	وكل إناء بالذي فـيـه ينضح	الطويل	٤١
٦	يامن ألوذ بـه فـيـمـا أؤمله	ومن أعـوذ به فـيـمـا أحـاذر	البسيط	١٨٥
٧	لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره	ولا يهـيـضـون عظمـاً أنت جـابره	البسيط	١٨٥
٨	تمر بنـا الأيـام تـتـرى وإنما	نسـاق إلى الآجـال والعين تنظر	الطويل	٤٦
٩	فلا عائد ذاك الشباب الذي مضى	ولا زائـل هذا الشـيـب المكدر	الطويل	٤٦
١٠	لفـقـدك طلاب العلم تأسـفـوا	وجـادوا بدمع لا يبـيـد غـزير	الطويل	٥٨
١١	ولو مـزجـوا مـاء المدامع بالدمـا	لكان قليـلاً فـيك يابن كـثـيـر	الطويل	٥٨
١٢	تالله لو كنت إلهـاً مـسـتـدن	لم تك والكلب جـمـيـعـاً في قـرن	الرجز	٦٧، ٨٨
١٣	نأت بسـعـاد عنك نوى وشطون	فـبـانت والفـؤاد بهـا رهين	الوافـر	١٨٠

فهرس الأعلام والرواه

فهرس المصادر والمراجع

١- القـــــرآن الكـــــــريـــم

حـــرف الألـــف

٢-الابتلاء والمحن في الدعوات (محمد عبد القادر أبو فارس) .

٣- ابن تيمية (محمد يوسف موسى) مكتبة مصر .

٤- ابن تيمية السلفي (محمد خليل هراس) دار الكتب العلمية - بيروت ط (١) ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .

٥- اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين (محمد بن محمد الحسيني الزبيدي) ط - دار الفكر - بيروت .

٦- أحكام الجان (محمد بن عبد الله الشبلي) تحقيق (السيد الجميلي) ط دار بن زيدون .

٧- إحياء علوم الدين (أبي حامد الغزالي) ط - دار إحياء الكتب العربية .

٨- الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ (محمود عبد الحليم) ط - دار الدعوة .

٩- أركان الإيمان (وهبي سليمان الألباني) ط - (٤) ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .

١٠- أساس البلاغة (محمود الزمخشري) ط - دار الفكر - بيروت .

١١- أسباب النزول (على بن أحمد النيسابوري) ط - دار الكتب العلمية .

١٢- الإستيعاب في معرفة الأصحاب (يوسف بن عبد البر) تحقيق (محمد علي بجّاوي) مكتبة نهضة مصر .

١٣- أسد الغابة في معرفة الصحابة (عز الدين بن الأثير) ط - دار الشعب .

١٤- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (محمد أبو شهبة) ط (٤) ١٤٠٨هـ مكتبة السنة القاهرة .

١٥- الإسلام وحركة التاريخ (أنور الجندي) دار الكتاب اللبناني ط - ١٩٨٦م .

١٦- كتاب الأسماء والصفات (أحمد بن الحسين البيهقي) ط - دار إحياء التراث .

١٧- الإصابة في تمييز الصحابة (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني) ت : ٨٥٢هـ ط - دار الكتب العلمية بيروت .

١٨- أصول السرخسي (أحمد بن أبي سهل السرخسي) ط - ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م دار المعرفة بيروت .

١٩- أصول الفقه (محمد زكريا البرويسي) دار الثقافة ١٩٨٣م .

٢٠- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (محمد الأمين الشنقيطي) عالم الكتب - بيروت .

٢١- الإعتقاد على مذهب السلف (أحمد بن الحسين البيهقي) ط (٢) دار الكتب العلمية .

٢٢- آكام المرجان في أحكام الجان (عمر بن عبدالله الشبلي) دارالمعرفة - بيروت .

٢٣- الأم (محمد بن إدريس الشافعي) ط (٢) دار المعرفة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

٢٤- كتاب الأمثال (أبو عبيدة القاسم بن سلامة) تحقيق (عبد المجيد قطامش) ط (١) ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م دار المأمون للتراث .

٢٥- إنباء الغُمر بأنباء العُمر (أحمد بن حجر العسقلاني) تحقيق (حسن حبشي) ط - القاهرة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

٢٦- الأنساب (عبد الكريم بن محمد السمعاني) ط ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م - دار الكتب العلمية بيروت .

٢٧- الإيمان (أحمد بن تيمية) ط (١) دار الكتب العلمية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

٢٨- الإيمان (محمد بن إسحاق بن منده) تحقيق (علي الفقيهي) ط (١) ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

٢٩- الإيمان أركانه ، حقيقته ، نواقضه (محمد نعيم يس) ط (٤) ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م مكتبة الرسالة عمان .

٣٠- الإيمان (محمد بن يحيى العدني) ت : ٢٤٣هـ تحقيق حمد الحربي ط (١) ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م الدار السلفية .

حــرف البـاء

٣١- بداية الخلق (إسماعيل بن كثير) تحقيق (إبراهيم محمد الجمل) ط (١) ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م دار الكتاب العربي - بيروت .

٣٢- البداية من الكفاية في الهداية في أصول الدين (نور الدين الصابوني) تحقيق (فتح الله خليف) ط - دار المعارف ١٩٦٩م .
٣٣- البداية والنهاية (إسماعيل بن كثير) ط ١٩٨٠م مكتبة المعارف - بيروت .
٣٤- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (محمد بن علي الشوكاني) دار المعرفة - بيروت .
٣٥- بروتوكولات حكماء صهيون (شوقي عبد الناصر) ط (٢) .

حرف التاء

٣٦- تاج العروس من جواهر القاموس (محمد مرتضى الزبيدي) تحقيق (عبد الحليم الطحاوي) دار الجيل .
٣٧- تاريخ الأمم والملوك (محمد بن جرير الطبري) دار القلم - بيروت .
٣٨- تاريخ بغداد (أحمد بن علي الخطيب البغدادي) ت : ٤٦٣هـ - دار الكتب العربية .
٣٩- تاريخ الفرق ونشأة علم الكلام عند المسلمين (علي مصطفى الغرابي) ط (٢) ١٩٨٥م مكتبة الإنجلو المصرية .
٤٠- تاريخ مختصر الدول (غريغوس الملطي المعروف بابن العبري) دار الميسرة - بيروت .
٤١- التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (أبي المظفر الإسفراييني) تحقيق (كمال يوسف الحوت) ط (١) ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م عالم الكتب .
٤٢- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي) دار الكتاب العربي - بيروت .
٤٣- التحرير والتنوير (محمد الطاهر بن عاشور) الدار التونسية للنشر .
٤٤- تحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر بن الحاجب (إسماعيل بن كثير) تحقيق (عبد الغني الكبيسي) ط (١) ١٤٠٦هـ - دار حراء - مكة المكرمة .
٤٥- تذكرة الحفاظ (محمد بن أحمد الذهبي) ت : ٧٤٨هـ ، دار إحياء التراث بيروت .
٤٦- التعريفات (علي بن محمد الجرجاني) ت : ٨١٦هـ تحقيق (عبد الرحمن عميرة) ط(١) ١٤٠٧هـ - ١٩٧٨م عالم الكتب .

٤٧- تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل (محمد جمال الدين القاسمي) ت : ١٣٣٢هـ ط (٢) ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .
٤٨- تفسير القرآن (عبد الرزاق بن همام الصنعاني) ت : ٢١١هـ ط (١) ١٤١٠هـ مكتبة الرشيد الرياض .
٤٩- تفسير القرآن الجليل المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل (أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي) ت : ٧١٠هـ دار الكاتب العربي .
٥٠- تفسير القرآن العظيم (أبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير) ت : ٧٧٤هـ دار إحياء الكتب العربية .
٥١- التفسير الكبير (فخر الدين الرازي) ت : ٦٠٤هـ دار الكتب العلمية - بيروت ط (١) ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .
٥٢- التفسير والمفسرون (محمد حسين الذهبي) مكتبة وهبة ط (٤) ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .
٥٣- تقريب التهذيب (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني) دار الفكر ط(١) ١٤٠٤هـ .
٥٤- تلبيس ابليس (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي) ت : ٥٩٧هـ دار الكتب العلمية ١٣٩٨هـ .
٥٥- التمهيد (القاضي الإمام أبي بكر محمد بن الطيب بن الباقلاني) ت : ٤٠٣هـ المكتبة الشرقية - بيروت ١٩٥٧م .
٥٦- تنوير المقباس من تفسير بن عباس (عبد الله بن عباس) ت : ٩٨هـ ، المكتبة الشعبية .
٥٧- تهذيب التهذيب (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني) ت : ٨٥٢ هـ ، دار الفكر ط (١) ١٤٠٤هـ .
٥٨- تهذيب الكمال في أسماء الرجال (جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن) ت : ٧٤٢ تحقيق(بشار معروف) مؤسسة الرسالة ط(١) ١٤١٣هـ .

حرف الجيم

٥٩- جامع الأصول في أحاديث الرسول (مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري) ت : ٦٠٦ هـ دار الفكر ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .

٦٠- الجامع لأحكام القرآن (أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي) ت : ٦٧١هـ دار الكتاب العربي ط (٣) ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

٦١- جامع البيان في تفسير آي القرآن (محمد بن جرير الطبري) دار المعرفة - بيروت ط (٣) ١٩٧٨م .

٦٢- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم (زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي) ت : ٧٩٥هـ دار الجيل - بيروت ط -١٤٠٧هـ .

٦٣- الجامع لشعب الإيمان (الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي) ت : ٤٥٨هـ تحقيق (عبد العلي حامد) الدار السلفية - بومباي ط(١) ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

٦٤- الجرح والتعديل (أبو حاتم الرازي) ت : ٣٢٧هـ ، ط دار الكتب العلمية .

٦٥- الجن (أحمد بن تيمية) ت : ٧٢٨هـ .

٦٦- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية) ت : ٧٥١هـ .

٦٧- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية) دار الجيل - بيروت ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

حرف الحاء

٦٨- حاشية الجمل (سليمان الجمل) ط دار احياء التراث .

٦٩- حديث الإسلام (محمد مصطفى أبو العلا) مطبعة مصطفى البعلي الحلبي وشركاه ط (١) ١٣٧٧هـ - بيروت - ١٩٥٨ م .

٧٠- الحسنة والسيئة (أحمد بن تيمية) دار الكتب العلمية .

٧١- حكمة الأديان الحية (جوزيف كاير) ترجمة رجال (حسين الكيلاني) دار مكتبة الحياة - بيروت - ١٩٦٤م .

٧٢- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الاصفهاني) ت : ٤٣٠هـ دار الكتاب العربي ط(٣) ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

٧٣- الحيوان (لأبي عثمان عمر بن بحر الحافظ) ت : ٢٥٥هـ تحقيق (عبد السلام هارون) دار الجيل - بيروت - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

٧٤- خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل (أحمد بن إسماعيل البخاري) ت : ٢٥٦هـ مؤسسة الرسالة ط(١) ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

حــــرف الدال

٧٥- دائرة المعارف الإسلامية : نقلها إلى العربية (محمد ثابت الفندي وآخرون) .

٧٦- دار معارف القرن العشرين (محمد فريد وجدي) ت : ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م دار المعرفة ط (٣) ١٩٧١م .

٧٧- دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين «الخوارج والشيعة» (أحمد محمد جلي) مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ط (٢) ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

٧٨- دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية (عرفان عبد الحميد) مؤسسة الرسالة ط(١) .

٧٩- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني) تحقيق (محمد سيد جاد الحق) دار الجيل .

٨٠- الدر المنثور في التفسير بالمأثور (عبد الرحمن جلال الدين السيوطي) ت : ٩١١هـ دار الفكر ط(١) ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

٨١- دلائل التوحيد (محمد جمال الدين القاسمي) تعليق الشيخ (خالد عبد الرحمن العك) دار النفائس ط(١) ١٤١٢هـ ١٩٩١م .

٨٢- الدين الخالص أو إرشادات الخلق إلى دين الحق (محمود محمد خطاب السبكي) .

حــــرف الراء

٨٣- رحلة القلب السليم في آثار رحمة الله عز وجل (محمد بن صفوك العلي) مكتبة دار العليان ببريدة .

٨٤- ردود على أباطيل (محمد الحامد) .

٨٥- الرد على الجهمية والزنادقة (أحمد بن حنبل) ت : ٢٤١هـ تحقيق (عبد الرحمن عميرة) .

٨٦- الرد الوافر على من زعم : بأن من سمى ابن تيمية «شيخ الإسلام» كافر (ابن ناصر الدين الدمشقي) تحقيق (زهير الشاويش) المكتب الإسلامي ببيروت ط (١) ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م .

٨٧- روح البيان (إسماعيل حقي البروسوي) ط دار الفكر .

٨٨- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (محمود الألوسي) ط : دار الفكر ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

حـــرف الزين

٨٩- زاد المعاد في هدي خير العباد (محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية) ت : ٧٥١هـ المكتبة المصرية - القاهرة .

حـــرف الســين

٩٠- سنن ابن ماجه (الحافظ أبن عبد الله محمد بن يزيد القزويني) ت : ٢٧٥هـ تحقيق (محمد فؤاد عبد الباقي) دار إحياء التراث العربي ١٩٧٥م

٩١- سنن أبي داود (الحافظ سليمان بن الأشعث السجستاني) ت : ٢٧٥هـ مصطفى البابي الحلبي ط (٢) ، وطبة أخرى لدار الدعوة (استنابول) ، ودار سحنون - تونس .

٩٢- سنن الترمذي (أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة) ت : ٢٧٩هـ .

٩٣- سنن الدارمي (أبي عبد الله محمد بن عبد الله الدارمي) ت : ٢٥٥هـ دار الكتب العلمية وطبعة أخرى لدار الدعوة استنابول ، ودار سحنون - تونس .

٩٤- سنن النسائي (الحافظ أبي عبدالرحمن بن شعيب النسائى) ت : ٣٠٣هـ دار الجيل ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

٩٥- سير أعلام النبلاء (شمس الدين الذهبي) ت : ٧٤٨هـ تحقيق (شعيب الأرناؤوط) مؤسسة الرسالة ط (٦) ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

٩٦- السيرة النبوية (عبد الملك بن هشام) ت : ٢١٣هـ ، دار الريان ط(١) ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .

حـــرف الشين

٩٧- شذرات الذهب في أخبار من ذهب (أبي الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي) ت : ١٠٨٩هـ دار آفاق الجديدة - بيروت .

٩٨- كتاب شـرح أصـول اعتقاد أهـل السنة والجماعة من الكتاب والسنة واجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم (أبي القاسم هبة الله بن الحسن بن مصنور الطبري اللالكائي) ت : ٤١٨هـ ، تحقيق (أحمد سعد حمدان) .

٩٩- شرح حديث النزول (أحمد بن تيمية) المكتب الإسلامي - بيروت ط (٥) ١٣٩٧هـ . ١٩٧٧م .

١٠٠- شرح العقيدة الطحاوية (محمد بن علي بن أبي العز الحنفي) ت : ٧٩٢هـ المكتب الإسلامي ط(٨) ١٤٠٤هـ . ١٩٨٤م .

حـــرف الصاد

١٠١- صبح الأعشى في صناعة الإنشا (أحمد بن على القلقشندي) ت : ٨٢١هـ تعليق (محمد حسين شمس الدين) دار الكتب العلمية بيروت ط(١) ١٤٠٧هـ .

١٠٢- صحيح الجامع الصغير (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي) ت : ٩١١هـ المكتب الإسلامي - بيروت ط(١) ١٩٦٩م .

١٠٣- صحيح مسلم (أبي الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري) ، ت : ٢٦١هـ دار الفكر .

١٠٤- صحيح مسلم بشرح النووي - دار الفكر .

حـــرف الضاد

١٠٥- ضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري عز وجل (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعي المعروف بأبي شامة) ت : ٦٦٥هـ تحقيق (أحمد عبد الرحمن الشريف) دار الصحوة .

١٠٦- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي) ت : ٩٠٢هـ دار مكتبة الحياة - بيروت .

حـــرف الطاء

١٠٧- الطب النبوي (ابن القيم) دار الندوة الجديدة - بيروت .

١٠٨- طبقات الشافعية الكبرى (تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي) ت : ٧٧١هـ دار المعرفة - بيروت .

حــرف العين

١٠٩- العصر المماليكي في مصر والشام (سعيد عبد الفتاح عاشور) دار النهضة العربية .

١١٠- عصمة الأنبياء في الكتاب والسنة (محمد الخضر بن الناجي ضيف الله) .

١١١- كتاب عصمة الأنبياء (محمد بن الحسن ، فخر الدين الرازي) دار الكتب العلمية - بيروت ط(١) ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

١١٢- العقائد الإسلامية (سيد سابق) دار سابق .

١١٣- العقيدة الإسلامية وأسسها (عبد الرحمن الميداني) دار القلم ط (٣) ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م .

١١٤- عقيدة المسلم (محمد متولي الشعرواي) جمع واعداد (عبد القادر أحمد عطا) دار الجيل ط(٢) ١٤٠٨هـ - ١٩٨١م .

١١٥- عقيدة المسلم (محمد الغزالي) ت : ١٤١٦هـ ، دار الدعوة - الإسكندرية ط(٣) ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .

١١٦- عقيدة المؤمن (أبو بكر الجزائري) المكتب الثقافي .

١١٧- العقيدة الواسطية (ابن تيمية) دار المجتمع ط(٨) ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

١١٨- علوم الحديث ومصطلحه (صبحي الصالح) دار العلم للملايين - بيروت ط(١) ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م .

١١٩- العواصم من القواصم (القاضي أبي بكر بن العربي المالكي) ت : ٥٤٣هـ تحقيق (محب الدين الخطيب) دار الكتب السلفية ط(١) ١٤٠٥هـ .

حــرف الغين

١٢٠- الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية (عبد الله سلّوم السامرائي) دار واسط .

حــرف الفاء

١٢١- فتح الباري في شرح صحيح البخاري (أحمد بن حجر العسقلاني) تحقيق (عبد العزيز بن باز) - إدارة البحوث والدعوة والافتاء / السعودية .

١٢٢- فتح القدير (الشوكاني) ط دار الفكر ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

١٢٣- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (عبد الرحمن حسن آل الشيخ) المكتبة السلفية ط(٥) ١٣٩١هـ .

١٢٤- الفتوى الحموية الكبرى (ابن تيمية) المطبعة السلفية - القاهرة ط (٣) .

١٢٥- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ابن تيمية) مكتبة محمد على صبيح ط (٢) ١٣٨٧هـ .

١٢٦- الفقه الأكبر (أبو حنيفة) - دار الكتب العلية بيروت ط(١) ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

١٢٧- مجلة فلسطين المسلمة العدد التاسع السنة الثالثة عشر ، ربيع آخر ١٤١٦هـ .

١٢٨- الفهرست (أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم) ت : ٤٣٨هـ .

١٢٩- في ظلال القرآن (سيد قطب) ت : ١٣٨٦هـ دار العلم - جدة ط (١٢) ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

حرف القاف

١٣٠- القاموس المحيط (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز أبادي) ت : ٨١٧هـ دار الجيل .

١٣١- قرة عيون الموحدين (عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ) انصار السنة .

حرف الكاف

١٣٢- الكامل في التاريخ (علي بن محمد بن الأثير الجزري) ت : ٦٣٠هـ ، دار صادر بيروت .

١٣٣- الكشف الإلهي عن شديد الضعف والموضوع والواهي (محمد بن محمد السندروسي) ت : ١١٧٧هـ تحقيق (محمد بكّار) مكتبة الطالب الجامعي ط (١) ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .

١٣٤- كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس (إسماعيل بن محمد العجلوني) ت : ١١٦٢هـ مؤسسة الرسالة ط(٤) ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

١٣٥- كنز العمال في سنن الأفعال والأقوال (علاء الدين الهندي) - مؤسسة الرسالة .

حرف اللام

١٣٦- لب اللباب في تحرير الأنساب (جلال الدين السيوطي) تحقيق (محمد وأحمد عبد العزيز) دار الكتب العلمية - بيروت ط (١) ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

١٣٧- لسان العرب (محمد بن مكرم بن منظور) ت :٧١١هـ صادر ، وأخرى لدار المعارف .

١٣٨- اللباب في تهذيب الأنساب (ابن الأثير الجزري) دار صادر - بيروت ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

١٣٩- لوامع الأنوار البهية ، وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الذرة المضيئة في عقد الفرق المرضية (محمد بن أحمد السفاريني) ت : ١١٨٨هـ المكتب الإسلامي - بيروت .

حــرف الميم

١٤٠- مائتي سؤال وجواب في العقيدة الإسلامية (حافظ بن أحمد حكمي) ت : ١٣٧٧هـ .

١٤١- مباحث في علوم القرآن (منّاع القطان) ، مؤسسة الرسالة ط (٤) ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

١٤٢- المجددون في الإسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر (عبد المتعال الصعيدي) دار الحمامي .

١٤٣- مجمع البحرين (فخر الدين الطريحي) ت : ١٠٨٥هـ دار الهلال ١٩٨٥م .

١٤٤- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي) ت : ٨٠٧هـ دار الفكر ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

١٤٥- مجموعة التوحيد (ابن تيمية) دار العروبة - قطر .

١٤٦- مجموعة رسائل الامام الشهيد (حسن البنا) .

١٤٧- مجموعة الرسائل الكمالية رقم (٣) (أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي) ت : ٣٢١هـ مكتبة المعارف .

١٤٨- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (عبد الحق بن غالب بن عطية) ت : ٥٤٢هـ تحقيق (أحمد صادق الملاح) .

١٤٨- محيط المحيط (بطرس بن بولس البستاني) ت : ١٣٠٠هـ ، مكتبة لنبان - بيروت ١٩٨٧هـ .

١٤٩- مختصر الفتاوى المصرية (ابن تيمية) .

١٥٠- المختصر في أخبار البشر (الملك المويد أبي الفداء إسماعيل بن علي) ت : ٧٣٢هـ دار الفكر ١٣٧٥هـ .

١٥١- المدخل إلى دراسة علم الكلام (حسن محمود الشافعي) ، مكتبة وهبة ط(٢) ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

١٥٢- مراح لبيد المسمى التفسير المنير المسفر عن وجوه محاسن التأويل (يحيى بن شرف النووي) ت : ٦٧٦هـ ، دار الفكر .

١٥٣- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (صفي الدين عبد المؤمن البغدادي) ت : ٧٣٩هـ تحقيق وتعليق (علي محمد البجاوي ، دار احياء الكتب العربية) ط (١) ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م .

١٥٤- مروج الذهب ومعادن الجوهر (أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي) ت : ٣٤٦هـ ، ط (٥) ١٣٩٣هـ -١٩٧٣م ، دار الفكر .

١٥٥- مسند الإمام أحمد (أحمد بن محمد بن حنبل) ت : ٢٤١هـ - دار صادر .

١٥٦- المسيرة الإسلامية للتاريخ (منير محمد الغضبان) دار الفرقان ط(٢) .

١٥٧- مشاهد القيامة في الحديث النبوي (أحمد العلي) دار الفرقان ط (١) ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

١٥٨- مصائب الإنسان من مكائد الشيطان (تقي الدين أبي إسحق إبراهيم بن محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي) دار الكتب العلمية - بيروت ط(١) ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

١٥٩- مع الأنبياء في القرآن الكريم (عفيف عبد الفتاح طباره) دار العلم ط (٢)

١٦٠- معارج القبول بشرح سلّم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد (حافظ بن أحمد بن علي الحكمي) ت : ١٣٧٧هـ دار الكتب العلمية - بيروت ط(١) ١٤٠٣هـ - ١٩٣٨م .

١٦١- معجم الأخطاء اللغوية (محمد العدناني) مكتبة لبنان ط(١) ١٩٨٤م .

١٦٢- معجم الأدباء (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي) ت : ٦٢٦هـ دار الفكر .

١٦٣- معجم الأعلام (بسام عبد الوهاب الجابي) ، الجفان والجابي للطباعة والنشر ط (١) ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

١٦٤- معجم البلدان (أبي عبد الله ياقوت الحموي) ت ٦٢٦هـ دارصادر بيروت ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

١٦٥- معجم مقاييس اللغة (أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني) ت : ٣٩٥هـ تحقيق (عبد السلام هارون) دار الكتب العلمية .

١٦٦- المعجم الوسيط (ابراهيم انيس وآخرون) دار احياء التراث العربي ، ط(٢) .

١٦٧- المفردات في غريب القرآن (حسين بن محمد الراغب الأصفهاني) ت : ٥٠٢هـ تحقيق (محمد سيد الكيلاني) المكتبة المرتضوية - طهران .

١٦٨- مقالات الإسلامين وإختلاف المصلين (أبي الحسن على بن الحسن الأشعري) ت : ٣٢٤هـ دار إحياء التراث ط (٣) .

١٦٩- مقدمة ابن (خلدون [كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) المكتبة التجارية الكبرى مصر .

١٧٠- الملل والنحل (أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني) ت : ٥٤٨هـ تحقيق عبد العزيز الوكيل دار الفكر .

١٧١- منهاج السنة النبوية (ابن تيمية) المكتبة العلمية - بيروت .

١٧٢- منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام (جمعة عبد العزيز) دار الدعوة ط(٢) ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

١٧٣- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (جمال الدين يوسف الأتابكي) تحقيق (أحمد يوسف نجاتي) دار الكتب المصرية ط (١) ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م .

١٧٤- ميزان الإعتدال في نقد الرجال (أبو عبدالله بن محمد بن أحمد الذهبي) ت : ٧٨٤هـ - دار الفكر العربي .

١٧٥- الموسوعة العربية الميسرة -دار نهضة لبنان ١٤٠١هـ -١٩٨١م

حــرف النـون

١٧٦- النبوات (ابن تيمية) دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٥هـ .

١٧٧- النبـوة والأنبيـاء في ضوء القرآن (أبي الحسن علي الحسيني الندوي) ، مكتبة وهبة القاهرة ط (٢) ١٣٨٥م - ١٩٦٥م .

١٧٨- النبوة والأنبياء (محمد علي الصابوني) دار الحديث ط (٢) ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م .

١٧٩- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى الاتابكي) ت : ٨٧٤هـ ، تحقيق (إبراهيم على طرخان) ط مصورة عن دار الكتب

١٨٠- نزهة الأعين والنواظر في علم الوجوه والنظائر (أبو الفرج - عبد الرحمن بن علي بن الجوزي) ت : ٥٩٧هـ .

١٨١- نظام الإسلام - العقيدة والعبادة (محمد المبارك) دار الفكر ط(١) ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

١٨٢- نهاية الأرب في فنون الأدب (أحمد عب الوهاب النويري) ت :٧٣٣هـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

١٨٣- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي) ت : ٨٢١هـ دار الكتب العلمية - بيروت ، ط (١) ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م .

١٨٤- النهاية في الفتن والملاحم (الحافظ ابن كثير) تحقيق (محمد أحمد عبد العزيز) دار التراث الإسلامي - الأزهر .

حـــرف الـواو

١٨٥- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (أبي العباس أحمد بن خلكان) تحقيق (احسان عباس) دار الثقافة - بيروت .

١٨٦- وقاية الإنسان من الجن والشيطان (وحيد عبد السلام بالي) مكتبة الصحابة ط(٢) ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
ثانياً : تلاميذه	٥٣
المطلب الثالث : مكانته العلمية وثناء العلماء عليه .	٥٥
أولاً : مكانته العلمية .	٥٥
ثانياً : ثناء العلماء عليه .	٥٦
المطلب الرابع : مؤلفاته ووفاته .	٥٧
أولاً : مؤلفاته	٥٧
ثانياً : وفاته .	٥٨
الفصل الثاني : القضايا العقدية في دارسة الإمام ابن كثير	٥٩
المبحث الأول : أدلة الإمام ابن كثير في تقرير مسائل العقيدة .	٦٠
المطلب الأول : القرآن الكريم .	٦١
المطلب الثاني : السنة النبوية .	٦٣
المطلب الثالث : أقوال الصحابة .	٦٦
المطلب الرابع : أقوال التابعين .	٦٨
المطلب الخامس : إجتهاده .	٧٠
المبحث الثاني : قضايا الإيمان والكفر في دراسة ابن كثير	٧١
أولاً : قضايا الإيمان	٧٢
تعريف الإيمان .	٧٢
المطلب الأول : كيفية الدخول في دين الله عزّ وجلّ .	٧٣
المطلب الثاني : زيادة الإيمان ونقصه .	٧٦
ثانياً : قضايا الكفر .	٧٩
تعريف الكفر	٧٩
المطلب الثالث : نقض توحيد الربوبية .	٨٢
المطلب الرابع : نقض توحيد الأسماء والصفات .	٨٤
المطلب الخامس : نقض توحيد الألوهية .	٨٦

الموضـــــوع	رقم الصفحة
الأول : جوهر الرسالة التي يحملها .	١٥٣
الثاني : الإستدلال بشخصية الرسول وأخلاقه وسلوكه .	١٥٣
الثالث : الإستدلال بأخبار وصفات الرسل السابقين وانطباقها عليهم .	١٥٣
الرابع : الإستدلال بالمعجزة التي يجريها الله على يديه .	١٥٥
ثالثاً : معجزاتهم	١٥٦
انواع المعجزات	١٥٧
رابعاً : المافضلة بين الأنبياء .	١٥٨
المطلب الرابع : رأيه في الكرامات .	١٦٠
المبحث الخامس : السمعيات في دراسة ابن كثير	١٦٢
المطلب الأول : الملائكة وما يتعلق بهم	١٦٣
من هم الملائكة ومماخلقوا .	١٦٣
صفات الملائكة .	١٦٣
١- المداومة على العبادة والتسبيح .	١٦٣
٢- القوة في الخلق وحسن المنظر .	١٦٤
٣- الطاعة التامة لله والخضوع لجبروته ، والقيام بأوامره .	١٦٧
٤- حضورهم مجالس الذكر .	١٦٧
هاروت وماروت	١٦٨
منكر ونكير .	١٧٦
أقسام الملائكة .	١٧٧
فصل في أيهما أفضل الملائكة أم البشر .	١٧٨
الإيمان بالملائكة .	١٧٩
المطلب الثاني : الجن وما يتعلق بهم .	١٨٠
تعريف الجن	١٨٠
خلق الجان وقصة الشيطان .	١٨٠
حقيقة الجن وصفاتهم .	١٨٣